

ابراهيم عيسى

# مقتل الرجل الكبير

رواية

Mico Mark

الحزن محاوطة  
وهمك تاعبكى  
وليه مش قادرة تبكى

الأعيان خانوكة  
سارقين طين أبوكى  
لعدوك باعوكى  
ولإيد الزمن  
باعوكى  
وشافوكى  
وهمه بيدبحوكى  
وضحكوا وفاتوكى  
وقبضوا التمن

عروكة فى ميدانهم  
ولا واحد أدانهم  
وعلوا أدانهم  
وبقالهم جرس

جلادك محامى  
وحاميك حرامى  
وبايه ينفع كلامى  
يا ساكنه الخرس

عبد الرحمن الأبنودى  
من مسلسل النديم

## إهداء

إلى جمل فهمي

الصديق والمناضل ووالد عبلة

أما الصديق فأنا فخور به

أما المناضل فأنا أوّمن به

أما والد عبلة فأنا أحسده عليها

إبراهيم عيسى

لم يكن أمامه إلا أن يشعر بالذهول، فشعر..  
 ماذا يفعل المرء إزاء شيء كهذا سوي أنه لا يفعل؟  
 طرق علي باب الرئيس بأدب وبتردد.. لقد تأخر في نومه  
 هذا الصباح فخرق عاداته المقدسة، مرت نصف ساعة كاملة  
 علي موعد خروجه من الباب مرتديا التي شيرت الأبيض من  
 ماركة لاكوست الرياضية ومن نفس الماركة شورت أبيض  
 ينتهي بلون أزرق سماوي عند حوافه، الرئيس يملك ١٢ طاقما  
 من نفس اللون والشكل، وغالبا لا يتحمل بقاء ملابسه الرياضية  
 علي جسده بعد مباراة التنس الصباحية، فيمشي من مضمار  
 الملعب داخل القصر الرئاسي إلي الجناح المنزلي عاريا إلا من  
 لباس داخلي، وفي السنوات الأخيرة لم يعد هناك فارق كبير بين  
 شتائه وصيفه (عقدت العاصمة مؤتمرا دوليا جمع خبراء  
 الطقس والمناخ في معظم بلدان العالم، الأمر الذي تكلف لست  
 ليال جزءا مبالغا فيه من الميزانية المخصصة لعقد ٣٧ مؤتمرا  
 خلال السنة في عاصمة البلاد، مؤتمرا مخصوصاً تحت عنوان  
 محاولة إعادة الشتاء إلي بلادنا).

آخرة الحكاية، أن الرئيس لم يظهر علي غير عاداته المقدسة وكان الواجب علي سكرتيه الخاص أن يوقظه وهي أمور من الندرة حتي إنها لم تحدث.

في ذلك الصباح ومنذ سنوات ورغم مأساة الخبر إلا أن سكرتيه لم يوقظه من النوم انتظر حتي خرج مرتديا ملابسه الرياضية، واتجها معا إلي ملعب التنس كان سفير قديم للسويد في زيارة للعاصمة بعد أن انتقل منها منذ سنوات وطلب لقاء الرئيس لملاقاته في مباراة تنس كانا قد تعودا إقامتها عاما تلو آخر أثناء خدمة السفير لبلاده في العاصمة وقد رحب الرئيس فوراً وتم تحديد الموعد بهذا الصباح، حضر الرجل مبكراً في سيارة رئاسية أقلته من الفندق حتي غرفة خلع الملابس في الملعب الرئاسي وخرج إلي الملعب في انتظار الرئيس الذي حضر في موعده بالضبط تصافحا بحرارة وخطب الرئيس سفير السويد السابق في صدره حتي تتحنج الرجل وقال للسفير بأسلوبه الصارم:

- ما أخبار المقويات الجنسية يا جو؟

ضحك السفير ورد في سعادة:

- اسأل إدارة الفندق يا فخامة الرئيس عن ليلة أمس في

غرفتي.

دارت مباراة حامية سببها أن الرئيس في الغالب كان حاقدا علي الليلة التي لم يعرف تفاصيلها في غرفة السفير بالفندق، لم ينهزم الرئيس منذ عشرين عاما في أي مباراة تنس لعبها، حتي

أنه ذات مرة زار البلاد في جولة سياحية المصنف العالمي رقم واحد في لعبة التنس قرر الرئيس أن تتحمل البلاد كافة تكاليف زيارة اللاعب وإقامته في قصر تابع للقصور الرئاسية واعتباره ضيفا رسميا، الأمر الذي جعل اللاعب يعتذر لارتباطه بالفوج السياحي الذي جاء معه فأمر الرئيس - باعتبار - الفوج السياحي وفدا رسميا في ضيافة الدولة وكان طبيعيا أن يخسر بطل التنس العالمي مباراته مع الرئيس - بصعوبة - بعد ذلك بثلاثة أيام.

فاز الرئيس - قطعا - بمباراته مع السفير السابق وخرج من الملعب خالعا فائقته، ساعتها كاد السكرتير يفعلها ويقول له الخبر الأسيف لكنه تردد حتي سبقه الرئيس إلي حمام السباحة، كان الحرس متناثرين بانتظام والصمت لغة صاخبة في المكان كله حيث تخترقه جلجلة الماء تحت ذراعي الرئيس.. جلس السكرتير علي مقعد خشبي في ركن حول حمام السباحة ومر الوقت كعجلات قطار علي صدره حتي عنت من الرئيس لفظة إليه وسأله في اقتضاب:

- هل جاءتك أخبار من لندن هذا الصباح؟

كان الرئيس يقصد المستشفى الذي تعالج فيه السيدة الأولى منذ أسابيع في العاصمة البريطانية لندن.. وأخيرا وجد السكرتير نفسه مضطرا أن يتكلم فقال له:

- نعم يا سيادة الرئيس.. وصلتنا أخبار.

- هل هي بصحة جيدة؟

- للأسف يا سيدي الرئيس البقية في حياتك.  
قالها السكرتير وهو يخشي التضحية بمستقبل أولاده، حيث يعلم أن الرئيس متي غضب من خبر اعتبر الشخص المبلغ مسئولاً عن حدوث الخبر وسواده وسوئه، ولم يكن ليفاجأ كثيراً لو أن الرئيس سجنه عقاباً علي خبر كهذا كأنه الطبيب المسئول عن صحة السيدة الأولى في جناحها بالمستشفى الإنجليزي. كان السكرتير يرتعش فعلاً وقد ظن لوقت أنه يبول علي نفسه - لحسن حظه كان مجرد إحساس غير حقيقي - لكن الرئيس استمر في سباحته وسادت جلجلة الصمت مرة أخرى عبر ذراعي الرئيس وهو يضرب ماء حوض السباحة طال الصمت، وطال العوم، وكأن القصر الرئاسي كله وقتها يمشي علي قطع زجاج مكسورة توتراً وترقباً.  
أول ما تحدث به الرئيس فور خروجه من حوض السباحة، أن رد علي السكرتير.

- وفي حياتك البقية.

ثم ارتدي الروب الأبيض ومضي يعطي أوامره حول مراسيم الجنازة والحداد الوطني وطلب حضور ابنه إلي القصر فوراً.

حتي ذلك الصباح لم يكن أحد قد استطاع إيقاظ الرئيس، وربما لم يكن أحد في حاجة إلي إيقاظه، حيث كان نشطاً في يقظته، مبكراً فيها، صحياً ورياضياً رغم تجاوزه الثمانين من عمره (كان عمره سراً قومياً، ممنوع التصريح أو التلميح به في

أي مطبوعة أو قناة تليفزيونية) لكن اليوم كان السكرتير مطالباً أن يترك باباً وجلاً ومذنباً تماماً.  
لم يستجب الرئيس لطرق الباب.  
لا حس ولا خبر.

كان الرئيس قد أمر بإلغاء الكاميرا التليفزيونية التي تغطي غرفته والممر إليها وقال لمدير أمن القصر:  
- جري إيه يا تيس.. عايز تصورني وأنا نايم علي سريري.

وعبثاً حاول مدير الأمن شرح أنه يمكن توقيف الكاميرا متي طلب الرئيس ذلك في أي لقاءات غرامية خاصة، لكن الرئيس رفض المبدأ تماماً وأصر بحزم علي إلغاء الكاميرا (مدير الأمن الذي تدرب في بعثة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية علي أمن الرئاسة والزعماء) تكلفه البعثة ٦ ملايين دولار تقريباً كانت منحة من الحكومة الأمريكية، الأمر الذي جعل الرئيس يدفع ٦ ملايين دولار أخرى بنفسه من خزانة الدولة لتدريب شخص آخر حتي لا يقع في قبضة شخص واحد محترف يفرض شروطه ثم مات الشخص وراحت الملايين الستة. تواعد الرئيس مدير الأمن لو وصلت إليه أي معلومة عن تصوير غرفة النوم فسوف يعدمه بنفسه (كان الرئيس قد أعدم بنفسه في الأعوام العشرة الأخيرة حوالي ستة أشخاص).

هل كان لذلك أن يحدث؟

أن تفتح باباً لغرفة فتجد مصيبة.

السكرتير نفسه - طيلة عمره - لم يفكر في أي من هذه اللحظات التي تسرق الرجولة، أن تفتح باب منزلك فتجد دبابات في الشارع تعلن احتلال الوطن أخف وطأة من أفضع كوابيس فتح أبواب الغرف المغلقة.

لقد سبق وفتح باب غرفة نومه فرأى زوجته تضاجع عشيقها، صار ساعتها مبهوتا ومذهولا ومنتشلا تماما من الوعي، في حالات يعرفها - طبقا لموقعه الخاص الذي يسمح له بتفتيش خصوصيات الناس وخصائص نوافذهم - كان بعض الأزواج يطلق الرصاص وآخرون يصابون بالشلل أو الذبحة الصدرية، أما هو فقد شعر بالذهول والعجز المريع، ولم يعرف ماذا يفعل؟ عرفت زوجته وعشيقها، نهضا من السرير وارتديا ملابسهما وخرجا إلي الصالة وودعت الزوجة العشيق قائلة:

- روح أنت دلوقتي.

خرج العشيق بسرعة وهو يستكمل ارتداء ملابسه ولم يشأ أن يمضي دون أن يتكلم فقال:

- ابق طمني عليكي في التليفون.

كأن سكرتير الرئيس كان ينتظر تلك الجملة، كأنها كلمة السر، فأخرج مسدسه وأطلق عليه الرصاص، انتثر معها جسده وخرر دما أكثر من المتوقع في مثل هذه الإصابات، التفت إلي زوجته التي اغتصبها الذعر كلية وبدا أن شدة ارتجافها تهز أثاث الصالة.

ظل الرئيس يسأله عن تفاصيل تلك الليلة لمدة عام تقريبا، وكان قد أصدر أوامره بلم الموضوع، خصوصا أن العشيق كان طالبا في الجامعة لا يزال وابنا لوزير مخلص في الوزارة ورفعت الشرطة يدها عن أي ملابس في هذه القضية، ولا يوجد سطر واحد في أي ملف رسمي يحكي طرفا من هذا الكلام، بل تم دفن جثة الشاب العشيق بشهادة صحية تثبت أنه ميت بالسكتة القلبية، وبقيت الزوجة زوجة للسكرتير وقتا طويلا بعدها، وكان يحلو للرئيس إذا رآها - وأحيانا يطلب أن يراها - أن يسألها عن الفرق بين زوجها وعشيقها.

لا شيء يمكن أن يحدث أسوأ من أن تفتح باب غرفة فتجد زوجتك عارية في حضن عشيقها، ربما الأسوأ من ذلك فقط هي أن تكون أمك وليست زوجتك.

إلا أن ما شاهده السكرتير بمجرد أن فتح باب غرفة الرئيس الداخلية جعله يدرك أنه لن يفاجأ بعد الآن أبدا، أو أن المفاجأة ماتت في حياته بعد تلك اللحظة.

تسمر بدنه وتثبت أنفاسه وهو يري الرئيس نائما علي سريريه الواسع والفسيح وقد نفذ عنه غطاءه وتبعثرت ملاءاته، لكن النومة مستلقية وهادئة تماما.. فقط غزير الدم ينبثق من صدره وبطنه ويمضي لينسكب علي الملابس الحريرية والملاءات ثم يقطر قطرة وراء أخرى، حنفية دم خربة علي السجادة المفروشة حول السرير كله، الرئيس واضع ذراعيه بجانبه مفودتين في راحة وملامحه بلا غضب أو

فزع. وخنجر كبير عريض مشرشر ولامع مغروس في بطنه ومقبضه الفضي بلا آثار دماء.

تلقى رئيس الحرس مكالمة علي هاتفه المحمول، عرف من الرقم أنه هاتف السكرتير الشخصي للرئيس، رد عليه:  
- يا صباح الفل يا بك.

تكلم السكرتير دون أن ينتظر آخر حروف كلمات رئيس الحرس.

- تعال بسرعة لوحذك غرفة نوم الرئيس.

شعر رئيس الحرس بنبرته الملتاعة وهمسه المحفوف بالمخاطر، تساءل:

خير.. الرئيس زعلان من حاجة؟

في اقتضاب أجاب:

- الرئيس مقتول في غرفة نومه وغارق في دمه علي

سريره.

تأخر رئيس الحرس في الوصول إلي غرفة نوم الرئيس عدة دقائق، تأكد السكرتير الخاص أنها طالت أكثر من اللازم، كان علي رئيس الحرس أن يفعل شيئين قبل أن يأتي، الأول أن يدخل الحمام الملحق بمكتبه حتي يغير هدومه الداخلية، فقد بال علي نفسه من هول الخبر. والثاني أن يقف تائها غارقا في ذهوله يسأل بعض حراسه عن الطريق إلي غرفة نوم الرئيس.. لقد تاه في مكان عمل به كل هذه السنوات من الهول الهائل الذي تلقاه.

لم تكن مشكلة رئيس الحرس أن الرئيس مات مقتولا في غرفة نومه حيث مسئوليته المباشرة عن أمنه، لكن المشكلة الكبرى التي حطمت ضلوعه أن الرئيس قد مات.  
فهو - من بين كثيرين جدا في هذا الوطن - وصل به الظن حد العقيدة أن الرئيس لن يموت أبدا.



تلقي سائق السيارة إشارة باللاسلكي تطالبه بالعودة فوراً مع حمولته من الضباط إلى القصر الرئاسي، سمع الضباط العشرة في السيارة صوت اللاسلكي الأمر والحادث، ارتمي كل واحد في خندقه من الصمت والتفكير بينما توقفت السيارة في نحيب عجالاتها العريضة الغليظة، وفي ذلك الطريق الصحراوي الطويل المغرق في وحشته استدارت وباتت جاهزة للانطلاق عائدة إلى القصر الرئاسي، ساعتها أخرج أقدم الضباط الموجودين بالسيارة سيجارة وأشعلها فكان ذلك إذنا عملياً بالتدخين في هذا الصباح الذي تمرد علي أن يكون عادياً.

- تفكر فيه حاجة يا سيادة الرائد؟

خرج الدخان مع نفثات غضبه.

- أكيد فيه حاجة طبعاً.. آمال عايزنا نرجع ليه.

- لقد سلمنا خدمة الليل.

- إذن ماذا حدث في الليل؟

ضرب بيده علي ظهر السائق الذي ضغط علي البنزين وأخذت السيارة الأمريكية تجري تحاول أن تروي عطشهم لمعرفة سر هذا الصباح الأغبر، كانت القواعد أن يتسلم الجناح

الرئاسي كل ثماني ساعات عشرة من الضباط للحراسة، أي أن ثلاثين ضابطاً يحرسون الجناح لمدة أربع وعشرين ساعة. أما الحراسة المرافقة، فهي فريق آخر تقوده قواعد مختلفة، لكن المسؤولين عن الجناح الرئاسي في القصر هم أنفسهم الذين يحرسون أي جناح رئاسي يقضي الرئيس فيه ليله، سواء كان في القصر أو في البلاد أثناء زيارته التفقدية الكثيرة أو خارج البلاد في أي من القصور المضيئة أو الفنادق الفخيمة التي ينزل فيها الرئيس.

كانت الجملة التي يحفظها ضباط الجناح تلك الجملة التي ردها عشرات المرات خبير الأمن الأمريكي الذي دربهم في أحد قصور واشنطن التابعة للمخابرات الأمريكية لمدة شهرين كاملين.

- مهمتكم أن ينام الرئيس مطمئناً تحمونه من تسلل الأعداء والخصوم والاغتيال والأرق والكوابيس.

وكان يضيف عند أي استفسار ردل من أحدهم:

- نعم إحدي مهامكم تفتيش زائريه في الأحلام وإن أمكن ملازمة الرئيس في حلمه حتي نطمئن تماماً.

طبعاً عبور عشرة آلاف ميل بين واشنطن والعاصمة كان كفيلاً بإعادة صياغة هذه الأوامر والقواعد علي نحو يناسب حرساً يحرس الرئيس منذ ثلاثة آلاف سنة حضارة.

كان كل ضابط في السيارة يشعر أنه يركب محفته إلي قبره وليست تلك السيارة التي كانت رؤيتها علامة نهاية اليوم

بالنسبة لهم، يتسلمون العمل بعد وصولهم بساعة، حيث تتم إعادة تفتيشهم وكانت القاعدة أن يخلعوا ملابسهم تماماً، ويستحموا بماء مخصوص يسمح بنوع فريد من الأشعة تحت الحمراء أن يكشف ما إذا كان تحت جلدهم أي مادة أو معدن يصلح للتجسس أو للقتل، بعدها يتسلمون ملابسهم التي يتم الكشف عليها بجهاز الليزر، ثم يتسلم كل فرد فيهم في حجرة منفردة سلاحه مع كلمة سر خاصة لاستخدام هذا السلاح فقط، بحيث لا يستطيع أي ضابط استخدام سلاح زميله دون معرفة كلمة السر.

يتم توزيعهم علي الأماكن العشرة للحراسة في الوقت الذي يذهب فيه أفراد الخدمة السابقة للاستحمام مرة أخرى وارتداء ملابسهم المدنية ثم كتابة تقرير عن الساعات الثماني كل ضابط عن زميله التالي له في موقع الحراسة، وهي تقارير مكتوبة علي نموذج مطبوع يتطلب فقط مجرد كتابة أسطر سريعة بخط اليد ومجمل تقييمه مع علامات صح وخطأ علي بعض الفقرات ثم يتناولون طعام الإفطار، بعدها يركبون السيارة العسكرية المخصصة للانتقال من القصر والعودة إليه حيث من الممنوع تماماً علي أي ضابط استخدام سيارته الخاصة أو التصريح لأي شخص من الأمن بالدخول بسيارته وهي الأمور الصارمة التي لم تستطع قوانين الفوضى التاريخية التي يمارسها أبناء هذا الشعب التحايل عليها، عندما اقتربت السيارة التي تقل الضباط من القصر في قلب الصحراء بدا أول ما بدا صورة الرئيس

الرئيس الذي يملك ثلاثين في المائة من أسهم الشركة، ولم تكثف الحكومة بالمليار الذي حصلت عليه الشركة نتيجة رضا الرئيس عن القصر في صورته النهائية وبمناسبة افتتاحه، بل منحته كل عقود ترميم المعابد والآثار في البلاد ورغم انهيار أعمدة أقدم معبد في جنوب البلاد بعد أن رُممته هذه الشركة، إلا أن الذنب وقع كله علي الرومان الذين بنوا المعبد وليس علي الرومان الذين رمموا المعبد.

الصحراء الشاسعة التي تحيط بالقصر كانت اختياراً واضحاً من الرئيس الذي خرج ذات يوم من الحمام مقررأ بناء قصر رئاسي جديد يبعد عن العاصمة وفي وسط الصحراء، ولم يحاول أحد أن يسأله لماذا؟ وما عيب القصور الحالية (للرئيس أربعة قصور في العاصمة ومثلها في أهم مدينتين بالبلاد وثمانية عشرة استراحة في أرجاء الوطن) فضلاً عن أنه أعجب بموقع إحدى البنايات في وسط العاصمة والتي تطل علي النهر، فأُنشئت استراحة فوق سطح الدور السادس والثلاثين يشاهد منها الرئيس إذا عن له الوحي مشهد العاصمة من فوق البناية المفضلة لديه، وقد منحها الرئيس بعد عامين لسائحة أجنبية التقى بها في إحدى زيارته للمناطق الأثرية في البلاد، حيث طلبت أن تلتقط لها صورة معه وأعلنت عن رغبتها الحميمة في العيش في البلاد فأهداها الرئيس هذه الاستراحة وقد تابعت إذاعات الوطن ومحطاته التلفزيونية هذه الهدية الكريمة من الرئيس (لكن أحداً لم يعقب علي ما نشرته وكالة أنباء فرنسية

تتردد أمام الأعين آلاف المرات، حيث هذا السور بارتفاع ثلاثة أمتار ومسافة ستة كيلومترات مكون من ملايين قطع الطوب الذي تم تصميمه علي أن يحمل مقطعاً من وجه الرئيس بحيث تتمكن أربع قطع طوب، اثنتان فوق، واثنتان تحت من تكوين صورة ملونة للرئيس، ثم تتكرر هذه الصورة مع كل أربع قطع طوب بحيث لا تري سورا صخرياً ولا حجرياً، بل سوراً من صور الرئيس التي لاتخطئها عين علي بعد مئات الأمتار، بحيث يصنع عالماً من الرهبة والهيبة تخلع القلوب علي الداخلين والخارجين، والركع السجود، كانت فكرة الطوب اختراعاً إيطالياً جاءت به شركة من ميلانو بمجرد انتشار خبر بناء القصر الرئاسي الجديد، حيث دخلت عشرات الشركات صراعاً مدياً من أجل الحصول علي صفقة بناء القصر وكانت المناقصة المطروحة تتطلب شركة مقاولات عملاقة مع شركة اتصالات لاسلكية وأمنية مع شركة أثاث وديكور، وقد نجحت الشركة الإيطالية في الفوز بالصفقة التي تدر عليها ربحاً لن يقل عن مليار دولار بعد أن قدمت الفكرة الانتهازية العبقريّة وهي صورة الرئيس علي الطوب، لكن الجميع يعرف أن الفكرة وحدها لم تفتح الباب المغلق، بل إن اختيار الشركة الإيطالية لشركة مقاولات وطنية كمقاول باطن لها هو الذي دفع بالحكومة إلي الموافقة، رغم أن كل الشركات الأجنبية فعلت ذلك، إلا أن الشركة الإيطالية تميزت بأنها اختارت شركة يملكها رجل أعمال قريب من الرئيس وأشد قرباً من ابن

تؤكد أن هذه السائحة هي زوجة أشهر مالكي شركات السلاح في العالم ونشرت صوراً قديمة لها مع زوجها والعجيب أنها بثت صورة لها مع الرئيس وزوجها فوق ظهر أحد اليخوت منذ خمس سنوات).

وقد تأسس القصر بحيث يضم جناحاً رئيسياً للمعيشة والنوم، وثانياً لإدارة شئون البلاد وثالثاً للراحة والاستجمام ورابعاً لضيوف البلاد المخصوصين والمكرمين وخامساً لموظفي القصر وإدارة الأمن، وسادساً متاحف تضم صورته وأوسمته وأوشحته مع وجود ملاعب للتنس وحمامات للسباحة ومسرح ودار عرض سينمائية، حيث كان يدعو الرئيس ضيوفه من حكام الجيران لمشاهدة مسرحية يتم عرضها في المسرح الرئاسي لليلة واحدة خصيصاً للرئيس أو للرئيس وضيوفه، وقد روي أحد نجوم البلاد المسرحية مرة أنه أثناء إلقاء حوار في مسرحية أمام الرئيس، اعترض الرئيس علي الحوار وناداه من الصف الأول:

- مينفعش الكلام ده يا محمد.. قولها حاجة ثانية ولما لم يفهم محمد ماذا يفعل فقد صعد الرئيس إلي خشبة المسرح وألقي الحوار بالكلمات التي يريدونها فصفق الحاضرون كثيراً، وفي مسرحية أخرى لم تعجب الرئيس النهاية فغيرها وأعاد إخراجها ليلتها حتي يهدأ بالاً، وفي إحدى مشاهدات الرئيس لفيلم من إنتاج شركة وطنية لم يرتح للنهية وانزعج كثيراً منها إلي الحد الذي طالب بتغييرها، فشرحو له أن هذا يتطلب إعادة

تصوير مرة أخرى ومونتاج وإخراج وبلاوي زرقا، ثم تكاليف مالية قد تقود منتج الفيلم إلي الإفلاس خاصة أن الفيلم يتم عرضه منذ أسابيع في دور العرض داخل البلاد، لكن الرئيس أصر وقرر تغيير النهاية علي نفقة مخصصات وزارة الإعلام وتم استدعاء المخرج والمؤلف والمنتج، حيث وافقوا بالإجماع علي النهاية الجديدة التي يريدها الرئيس ودعوه إلي أن يشرفهم أثناء تصوير الفيلم، المدهش بعدها أن الرئيس لم يتح له وقته مشاهدة النهاية الجديدة ثم انسحب حماسه لهذا الموضوع تماماً بعد طلبه أن تعرض عليه السيناريوهات المقدمة من المنتجين للتأكد من صحة نهايتها ثم لما فتر حماسه بعدها بأسابيع كان ضابط شئون اتصال بالقصر يقرأ السيناريوهات ويعدل فيها بطريقته ويوقع تحت تعليمات السيد الرئيس ولما أبلغ أحد الفنانين صدفة الرئيس أثناء عشاء علي شرف أحد الضيوف الأجانب، أخبره بهذه المعلومات، غضب وثار وقرر سجن الضابط، وإيقاف الإنتاج السينمائي في البلاد لمدة عام، لأن الفنانين صدقوا أن هذه التعليمات التأفهة علي السيناريوهات هي تعليماته.

وقد ثارت واقعتان أثناء بناء القصر الرئاسي كان لهما صخب عالمي وزخم محلي، الواقعة الأولى حدثت بعد أن اختار الرئيس موقع القصر الجديد أثناء تحليقه بطائرة هليكوبتر كان يقودها فوق العاصمة:

- أنا عايزه في الحتة دي.

ولما فشل خبراء التربة الأرضية وأساتذة العمارة والبناء في إقناع مستشاري الرئيس أن هذه القطعة لا تصلح وأصر المستشارون علي تنفيذ رغبة الرئيس ولما تأكد الخبراء أن هذا معناه انهيار القصر علي دماغ الرئيس بعد شهور من بنائه، اقترح أحد الخبراء أن يحلق مع الرئيس مرة أخرى بالطائرة كي يشير إلي المنطقة التي اختارها، وقد راهن كما قال لأصدقائه أن الرئيس لن يتذكر أي منطقة اختار وأنه سوف يستغل ذلك لإقناعه بمنطقة أخرى، وقد فاجأ الرئيس الخبير بأنه اختار نفس المنطقة التي اختارها من قبل، وقد فاجأ الخبير زملاءه بأنه وافق علي صلاحيتها تماماً وبدأ البناء في المنطقة التي أجمع الخبراء علي عدم صلاحيتها لكن أحد المهندسين المفصولين من الشركة الإيطالية المنوط بها بناء القصر باع قصة لجريدة ألمانية أكد فيها أن عدداً من مهندسي وفنيي جهاز مخابرات أجنبي تسربوا إلي الشركة وعملوا في بناء القصر وقد وضعوا في الجدران والأبقف والتربة أجهزة تجسس خارقة التقدم.

وبدأت القصة في التسلل إلي آذان العالم فما كان من الرئيس إلا أن هشها كذبابة علي أنفه، فقد قرر هدم ما تم بناؤه وإعادة البناء في منطقة أخرى مع تحويل أطلال القصر الذي لم يكتمل بناؤه إلي متحف دليلاً علي قدرة البلاد علي مواجهة الأعداء.

الواقعة الأخرى أن كاتباً صحفياً قدم إلي رئيس تحرير صحيفة يومية من صحف البلاد مقالاً احتوي نفاقاً غير مستور لقصر الرئيس وقال فيه: «إنني أطالب السيد الرئيس بالتوقف عن بناء هذا القصر لأن لديه في وطننا ٨٠ مليون قصر في قلوبنا، وأطلب منه أن يفعل مثلاً فعل الأمريكيان حيث بنوا بيوتهم الأبيض في قلب المدينة، في قلب الناس، وأنت يا سيادة الرئيس لاتقل حضارة وعظمة عن كل رؤساء الأمريكان بل تتجاوزهم بحكمته وتاريخك.. سيدي الرئيس: «لقد أنجزنا بناء ملايين القصور لك في قلوبنا ولا حاجة لك بقصر جديد خارج قصورنا».

هل كان النفاق ملتبساً إلي الحد الذي جرت بعد نشر المقال ثلاثة أحداث متلاحقة:

الأول: أنه قد تم فصل رئيس التحرير الذي وافق علي نشر المقال.

الثاني: أنه قد منعت الصحيفة ستة أسابيع متتالية.

الثالثة: أن الرئيس أمر بترحيل هذا الكاتب فوراً إلي الولايات المتحدة الأمريكية طالما أن الحال هناك يعجبه وقام الضابط المسئول برميهِ في مطار نيويورك - بدون تأشيرة وبدون جواز سفر - فقد أخذه بالبيجاما من شقته إلي أول طائرة أقلعت إلي نيويورك وأنزله في المطار وقال له:

- الرئيس بيقولك أهـي أمريكا أهـه يا روح أمك روح بأهـ امشي جنب البيت الأبيض في قلب الناس.

عندما وصلت السيارة التي تقل حرس الليلة الماضية إلى بوابة القصر الأولي سمع الجميع صوت جنازير تزلزل الأرض الأسفلتية التي تلتف حول القصر، نظروا فذهلوا وانفزعوا وارتاعوا وضاعوا تماماً، رأوا عشرات الدبابات العسكرية تتقدم نحو القصر موجهة مدافعها صوب الأسوار.

٣

كانت دقات قلوبهم مثل دقات أحذية عسكرية تسير علي أرض خشبية، لم يعرف أيهم الخبر قبل الولوج إلي القصر الشيء الذي تمكن أن يفعله مدير القصر الرئاسي بأصابعه، المرتعشة وزغلة عيونه وارتبأكه المفضوح دون أي محاولة للستر، أن اتصل بهم تباعاً وبصوت يحاول أن يحتفظ بآخر علامات تماسك الرجال قال لهم:

- الرئيس يريدكم حالاً.

فكر وزير الإعلام أن يكون الرئيس قد غضب من برنامج التليفزيون الصباحي الذي يتابعه الرئيس يومياً، في مرات عديدة طلبه أمين الرئاسة بصورة عاجلة فينخلع قلبه حتي يدرك أن الرئيس يريد لقاء مديعة هذا الصباح للاستفسار منها عن أشياء بعينها، أحياناً يأتي الأمر الرئاسي للمديعة وهي تقدم البرنامج فتعتذر علي الهواء مباشرة حيث تمضي للرئيس في صحبتها وزير الإعلام وفي الغالب كان الرجل - وخاصة في سنواته الأخيرة - يلقنهما درساً في مفهوم الإعلام ويحكي عن برامج يراها في القنوات الفضائية للبلدان المجاورة، وذات مرة ظل يحكي عن برنامج شاهده عن حياة ممثلة وكيف أنه عرف لأول

مرة أن محاولة للاغتصاب قد تعرضت لها في طفولتها أو صباها وأنها تزوجت ست مرات من أزواج في الحياة الفنية أو رجال أعمال وقد دبت في ذهنه فكرة أدهشت الجميع، فقد قرر أن يدعو الممثلة إلي مأدبة عشاء ولما جاءت استقبلها بنفسه أمام المطعم الرئاسي ثم دخل بها إلي ركنه الخاص حيث لطمتها المفاجأة لدرجة أن صدرها - وقد كشفت معظمه في فستان أسود متهتك - راح يصعد ويهبط كمن يلعب في بطولة جمباز، لقد أعد لها الرئيس مفاجأة قاضية، حيث جلس أزواجها الستة في انتظارها علي نفس المائدة، والأدهي والأمر أن الشاب - الذي صار الآن عجوزا- الذي حاول اغتصابها من ثلاثين عاما تقريبا أحضره الرئيس بعد أن داخ عليه جهاز الأمن كله، وحين وصف الرئيس المشهد للمذبة ووزير الإعلام لم يفته وصف ارتعاشات الأزواج ثم لهجة الحوار التي سادت حتي تفجر من الضحك الليل كله، وندم بعدها أنه لم يسجلها بكاميرا الفيديو الخاصة كي يحتفظ بالشريط ليراه أكثر من مرة، لكنه تذكر أن لقاءات هذا الركن مسجلة كلها بكاميرات الأمن السرية وطلب الشريط الذي تم إعداده ليلتها، وباتت هذه السهرة جزءا مقررا من أماسي الرئيس مع ضيوفه من البلدان المجاورة، وكلما عز عليهم الضحك وانفلاتات الحديث عن الجنس المحرم، شغل لهم هذا الشريط حتي أنه تلقى يوما هدية من رئيس إحدى هذه الدول عبر سفيره في العاصمة كانت عبارة عن سهرة حمراء حامية بين مطربة شقراء وأحد عشاقها، كانا يسجلانه لاستشارة

أنفسهما، لكن قوات أمن الدولة المجاورة استطاعت الحصول عليه خصيصا لرئيس الدولة الذي أثر أن يهدي نسخة منه إلي صديقه رئيس البلاد.

حاول وزير الإعلام أن يستفسر من أمين الرئاسة، لكنه بعد أن أتم الكلمة الأخيرة في جملته أغلق أمين الرئاسة السماعه حائقا علي ثرثرة من أجل شفاه أو جسد مذبة، وكان الرئيس يتابع تليفزيون البلاد إلي الدرجة التي صارت معها المذيعات أهم ما يشغل الرئيس في السنوات الأخيرة وصار شغفه بمتابعة حياتهن وأموالهن جزءا من المهام الرسمية لأمنه الشخصي ووزير إعلامه، لدرجة أنه أصدر قرارا بإنشاء إدارة أمن المذيعات في وزارة الداخلية لا هم لها سوي تقديم تقارير مكتوبة ومصورة عن أفكار المذيعات وآرائهن وسلوكهن وعلاقاتهن الجنسية، وكان مدير أمن المذيعات هو الشخص الأكثر قربا في وزارة الداخلية للرئيس، يختاره بنفسه من قائمة مرشحين يقدمها وزير الداخلية لرئيس الوزراء ثم له شخصيا وأن تقارير أمن المذيعات هي التقارير الوحيدة في شئون الدولة التي تصل إليه عبر مدير الأمن مباشرة، وليس عبر المراسلات الحكومية والرئاسية المعتادة، وكان من أهمية هذا المنصب أن تولي ثلاثة من وزرائه مسئولية وزارة الداخلية تباعا، حتي إن كل وزير داخلية بات يحاول أن يدس لمدير أمن المذيعات الدسائس والحيل لمعلوماته أنه المنافس الأول له علي كرسي الوزارة، وكان الرئيس يعرف المذيعات بالاسم والصورة

والموقف العائلي، وكان يتصل بهن في منازلهن أحيانا، وكثيرات من المذيعات حضرن إلي قصر الرئاسة كثيرا، ومكثن ساعات في المناطق المحظور تصويرها، وحدث أن فاجأ الرئيس وزير إعلامه ذات مرة في مبني التلفزيون، حيث قرر أن يمتحن بنفسه المذيعات الجدد حين علم من إحدى المذيعات أن امتحانا سوف يعقد هذا اليوم لعدد جديد من المذيعات، وقد مكث الرئيس وقتها ٦ ساعات يمتحن المذيعات الشابات وصنف الناجحات منهن، إلي مذيعات نشرات أخبار وبرامج مرأة وأطفال ورياضة وغيرها من أعمال التلفزيون، وجلس مع الوزير في مكتبه بعد الامتحان لعدة دقائق، قال له فيها إنه أحيانا ما كان يغضب عندما يري مذبة صدرها واقع، ولا شكلها راجل وتقدم البرامج للشعب، إن المطلوب أن يحب الشعب مذيعةاته ويكن واجهة حسنة لسمعة بلاده، ولذلك أثر أن يختار بنفسه المجموعة الجديدة من المذيعات، وعندما قام من جلسته وهم بالخروج من المكتب وخلفه لهاث الوزير، التفت الرئيس وخبطه علي كتفه:

- وأنا أتحدأك ياسيدي لو طلعت أي واحدة اخترتها صدرها وحش، وصار اهتمام الوزير بصدر المذيعات عملا قوميا ووطنيا انشغل به فترة، حتي قرر أن يكون حجم ومقاس صدور المذيعات كلهن بدرجة واحدة، ووزع عليهن مجموعات هائلة من الأثداء الصناعية البلاستيكية وأكد أنه لو رأي صدر واحدة مشفوطا أو منفوخا «فنهاري أبوها أسود» وكادت إحدى

المذيعات تطيح ذات مرة بوزيرها والحكومة كلها، حيث كانت شابة في أواخر الثلاثينيات علي درجة من الحسن الفتان والتعهر المحبوك والمحتدم، وتمتلك جسارة مقتحمة وطباع ضباع في الاقتراس والقنص يختار الرجل أمامها يغشاها أم يخشاها، بيضاء بحمرة، عيونها جمرة خضراء، وشفتاها عريضتان ممثلتان نهمتان، وعودها مضبوط في مصنع حياكة رفيع، أدركت عندما دخلت علي الرئيس في مكتبه أن ثلاثة وثمانين عاما قد انحسرت بين فخذه ساعتها، وأن حبوراً هائلاً قد تملكه فتكلم معها في كلام فارغ وتهتهات تائهة حتي وضعت يدها علي فخذه وتركته برهة دون رهبة، فانشطر قلب الرجل واحتضنها في نرق المراهقين في الثمانين، وبكل ما تبقى له من خيالات الشهوة، كان هناك سباق بين المذيعات حول اعتلال صحة الرئيس الجنسية، لأنه لم يصل مع واحدة منهن لأكثر من قبلاط فيها حمى صحيح لكن ليس فيها بعد ذلك شيء - لكن المؤكد أن تلك المذبة استنفرت نطفا مخزونة من سنين، الأمر الذي أسقط قلب الرئيس في حجر هواها ولاحقها محموما بالسؤال عنها والكلام معها ودعوتها إلي القصر وزيارته لها في منزلها، ثم أعرب لأمين الرئاسة عن عزمه الزواج منها، وقد خبا مدير أمن المذيعات ملفها بمجرد ما عرف نية الرئيس وأعد ملفا آخر بادر بتسليمه للرئيس قبل أن يطلبه، والأمر لم يكن في حاجة إلي ملف دون ملف، قد كان الوزراء والمسؤولون كلهم



يتحدثون عن هذه المذبةقة وقدموها الطاعى على دائرة النفوذ والحكم.

وقد فتح خادم حبشى بوابة القصر الخرافى الفخم فى حضن النهر لمدير أمن التلفزيون الذى كان قد عرف نفسه فى غرفة الأمن الأمامية للقصر أمام البوابة الكبيرة مباشرة وسمح له بالدخول، وفى صالون هذا القصر الخاص استقبله صاحبه الملياردير الشاب ورجل الأعمال الذى لا يتجاوز عمره السادسة والثلاثين ولا يقل وزنه عن مائة وستين كيلو، رحب به وهو يقدم له سيجارا كوبيا طويلا وسميكا:

- على فكرة يا سيادة اللواء: هذا السيجار من مجموعة سيجارات نادرة كانت موجودة فى خزانة كاسترو بعد مماته.

لم يستعجل الملياردير أن يسأله عن سر حضوره، وتعجل مدير أمن المذبةقات أن يلقي حمولته عن ظهره.

- أنا هنا لأخبرك بأننى لم أقدم للرئيس ملف المذبةقة.

ضحك الملياردير وهو يطلق الدخان حول حواف كلماته:

- فاهم.. فاهم.

استكمل مدير الأمن ماجاء من أجله:

- ثروتكم تتجاوز المليار دولار والعائلة لها ممتلكات فى البلاد ومصالح ومصانع وشركات وأراض وعقارات.. أى أن لديكم ما تخافون عليه لذلك لم أقدم الملف الذى يؤكد أن هذه المذبةقة عشيقته منذ سنوات.

- وما السر فى ذلك.. البلد كلها تعرف.

تغور البلد فى داهية، المهم ألا يعرف الرئيس .

- أوتظن أن الرئيس لا يعرف؟

شم مدير الأمن رائحة كريهة فى أوتظن، فتمهل فى كلامه وثبت عينيه على صورة والد الملياردير وزعيم العائلة وقال:

- وممن يعرف غيرى؟

بسرعة وبحسم أجاب:

- من وزير، من مذبقة، منها نفسها!

- هل تظن أنها سوف تخبر الرئيس عن علاقتها بك؟

- احتمال.

- وماذا ستفعل ساعتها؟

- أنت لو مطرحى ماذا ستفعل؟

- ليس فى يدك ما تفعله، تحاول أن تجعله ينسى أنها نامت

تحته يوما ما، أو تأخذ بعضك وتخرج من البلد.

صليل ضحكته أربك اللواء

- لا الرئيس ولا الحكومة تتحمل أن تخرج كل هذه الفلوس

من البلد، سوف يتجاهل الرئيس تلك الحقيقة لمصلحة البلد.

- ضرب اللواء فخذه بقوة:

- ولمصلحته.. أما أنا حمار

ابتسم الملياردير:

- ولا حمار ولا حاجة.. لكن يبدو أنك لم تتعلم كثيرا من

متابعة المذبةقات فى بلدنا..

نهض من مكانه بسرعة وربت على كتف اللواء:

- أنصحك الآن وبسرعة أن تعيد الملف القديم والحقيقي للرئيس ولما هم مدير أمن المذيعات بالانصراف، ناداه الملياردير مستمهما:

- إذا لم يكن لديك مانع، أنا لذي مجموعة أخرى من الشرائط مع المذيعات في لحظات ساخنة، إذا كنت تريد أن تزود بها مجموعتك التي سترفعها للسيد الرئيس.

ومشي مدير أمن المذيعات.  
ظنت المذيعات خلاص أنها «إيفا براون» الراقصة التي أحبها الرئيس الأرجنتيني وخاض معها كفاحه، فأحبها الناس حتي الهوس، بات تتصرف كذلك.

- لم تكن تعرف شيئا عن إيفا براون لكن منه الله أحد الصحفيين الذي كان قد تعرف عليها في بداية مشوارها حكي لها هذه القصة بعد أن وصلت إلي القصر الرئاسي فأمدتها بحدوثة صالحة قبل النوم.

تهيا الجميع لزواج الرئيس من سيدة تصغره بحوالي خمسين عاماً، كانت عشيقة معتمدة لملياردير شهير في البلاد، لكن شيئاً غامضاً قد جري حيث اختفت المذيعات من الساحة ولم يعد أحد يراها وكف الرئيس عن الكلام عنها في سهرة مع سفير عربي مغرم بالشعر، كشف الرئيس عن هواية جديدة حطت عليه وهي كتابة الشعر، وبدأ يتلو قصيدة طويلة في حب امرأة، كانت خليطاً من الطفولة والمراهقة والتفاهة، ولكنها في النهاية كانت تعبيراً عن ولع بامرأة. حقيقي من ذلك الذي يلحق

به العجائز في آخر أعمارهم كمن يلحق بقطار خرج من المحطة حيث تشبث بعربته الأخيرة. وقد نالت القصيدة بطبيعة الحال إعجاب الحاضرين وتهليلهم، الأمر الذي شجعه علي نشرها في الصفحة الأولى في الجريدة الرسمية اليومية تحت توقيع سيد العشاق (ولم تكن هناك قطة في البلد لم تعرف أن الرئيس كاتب هذا الشعر).

المهم قلق وزير الإعلام أول ما قلق من غياب المذيعات المجهول والغامض وسكوت الرئيس عن ترديد اسمها علي الفارغ والملاّن كما كان يفعل، وحاول أن يستفسر من مدير أمن المذيعات لكنه لم يشف غليله، ومن الأمن الوطني لكنه عثر علي أسئلة أكثر مما حظي بأجوبة وأدرك أن كل الأجهزة والمسؤولين يسألون عن سر غيابها ولم يجرؤ أحد أن يسأل الرئيس رغم أن الأسئلة كانت محشورة في حلق الجميع، وكان كلما التقى وزير ووزيرا، فإن أول سؤال يحتل مقدمة الحوار «فيه أخبار عن المذيعات» وطارد الجميع رجل الأعمال بحثاً عن إجابة فكان يضحك حتي ينفجر الدم من وجهه ثم يرسم ملامح الجدية.

وبدأت شائعات تملأ البلاد أنها كانت جاسوسة دسها جهاز مخابرات عالمي ورغم أن وصول الشائعات للرئيس كان شبه مستحيل لحنقه الغريب علي من يبلغه بأي مما يردده الناس في الشوارع إلا أن هذه الشائعات وصلته وضحك جدا عليها حتي تحرك طقم أسنانه وقال:

- مخابرات عالمية بتتجسس علي.. ليه طيب ما أنا بأقولهم كل حاجة.

ثم سرت وانبرت شائعة أخري مفادها، أن الرئيس قد أهدي هذه المذبة إلي ولي عهد إحد الممالك العربية جزاء صفقة ضخمة خرج منها الرئيس بملايين الأموال.

وباتت الشائعات تسري وتجري حتي نسي الناس وهمد فضولهم.

ولكن الرئيس نفسه أذاع سره وكشف أمره في اجتماع مع اتحاد رجال الأعمال في الذكرى العاشرة لاختياره رئيسا فخريا لرئاسة الاتحاد.. ولقد بهت جميع من حضر وكل من سمع، بل إن الملياردير نفسه غاص في انفعال مكتوم حيث كان يجلس علي بعد رجلين من الرئيس.

قال الرئيس: وبعدين، البلد كلها قالت أصل الرئيس ح يتجوز فلانة، يا سلام علي النصاحة.. هو أنا لما أعوز أتجوز ح أخبي، وبعدين قالوا لا، دا الكلام صحيح وفلانة المذبة بتقوله في كل حة وأنا سكت وصبرت لغاية ما الموضوع كبر وطول، مسكتها من إيدها وهزأتها وقلت لها بقي أنا أتجوز راجل.. سكت ثم واصل..

- إيه مش مصدقين.. المذبة دي كانت راجل وعمل عملية تحويل جنسي بقت ست.. تفتكروا معقولة أتجوز راجل.

٤

لم تطف طيوف الخوف بقلب وزير الداخلية حين تلقي لحظة استيقاظه من النوم مكاملة أمين الرئاسة التي تحت علي الحضور فورا إلي القصر الرئاسي كطلب عاجل من السيد الرئيس، صحيح أن هذا الحدث لم يحدث منذ ست سنوات هي طول عمره في الوزارة، كان كلما احتسي نصف الكأس الثانية من خمر ناعم الأثر يفخر أنه أكثر وزير داخلية عاش علي عرشه في عهد السيد الرئيس.

لم يرتبك لكنه اندهش، لم يخف، لكنه فكر ودبر، لبس ثيابه الرسمية وأمر السائق بالاستعداد، وضربت نوبة الحراسة كعوب أحذيتها في الأرض، وصهلل حد السونكي في انعكاسات الشمس الطالعة الطازجة، طلب من السائق أن يعجل من سرعته، وبدأ يتصفح الجرائد التي تترك له في العادة علي المقعد الخلفي كي تكون بجواره في مشواره من البيت إلي الوزارة، لكنه بعد برهة ألقى بها جانبا.

كلما كان الرئيس يريد أن يثني عليه، يقوم أمين الرئاسة بالاتصال به تليفونيا ويخبره برضا الرئيس عن موقف أو

تصريح أوقضية، أما إذا كان الرئيس يريد أن يوبخه فإنه يتصل به مباشرة.

- إنت نايم علي روحك

- ليه بس يا سيادة الرئيس؟

- قولي لو أنت مش نافع في الداخلية وعايز وزارة نسوان أديها لك.

- أنا باستسمح سيادتك تهذا بس وتؤمرني فيه إيه.

في كل مرة كان أمين الرئاسة يسبق الرئيس مثل موتوسيكلات المواكب الرسمية الرئاسية، ويطلبه في الهاتف السري، يخبره بأن الرئيس غاضب من الشيء الفلاني حتي ينتبه ويحذر ويستعد. كانت العلاقة قد توثقت روابطها واشتدت تعقد عقدة حبلا مع أمين الرئاسة، منذ لجأ إليه حين قتل ابن شقيقه شخصا بسيارته، كان مخمورا وفي صحبته بنت من هؤلاء اللواتي يجبرن القدر علي خذلان من يخضع لهن. كتبت الصحافة في اليوم التالي، وبدا أنها وجدت أخيرا فريسة في غابة مهجورة، لم تلمح للاسم ولم تقل صراحة تفاصيل الحادث، لكن أمين الرئاسة أدرك أنه لو دخل خصومه هذه الحلبة فإن الجلبة الصحفية سوف تدغدغ سمعته وتقدمه ممسحة لحذاء الرئيس. في اليوم التالي خرسست الصحافة تماما وانقطع لسانها عن هذا الحادث، قد أفلح في حركة خاطفة ومثيرة للإعجاب في دس أكياس قطن في حلوهم، بقي كيف يمحو آثار الحذاء من علي جسده، فلم يكن أمامه سوي اللجوء لوزير الداخلية، قال له

إن الحل الوحيد أن يعترف بسرعة ونسرع بإجراء محاكمة تقضي بما تقضي به.

- يعني إيه؟! الواد يترمي في السجن كام سنة ويضيع مستقبله، أنت عارف أنا لم أنجب وأعتبره مثل ابني، وهو شاب نابه وذكي، لا أريد لخطأ مثل هذا أن يقضي علي مستقبله.

رد وزير الداخلية - وهما يرتكان علي ظهر أريكة في آخر مكتبه الواسع .

مستقبله ولا مستقبلك؟

بسرعة كمن يحثه على الوصول إلى حافة السطح.

- مستقبله ومستقبلي.

وأنت خايف من إيه؟ أهل القتل وممكن نرضيهم بأبي مبلغ، الصحافة واشترت خاطرك، وسكنت، ثم إن الواد مازال صغيرا وكم مليون حادثة مثل تلك منذ سنوات طويلة وأنت غير مسئول عنه ولم تقد سيارته، نهره أمين الرئاسة بعيونه ثم غرس كلماته في نحره.

- سيادة الوزير.. أنت عارف ولا بتستعبط؟

- عارف وباستعبط

أكمل كأن شيئا لم يكن:

السواد ابن أخي كان شريكا لابن نائب رئيس الوزراء في أعمال تجارية واسعة، انتهت بمخاصمة بينهما كبيرة، لم يتم حلها حتي الآن والموضوع فيه ملايين، لو شم نائب رئيس الوزراء وابنه رائحة فضيحة للواد سوف يقضون ظهره.

وكانوا قد شموأ فعلاً واستطاعوا الوصول إلي أهل القتيل ومنحوهم مبلغاً ضخماً من المال حتي يتمسكوا بالقضية وأخذوا عليهم عهوداً وعقوداً مما أفشل جهود أمين الرئاسة سواء في دهاeliz القضية أوفي سراديب القضاء. وبانت لعبة يتابعها السياسيون كل يوم عم تسفر وهل ستقضي علي كليهما؟

المحاكمة التي أسرعت كل الأطراف في حث سرعتها قضت بسنة سجنأ لابن شقيق أمين الرئاسة، وظهر أن المعركة انتهت لصالح نائب رئيس الوزراء وابنه وخاصة أنهما قد حصلا علي نصف التعويضات الواجبة لشركة ابنه من أصول مدير الرئاسة وذلك قبل صدور الحكم بأسبوع حتي لايعملا علي دفع الحكم إلي منطقة نهائية لا رجعة فيها، لكن لولا تدخل وزير الداخلية ما أمكن أن يتم إطفاء الحريق في ستائر حياة أمين الرئاسة، فقد أدخل الولد السجن فعلاً وسود الأوراق اللازمة، لكن من صباح اليوم التالي كان الولد خارج السجن يقضي حياته الطبيعية، بينما تؤكد الأوراق أنه سجين، وبعد انتهاء المدة وبقدرة قادر ضاع الملف الخاص بالقضية وملف السجين نهائياً.. واستقر في خزانة أمين الرئاسة ومعه استقرت علاقته بوزير الداخلية إلي حد بعيد مما كان يستلزم منه أن يقدم بين الحين والآخر خدمة خفية لوزير الداخلية علي سبيل رد الجميل وكف قبضة المبتز عن جيبه.

حتي إنه عند اندلاع أزمة الجاز لم يتخل عنه أمين الرئاسة رغم الغضب الصارم عليه من الرئيس الذي كان يسبه أمام

الجميع ودفعه بقبضة في بطنه ارتج لها قلبه حتي أحس أن مس النار أرحم.. رغم أن الأزمة كلها كانت بسبب خطبة للرئيس، إلا أن وزير الداخلية لبسها وحده وكان مطلوباً منه أن يجد حلاً قبل أن يعقدوا حبلاً علي رقبتة.

يومها كان النهار عادياً للغاية والموضوع أسهل من أن يهتم به أحد حين خطب الرئيس أمام البرلمان خطبته السنوية وكان من عاداته أن يستمر في الخطبة أكثر من ثلاث ساعات يحكي فيها تاريخ ولايته منذ ثلاثين عاماً، عاماً عاماً، وكانت تختلط عليه الأعوام والأسماء والأحداث لدرجة أن الخطبة تنتشر في اليوم التالي في الصحف بعد أن يعيد كتابتها وزير الإعلام، فضلاً عن عملية مونتاج سريعة لحذف القصص الوهمية والأسماء المغلوطة وقد فكروا أن يصدر قرار بعدم إذاعة الخطبة علي الهواء مباشرة، لكن لما علم الرئيس بنيتهم وبخهم وكاد يخلع حذائه لوزير الإعلام ولم ينقذهم من ثورته سوي حضور مذيعة المفضلة التي اقترحت في غمرة محاولة تهدئة الرئيس أن تقرأ هي خطاباته بصوتها كما كان يفعل الرواة مع الشعراء العظام في التاريخ العربي واستخف الجميع بما سمعوا إلا الرئيس نفسه الذي أخذ الاقتراح علي سبيل الجد وطلب منها أن تردد خلفه افتتاحية خطبته المعتادة فكررت وكركع هو من الضحك وقال - ختاماً للموضوع كله- أما عيلة هبله صحيح.

في خطابه الافتتاحي أمام البرلمان الذي أفاض فيه ومط فيه ونسي فيه وكذب فيه كما يريد، توقف فجأة وصمت تماماً

فاستيقظ النائمون علي صوت هذا الصمت الثقيل، واعتدل من اعتدل وتأكد مهندسو الصوت من عافية أجهزتهم وارتبك مصورو التلفزيون ماذا يفعلون؟ لكن الرئيس أنقذ كل هؤلاء من الارتباك حين تكلم بصوت غاضب حائق تأثر كأنها نوبة صرع سياسي.

- من يومين كده سمعت أن فيه ناس مش عاجبها حال البلد طبعاً أنا عارف إن فيه ناس ناكرة للجميل والشعب زي أي حاجة في الدنيا، فيه النظيف وفيه الوسخ، لكن بأقول من هنا لشعبي وبكل تاريخ الصراحة اللي بيننا.. اللي مش عاجبه البلد يا جماعة يولع بجاز.. إحنا معدناش أحسن من كده.. أكثر من كده إيه؟ لذلك بأقول بوضوح وصراحة اللي مش عاجبه يولع بجاز.

أدرك رجال الرئيس ساعتها أن هذا شيء مخالف لكل قواعد اللعبة وأن الرئيس قد تخلي عن حنكته وربما كان لتصلب الشرايين علاقة بما جري (آخر فحص طبي لصحة الرئيس أثبت أنه أكثر شباباً من شاب في الخامسة والثلاثين وأنه لا يعاني من أي علة علي الإطلاق).

لكن الجميع راهن علي أن البلد - إذا كانت لاتزال البلد التي نعرفها- لن تثور أو حتي تحس علي دمها وتغضب وتتضايق مثلاً.

من ثم لم يعلق أحد - كائناً من كان- علي كلمة الرئيس في خطبته، ولكن بعد يومين بالضبط جري حادث غريب أمام مبني

البرلمان، حيث كان المارة يمشون في طرقهم المسموح بها أمام البرلمان وسيارات الأمن في مواقعها وحرس الوزارات في أبراجهم والشارع الرئيسي المطل علي البرلمان في حركته اليومية الصاخبة، حين تقدم شاب في العشرين تقريبا من عمره، يرتدي قميصاً أبيض وبنطلوناً أبيض وأخرج من حقيبة سوداء يحملها عبوة جاز كبيرة، دلقها علي نفسه بسرعة فأغرق جسده تماماً ثم في لحظة خطف وأشعل عود ثقاب وولع في نفسه.

شب حريق مريع في جسد الشاب الذي أخذ يلتف حول نفسه، ويدور ويلف ويحرك ذراعيه المشتعلتين بالنار في الهواء، أثار المشهد الرعب في القلوب، حتي إن كثيراً قد أغشي عليهم وسقطوا علي الأرصفة، بينما شلت أيادي سائقي السيارات واندقوا في الأرض بلا حركة، أما رجال الأمن فأقدموا علي حركة بعد فوات الأوان وحاولوا أن يتدخلوا لكنهم اكتشفوا أن لا حيلة لهم فقط أحاطوه بالمدافع الرشاشة وهو يقفز علي الأرض بجسده المشتعل كحركات الأوكروبات في السيرك.

لم يسمع أحد في هذا الوجود إلا صوت الريح يضرب هواءه في لهب النار المشتعل في جسد الشاب.

حار الناس في الخبر الذي انتقل بسرعة انتقال القنوات الفضائية، لكن لم يلتفت المسؤولون للحادث إلا عندما أذاعت إحدى الإذاعات الأجنبية أن خطاباً وصلها عن طريق الإنترنت يؤكد أن حادث إشعال الشاب النار في نفسه أمام البرلمان في

بلادنا، كان رداً علي خطبة الرئيس التي قال فيها : اللي مش عاجبه يولع بجاز، ولأننا لايحببنا ما يجري فقد قررنا أن نشهد العالم علي أننا نولع بجاز حسب نصيحتكم.

انقلبت الدنيا علي دماغ وزير الداخلية، فقد صار هو الشخص الوحيد الآن المسئول عن حُسن جمال صورة البلاد في الخارج، والإمساك بهؤلاء الذين استخفوا بمخاطرة مواجهة الرئيس وكان القرار الأول هو إغلاق الشوارع المؤدية للبرلمان والمحيطه به وعدم التصريح بدخول أحد سوي الموظفين في البرلمان أو الضباط أو أعضاء البرلمان والمسئولين.

لكن الحدث التالي لم يكن في أي من تلك الشوارع، لقد كان مبني التلفزيون يشهد ازدحاما يوميا من الموظفين الذين يرغبون في إعلان شكاواهم وآلامهم علي شاشات التلفزيون للحصول علي أموال من أصحاب الصدقات والمتبرعين للغلبة ورغم وجود أكثر من دبابة وعربة مدرعة أمام المبني، إلا أن شابا في الثلاثين من عمره، تقدم نحو باب مبني التلفزيون الشاهق وأخرج من تحت قميصه كيسا كبيرا من البلاستيك مليئا بالجاز، أغرق به نفسه متعجلاً وبأصابع مرتعشة وبينما يفيق الناس للحدث إذا به يشعل النار في نفسه فتهب لهبا حارقا خانقا وسط صراخ وعويل وفوضى وصفارات إنذار المبني وحركة الدبابات الزائفة ولهث أحدىة العسكر نحو المكان، كان الشاب يرقص وهو يشتعل ويقفز علي الأرض ويلوح بذراعيه ويتحرك يمينا ويساراً ويلف حول نفسه ويقترّب من العساكر

حتي يدنو ويبعد حتي يكاد يلتصق بالناس وكلما حاصر وزير الداخلية مكانا رسمياً أتاه الحريق في مكان آخر.. أغلق المناطق المحيطة بالبرلمان والتلفزيون ومجلس الوزراء والوزارات الرئيسية فجاءه الحريق مشتعلا في جسد شاب من المولعين بجاز أمام استاد كرة قدم أثناء خروج جمهور مباراة مهمة ومزدحمة أو أمام دار عرض سينمائية تشهد افتتاح مهرجان سينمائي. جماعة المولعين بجاز التي لايعرف أحد عنها شيئا والتي أتت بعد أعمار طويلة من استسلام المعارضة في البلاد لرخاوة الحكم ورخاء السلطة، بدأت في تحديها للحكومة أن تخبر وكالات الأنباء بمكان وموعد الحريق القادم الذي سوف يشعل فيه أحد أعضاء الجماعة نفسه بالنار احتجاجا علي خطبة الرئيس التي تطالب المعارضين بأن يولعوا في أنفسهم بالجاز. وقد حاول وزير الداخلية أن يطوق القضية بإذاعة عشرات الأحاديث للشيوخ عن حرمانية الانتحار واستجاب وزير الإعلام وأذاع كل هذه الفتاوي، واشتدت حرب الدين علي هؤلاء، بينما استعمل وزير الداخلية كل إمكانيات التقنيات الحديثة في تشريح الجثث المحترقة كي يعرف من هؤلاء، وبينما جاءت مئات البلاغات التي تم اكتشاف عدم دقتها أو عدم صحتها، جاءت نتائج التشريح دونما أن تصل لأي شيء سوي بصمات أصابع ضاعت ومعالم أسنان لم تهدأ أحدا إلي حل، فقط ثبت أن الجاز من النوع سريع الاشتعال وأن جميع الذين أحرقوا أنفسهم كانوا يرتدون اللون الأبيض.

وانتشرت قوات الأمن السرية كالمجانين في كل مكان وبدأوا يشتبهون بالعابرين والمارين، لقد كان الرئيس يوبخ وزيره في اليوم عشرات المرات ويهدد بإقالته إذا لم يجد حلاً لهؤلاء الكلاب، حتي تمكنت قوات الأمن من ضبط شاب أمام مصلحة الشهر العقاري يرتدي الملابس البيضاء ومعه كيس بلاستيك ممثلياً عن آخره بالجاز، اشتبهوا فيه فاحتجزوه وبدأوا في استجوابه ولجأوا إلي تعذيبه وبينما أوشك علي الموت أكد أنه لايعرف أن هناك جماعة بهذا الاسم أساساً، وأنه فقط ضج من حياته وبطالته وحال دولته فقرّر أن يشارك الموتى موتهم والمحترقين حريقهم وأسريت جماعة المولعين بجاز بإرسال بيان وقف نشاطهم أولاً: لتنام بلوغ رسالتهم. ثانياً: إنهم لا يريدون لأحد أن يتخذ رسالتهم وشهادتهم ذريعة للانتحار والخلاص من الدنيا.

وبينما بدأت أصداء هذه الحوادث تضرر في الذاكرة إذا بالرئيس يقدم علي فعل آخر اختلطت فيه الغرابة بالطرافة بالسياسة حتي لم يكن هناك شخص في البلاد لايتحدث فيه مع أحد أو حتي مع نفسه.

كان الرئيس في زيارة لافتتاح المعرض الزراعي السنوي حين توقف مع مرافقيه عند جناح مزرعة بط ودواجن، وبينما مال وأمسك بطة يقيسها ويتحسسها كان ينغمس في حوار مع أحد الوزراء أو المسؤولين في المعرض واستغرقه الحديث حتي مشي وهو يمسك البطة ينتقل من جناح إلي آخر والكل من

حواله خائف ووجل من لفت انتباهه لضرورة ترك البطة بينما انتهز المصورون ذلك والتقطوا له عشرات الصور ممسكا بالبطّة في يده من جانبي جناحيها وهي مستكينة كأحد رعاياه تماماً.

ثاني يوم الصبح كانت صحف العالم كلها تنشر صورة الرئيس مع البطة، فما كان من إعلامنا سوي أن تعامل مع البط بقداسة مريعة وأرجع ذلك لعوامل تاريخية وظهرت مقالة في الصحيفة الرسمية الأولى عن «العلاقة بين الإنسان والبطة.. اختلافات وتشابهات».

وجاء الموضوع علي دماغ وزير الداخلية حين اقتحمت ثلاث سيارات نقل مبني الحزب المركزي الذي كان الرئيس يلتقي فيه مع بعض أعضاء هيئته التنفيذية، لقد كان صاحب السيارات الثلاث أحد أعضاء البرلمان من أرياف البلاد، جاء للرئيس بهدية حوالي ثلاثة آلاف بطة أنزلها من السيارات النقل في أفواج منتظمة ومزدحمة كأنها صفوف مظاهرة عسكرية حتي امتلأت بهم الساحة المحيطة بمبني الحزب وصعدت البطات علي ظهور السيارات وأسقفها ودرجات سلام المدخل الرئيسي مع أصواتها المختلطة و«كاكات» لاتحصى ولاتعد. ولما بلغ الأمر للرئيس ضحك وأمر بإرسال البط إلي وزارة الزراعة للتصرف وقد أصابت النائب خيبة أمل من تحويل هديته للزراعة فتساهل في قيادة رجاله الذين جلبوا البط فتمردت مئات البطات ودخلت إلي الميدان الرئيسي، فانهار



المرور تماماً وتعطل ساعات طويلة حتي إن الأمن فضل أن يرحل الرئيس من مبني الحزب في طائرة هليكوبتر لأن البط سعد الكباري وعطل سيرها وتكدست السيارات كأنه يوم الحشر.

لكن البط لم يشأ أن يرحل عن الساحة السياسية إلا بعد ضيق صدر الرئيس بالبط، حيث فوجيء يوم إلقاء خطبة عيد العمال، أن العمال الحاضرين للاحتفال قد جلبوا معهم مئات البط، كل واحد جالس ممسك ببطة علي حجره، فاستفز الرئيس المشهد، فتوقف قبل إلقاء خطبته وفي منصة الاحتفال صرخ فيهم:

- تعرفوا أنا لو باربي بط كان أحسن من تربية شعب زيكم.

وزاد احمرار وجهه وانفلات صوته وارتجاج يده واهتزاز ميكروفونه.

- كله يخرج بره القاعة، وسيبوا البط علي الكراسي.. أنا ح أخطب للبط يا رعا.

افتقد الدراجات النارية التي تخلي الطرق أمامه كأن العالم يفتح ذراعيه - فخذيه - له، الصوت الذي يدوي معلنا قدومه للعاشرين والسائرين كان يذيه سعادة، نشوة، كأنها ارتقاء جسد ملكة، السيارات السوداء العالية التي تمنح إحساسا بالارتفاع والعلو والترفع التي تسبق سيارته الطويلة ذات السواد الغامض العميق. آيات السلطة تمخر في عباب العامة، الشوارع حيث تتعطل والمرور حين ينتظر والمواكب حين يمرق والنفير الزاعق ورنين النجدة، وأسنة رماح المدافع الرشاشة، والملابس الكاملة السوداء ذات رابطات العنق المحكمة وبروز انتفاخ المسدس فوق خصور الحرس، وعلم الوطن يرفرف لسانا من فم النفوذ النافذ في وجه العاديين الرعية الرعايا، كان يمثل أنه مستغرق في قراءة ملف، أو مهاتفة مسئول، لكنه ببصره كله، بحواسه كلها، يثب علي التفاصيل، يرقب المشهد بسواده الجلي. ملمح الفرخ خبيء في طيات جلده، يسعد بالسواد الذي يعطي إحساساً للجميع بالغموض، السرية، المجهول، المستور، الممنوع، المحصن.

عندما اقترحوا عليه تغيير لون سيارات موكبه وركبه بلون آخر رفض. قال إن موكب رئيس الوزراء بسواده ساد منذ زمن ولا يصح تغيير عادة السادة. لكن في خباء سره وخفاء أمره، كان لا يريد للسواد أن ينزاح شيئاً فشيئاً، لوناً فلوناً صار يتوحد مع سر السواد وسواد السر، قيادة الأمر كانت تلمس أنامله حيناً وتراوغ حيناً آخر، دهاء الرئيس ما كان يخشاه، لعل هذا الصباح أكثر ما جرحه وعكر فرحه أن أمين الرئاسة أخبره بالحضور إلي القصر الرئاسي، كان هذا طبيعياً، لكن فسد معه سده العالي من الطمأنينة أنه طلب منه أن يأتي دون موكب.

حين كانت مواكب سياراته كانت مراكب سيادته.  
لكنه — الآن — في طريقه إلي صحراء زرع فيها القصر الرئاسي، كان قلبه أسيفاً وقلقه مخيفاً وربيعه خريفاً.  
هل حل غضبه؟ هل نزل مقته؟

تقلبت أمعاؤه وارتج نبضه ووجل جلده، أصبح كل ما كان هباء منبثاً؟! أترحل السيارات والحرس والرهبنة والهيبة والسلطة والإمرة والإمارة؟

كان كل يوم يعدي يعدو يحاول هو أن يبقيه، فهو يوم من السلطنة يبرق، هل تفوت الأيام حتي يخلو الزمن من اسمه كرئيس للوزراء.

كان الرئيس متقلبا، لكنه نجح في أن يتقلب علي أي جنب يريده، تعلم مشية القردة، مواء القطعة، حتي يرضي عنه فيبقيه علي كرسيه، كان يحلم بهذا المقعد منذ سنوات حين حبا إلي

أول مقعد في مجلس الوزراء، يرتج عمره مع كل تغيير وزاري، يرتعش إيمانه كلما ترددت شائعة عن تعديل أو تغيير، كان مستعداً أن يعمل خادماً للوزراء أصحاب النفوذ، وخادماً للأقربين عند الرئيس، كان يبعد عن الصراعات ويسلم جسده لمن يركب، فقط ليتركوه هنا، يشم سجاد مبني مجلس الوزراء، طلاء الحوائط، يتحسس بروز الخشب في المقاعد، رسوم البلاط، نقش الأسقف، كل ليلة علي فراش سريره يرتعد خوفاً من أن يمر الصباح علي جثة منصبه، تعلق بالوزارة حتي أدرك — قطعاً — أنه سيموت لو تخلت عنه، فزاد جريه وجبنه وهضم قلقه من زوال النعمة فرحة بنزولها، وأوقعه توقعه حلول النعمة في براثن العلة، كان يدخل مرضاً يخرج من مرض لكنه كان يرفض أن ينام علي وسادة في مستشفى مخافة، أن يعود معافي من مرضه مُعفي من سلطته ووزارته.

حتي جاء اليوم الذي سطع فيه نور شمسهِ وغار منه غم نفسه واستدعاه الرئيس في عجلة ليخبره بأنه قرر تعيينه رئيساً للوزارة، لا يزال يتذكر، قفز قلبه وغمره نهر من السعادة حتي فاض فبلل روحه، انحنى علي كف الرئيس وقبلها امتناناً لا حدود له عبودية لا تردد فيها، يتذكر أنه من صباحها لم يمس زوجته ولا أياً من النساء، نشوته بسلطته أشبعته حتي الامتلاء، من صباحها.. كان غرامه موجهاً إلي بوق السيارات السوداء، إلي لون سيارته، وإلي طريق يخليه الحرس من السيارات والعابرين حتي يمر، كان يهبط بقدميه من السيارة بعد أن يفتح

الحارس بابها مترددا وئيدا، يتمني أن يظل عمره كله في المقعد الخلفي الوثير الطري، يسند ظهره علي المسند ويرقب الموكب مارقا والطريق يخلو من الناس والسيارات.

كم تمنى أن يطلب من سائقه أن يبطيء من سيارات حراسته أن تتمهل، مستعجلين علي إيه؟! أليس الأسفلت يبرق تحت العجلات، أليست تغاريد العصافير تتدني وتتقزم أمام نفير أبواق السلطة، أليس الحارس بخوذته المعدنية فوق رأسه، علي دراجته النارية كرعوس الخيول في مواكب الخلفاء والأمراء.

حين انسحب عنه موكبه، احتلته الريبة وظنون الشك ورعشة الحمي، حاول أن يخفيها عن حرسه، وسائقه، ظن أنه بال علي نفسه اضطرابا، فأخذ يمسح بجنون وتوتر مكبوت بنطلونه بورق المناديل، لم يغضب الرئيس في شيء.. لكن من يعرف؟

آخر مرة هل تجاوز حده من الأحلام في جلسته مع الرئيس.. هل بان عليه جموح الرغبة، طلب منه الرئيس أن يعد قائمة بتغيير وزاري شامل.

وضع أوراقه في ملفه ومضي إليه في القصر وجد أن اللقاء في جناح المتحف، وماله؟ هذا هو المكان الذي يشعر فيه الرئيس بتمام لذته وكمال عافيته وعلو ذاته، المتحف يحمل اسمه ويحتل أبرز مواضع المباني في القصر الرئاسي، بلونه الأبيض وقبته السماوية وتضاريسه العربية ومدخله الرحب

وأشجاره الباسقة وأعلامه المرفرفة وبوابته الأندلسية وخضار أرضه.

يدخل المرء ليري قاعات متساوية في دائريتها تمتليء جدرانها بصور الرئيس. في كل قاعة مجموعة لمناسبة. في قاعة الرياضة صورة بكل الأحجام والمساحات والارتفاعات للرئيس وهو يلعب التنس، في ملعبه الرئاسي، في نادي الرفعة في ملاعب الرؤساء الأجانب، بالشورتات البيضاء، بقبعة في الصيف تحمي من الشمس، تحت ملعب مغطي في الشتاء، صور مقربة ليده تمسح المضرب، لقدمه تجري علي النجيلة، لعينه تتابع الكرة، لظهره ينحني لالتقاط كرة لعنقه يعلو لصد رمية، لقبضة كفه علي كرة يستعد لإطلاقها في الإرسال، لابتسامته مع الخصم، لمصافحته مع المهزوم بعد الهزيمة، لمداعبته بطل التنس العالمي، لصورة تجمعته مع بطلات التنس لدي حضورهن لبطولة في البلاد.

وقاعة تجمع صورته وهو يتسلم الدكتوراه الفخرية من شتي جامعات العالم بروب العالم الأسود الحريري، بقبعة التخرج المثلثة بوشاحات شتي في ألوانها تلف كتفيه، بمصافحته للأساتذة الذين يقلدونه الدكتوراه، وجوههم تعكس عالميته وشهرته النابضة، صور مع رئيس جامعة بكين، موسكو، برلين، بروكسل، كوالالمبور، واجادوجو، جوهانسبرج، بنسلفانيا، القاهرة، بوخارست، كييف، الزقازيق، أم القري.

الوجوه البيضاء والسوداء والحمراء والبنية التي تصافحه وتحتضن صورته.. يلبس روب الأستاذة، يتسلم الدكتوراه، يتقلد الوشاح، يصافح، يعانق، يحيي، ينزل السلام، يتكلم في الميكروفون، يخلع الروب، يعطي الحقيبة الجلدية التي تضم الشهادة إلي سكرتيه، يعانق طالبة تهنئه، قاعة الملابس العسكرية تضم صورته وهو يرتدي بذلات البحرية الجوية، الدفاع الجوي، الصاعقة، والكوماندز، بذلة القائد العام، بذلة المشاة، بذلة سلاح المهندسين، بذلة الاستعراض العسكري، بذلة ضابط إنجليزي، زي ضابط ألماني، في زي قوات المارينز الأمريكية، قبعة روسيا القطنية علي رأسه، فوق حصان بزي سلاح الفرسان، فوق جمل في زي سلاح حرس الحدود، بزي قوات حفظ السلام الدولية.

لا يرتاح الرئيس إلا في قاعة الشعب، حيث تمتليء الجدران بصوره مع الشعب في كل مكان، عبر كل هذه السنوات، مزدحمين علي رصيف قطار وهو يطل برأسه مشيرا بيديه بالتحية، عشرات الآلاف يجرون وراء سيارته في موكب يطوف الشوارع، مئات الطلاب من الشباب حوله في زيارة للجامعة، وفد نسائي يحيط به في مقر المؤتمرات العامة، أعضاء مجلس النواب يتزاحمون لمصافحته، مئات الأطفال يرقصون حوله بملابس سندريلا، الجونلات البيضاء المرفوعة والدثار الحريري المزركش، الفنانون في طابور لمصافحته أثناء زيارة أحد استديوهات التلفزيون، مئات العمال يلتفون في

مصنع حوله وهو يرتدي البالطو الأبيض والقبعة البلاستيكية، وآلاف الجنود يهتفون له في زيارته لموقع عسكري، الأجانب والسياح في أحد المعابد يلتقطون الصور معه، مزاحمة المتقنين والصحفيين حوله وهو يفتح معرضا للكتاب.

من شدة راحة الرئيس في هذه القاعة، سماها الواحة، وأمر بوضع مكتب صغير في أحد أركانها، وفي الأمور المهمة الخاصة بمقدرات الأمة يستدعي الرئيس المسئول إلي هذا المكان حيث يتباحثان والأمة تشهد عليهما.

وقد استقبل رئيس الوزراء في هذا المكان حتي يستقرا علي التغيير الوزاري الشامل بعد أن امتلأت البلد بشائعات حول قرب حلوله ودنو حدوثه.

وضع رئيس الوزراء الورق وقال للرئيس وهو يرتعش من الوجل والفرحة:

- تحب سيادتك نبدأ بمن؟

رد الرئيس في صحة وعافية لاتشي أبدا بسن الثمانين الذي تجاوزته:

بالزراعة؟

قال رئيس الوزراء:

- سيادتك أنا رشحت أربعة لتولي هذا المنصب الوزاري المهم.

عقب الرئيس:

مهم ليه؟

ارتج رئيس الوزراء

- نعم

- بأقولك مهم ليه؟

حاول أن يجد أي حروف تشكل أي كلمات ترضي أن

تجيبه بسرعة.

- إنتاجنا الزراعي انخفض في السنوات الأخيرة.

في حسم:

- وأنت كنت فين؟

ضعف وتحلل رئيس الوزراء تماما.

- سعادتك الأرقام بدأت في الانخفاض قبل أن تشرفني

بتكليفني تولي رئاسة الوزارة.

في براءة قال الرئيس:

- ومتي توليت أنت رئاسة الوزارة؟

- من ثلاث سنوات.. آه..

ثم صمت الرئيس قليلا وقال:

- يعني أنت عاوز تغير وزير الزراعة؟

أحس أنه طفل أسنانه مسوسة أمام مدرسة الحضانة فقال

بتهتهة:

- يا أفندم أنا مش عايز أغير حد خالص.. سيادتك الذي

أمرت بتغيير وزاري.

- فيه وزير الزراعة.

- سعادتك قلت شامل.

- وشامل يعني فيه وزير الزراعة:

في أسي واستئناس قال رئيس الوزراء:

- ليس شرطاً يا سيادة الرئيس، ممكن يبقى شامل ولا

يشمل وزير الزراعة.

في سرعة سألته:

- ويبقي ساعتها شامل إزاي؟

- يعني فيه استثناءات بالتأكيد.

أطرق برأسه ثم عاجله بحكمة سريعة:

- لأ.. إحنا قلنا شامل يبقي شامل، صحيح محدش

حياسبنا، لكن إحنا قلنا شامل، خلاص يبقي شامل.. قولي أنت

رشحت مين؟

استعاد رئيس الوزراء ريقه الغائب:

- رقم واحد أستاذ بكلية الزراعة اسمه....

حدق فيه الرئيس مستفهما وناقما:

- اشمعني كلية الزراعة:

ارتبك رئيس الوزراء:

- يا أفندم دا عشان وزارة الزراعة؟

علا صوت الرئيس ولقنه درسا:

- وهوه يعني وزير الزراعة لازم يبقي أستاذ في كلية

الزراعة.

تراجع رئيس الوزراء فورا:

- لأ.. مش لازم.

فتراجع الرئيس غاضبا:

- مش لازم إزاي.. يعني أجيب أستاذ في كلية الآداب  
أجعله وزيرا للزراعة؟

لم يعرف ماذا يقول رئيس الوزراء فانكتم، فصاح فيه  
الرئيس:

- انكتمت ليه.. ماتقول رأيك؟

في استكانة:

- الرأي رأيك يا أفندم!

لف الرئيس برأسه ونظر للسقف وأخذ يشرح لثلث ساعة  
تفاصيل ازدحام الناس علي أرصفة القطارات لرؤيته ورئيس  
الوزراء يؤمن علي كلامه، حامدا الله أن موضوع وزير  
الزراعة لم يفجر غضب الرئيس.

سكت الرئيس فجأة وقال:

- طيب ح أقولك حاجة.. إحنا نأجل تحديد اسم وزير  
الزراعة لغاية ما نستقر.. هو لازم يبقى أستاذ زراعة ولا لأ.

- أوامرك يا سيادة الرئيس؟

- طيب نتوكل علي الله كده ونختار وزير إيه.

- اللي تشوفه سيادتك.

شاخطا فيه:

- أنت شايف إيه.. أنت رئيس الوزراء.

بسرعة:

- نتكلم عن وزير الداخلية.

بحسم:

- خلاص نتكلم عن وزير الثقافة.

استسلم رئيس الوزراء كمصارع سقط تحت جسد خصمه.

- بالنسبة لوزير الثقافة أنا رشحت ثلاثة أسماء.

في لهجة الناصح قال الرئيس هامسا في رقة أبوية:

- اسمع كلامي.. العالم المثقفة دي محتاجة وزير حاسم

حازم.. محتاجين راجل بجد.

أمن رئيس الوزراء علي كلامه، فلم يعر الرئيس اهتماما

لموافقته وأضاف:

- آه زي الوزير اللي موجود دلوقت، هوه صحيح خ..

لكن بستين راجل.

- أنا مرشح لسيادتك اسما هنا لمتقف كبير.

- خول برضه؟

بتردد وفقدان بوصلة التكهن:

- هو سيادتك تؤمر بإيه؟

- في إيه.

- في وزير الثقافة.

- مش فاهم.

- يعني عايزه سيادتك خول ولا مش خول؟

- وهي تفرق؟

- الحقيقة....

ثم سكت كمن حط عليه الخرس، توقف الكلام في حلقه، لا راضي يطلع ولا راضي ينزل.. حل الرئيس الموقف بتدخله في الصمت:

- طيب أنا ح أقولك حاجة إحنا نأجل الكلام في وزير الثقافة لحد ما نعرف إحنا عايزينه خ.. ولا مش خ.. أخذ رئيس الوزراء نفسه بالعافية أخيرا وبلغ ريقه وانسحب ضيقه وعاد الرئيس ليتكلم.

- من الوزير التالي؟

- كما تري سعادتك.

في صخب وغضب وحماس قال الرئيس منفعلًا:

- نتكلم عن وزير الصحة؟

في أدب جم وهمس نم عن ارتجاج الأمر عليه سأل رئيس الوزراء.

- سيادتك عايزه إيه؟

- هوه مين؟

- وزير الصحة؟

- يعني ح أعوزه إيه!

- سيادتك يعني عايزه دكتور ولا مش دكتور.

شخط فيه الرئيس ونطر:

- أنت بتستهبل.. وزير الصحة عايزه دكتور ولا مش

دكتور.. طبعاً دكتور.

خلاص داخ رئيس الوزراء تماماً وتمتم.

- طبعاً طبعاً.

لكن الرئيس عاد بظهره للوراء واضطجع.

- لكن والله فكرة وجيهة.. ليه ضروري وزير الصحة بيقى دكتور.. هوه يعني ح يكشف علي الشعب في مكتبه بالوزارة ولا ح يضرب حقن لوكلاء الوزارة والموظفين.. ثم انتفض الرئيس قبل أن يعطي لرئيس الوزراء فرصة في موافقته.

- لكن شوف أنا كل يوم قاعد أقرأ في الجرايد عن الإهمال في المستشفيات والناس اللي بتموت فيها.. اسمع هيه الناس فاكركه إيه.. قال يعني عشان دخل مستشفى ميمتش، ليه يعني هوه شعب بيستهبل وعينه فارغة أنا عارف، فاكرك إن مادام عندنا مستشفيات محدش يموت ليه يعني ناس معندهاش ريحة العقل ولا الدم.. عشان كده أنا عايز وزير الصحة اللي جاي حتي لو كان كمساري يكتب علي مدخل كل مستشفى الآية الكريمة «كل نفس ذائقة الموت» أما نشوف بأه مين ح يعترض علي إرادة ربنا.

أخذ رئيس الوزراء يكتب هذه الملاحظات كأنه يدون الوحي ولما صمت الرئيس استسمحه رئيس الوزراء سائلاً:

- قلت إيه سيادتك في وزير الصحة؟

- فيه إيه؟

- عايزه سيادتك إيه؟

- خ.. ولا مش خ..؟

- لا يا أفندم دكتور ولا مش دكتور.

صمت الرئيس كثيرا وطويلا، تنهد ووضع كفا علي فخذه  
ثم ضرب بالأخري علي المكتب، ثم عاد بظهره للوراء، ثم  
حدق في السقف، ثم صرخ في وجهه:  
- أنت لم تشرب أي حاجة.

ضرب الجرس فأسرع السكرتير بالدخول، شتمه الرئيس.

- جاي تجري زي دكر البط ولم ترسل السفرجي بأي  
حاجة يشربها السيد رئيس الحكومة.

تراجع جسده وكلامه، وقال السكرتير:

- سيادتك كنت أمرت محدش يدخل عليكم الاجتماع.

ويقاطع سيادتك

شاعرا بالمفاجأة

- أنا قلت هذا الكلام؟

- نعم سيادة الرئيس.

سيادة الرئيس لم يعجبه الكلام فسأله:

- ليه يعني محدش يدخل؟

- يمكن عشان أسرار التغيير الوزاري؟

قام الرئيس منتفضا في ثورة بلا ذرة مقدمات.

- أهوه يا سيدي، لا رئيس الحكومة طفح حاجة ولا إحنا

عملنا التغيير الوزاري فين السفرجي بقي؟

الغريب أنه تلقى الاستدعاء علي هاتف المكالمات العادية  
وليس علي الهاتف الخاص كما أن المتحدث لم يكن الرئيس  
بنفسه وشخصه كما تعود معه كمدير جهاز الأمن الوطني حيث  
قرر منذ فترة ألا يتعامل مدير الجهاز مع أي مسئول غيره ولا  
حتي بوسيط بينهما، كان إحساس الشك فيمن حوله يطفو فجأة  
علي شعوره الساكن الآمن بأنه نجح في إخلاء البلد - نفيا أو  
قتلا أو قهرا - من الذي يمكن أن يرفع رأسه أمامه، كان من  
المستحيل أن ينظر فيجد أحدهم محدقا فيه، بات من آخر  
الممكنات أن ينظر مسئول لعين الرئيس مباشرة، دائما نظره  
فوق أو تحت، مرمي عند نقطة بعيدة طرف جاكيت الرئيس،  
علي كتفه. علي رابطة العنق، لأنه لم يعد أحد يجرو علي  
وضع عينه في عين الرئيس، وقد ارتاح منذ زمن من التفكير  
في منافسين أو طامحين في عرشه أو حالمين برحيله، بل صار  
الكل حوله يخشي رحيله أو موته بعد اثنين وثلاثين عاما في  
الحكم، صار الناس يصدقون أن الدنيا تقف علي قرني ثور،  
وأن الوطن يستند علي كتف الزعيم، إذا ما مات أو استغني، أو  
ضجر، ضاع البلد.. سقط وانهار.. فهو الوحيد الذي عرفوه



المعارض والمصانع، يدققان النظر فيمن يسIRON حولہ، من یمد الخطوة أكثر.

- ماله «ص» یمشي ورايا یمجري كأنه عايز یحصلني.. أنا ملاحظ إن كلامه كتر فعلاً.

من یمشي بجواره دونما أن یتراجع خطوة لیقف وراءه كما یقف المصلون وراء الإمام. ألسنت معي أن «ك» عنده طموحات أكثر من اللازم وحاطط كتفه من كتفي كأنه الرجل الثاني ولأولي العهد؟!

ویسهران اللیل بطوله في تتبع نظرات المسئولين في موكب الرئيس، هل ينظر الوزير إلی أعلي حيث السماء والسقف؟ أم یمعن نظره في الأرض حيث السجاجید ونقوش البلاط؟ هل یقف أمام عدسة التلیفزيون سعیداً بكثافة الأضواء علیه وتثبيت الصورة فوق وجهه، أم یفر بنظراته عازفاً عن أنواء الأضواء.. یتفحصان أصابع المتحدثين أمام الرئيس من الوزراء أو المسئولين یشرحون له رسوماً توضیحية أو خرائط جغرافية أو تشکیلات هندسية، هل ترتعش أصابعهم وترتجف أكفهم أم إنهم ثابتو الكف، مستقروا الأصابع، هل یشوحدون كثيراً أم أن حركتهم طبيعية مستکينة؟!

كان الرئيس أحياناً یشعر بنعاس فیأخذ مدیر الجهاز الوطني إلی غرفة نومه الرئيسية حيث یستلقي علی ظهره نائماً فوق السریر، بینما مدیر الجهاز جالساً علی مقعد خشبي كبير یدون الملاحظات والدلالات التي یحلها الرئيس بین غفوة وغفلة،

رئيساً وزعیماً، ولا یتصورون أن البلد یمکن أن تستمر بدونه، یمتیقظون في الصباح، فإذا بهم لا یجدونه علی شاشة التلیفزيون أو في صدر الصفحات الأولى، أو تماثيله علی الطرق الرئيسية، وصوره الزیئیة الملونة علی الطرق الفرعية، وخطبه في الإذاعة، والدعاء له في صلاة الجمعة، والاحتفال بعيد میلاده، وعید تولیه عرش الرئاسة. لهذا كانت مهمة مدیر جهاز الأمن الوطني أصعب من أن یتخیل أحد، فلیس سهلاً أن تشعر بالتوجس بینما كل من حولك خاضع خانع، ولیس سهلاً أن تستشعر الخطر وكل من حولك أرانب.

ومع ذلك نجح الرئيس في تشکيل عقلية وروح مدیر الجهاز الوطني، دربه علی الإحساس الدائم بالخطر، علی القفز من السریر لو زقزقت عصفورة علی شجرة في الجنينة، علی تحسس مسدسه لو أخرجت طفله لعبة المسدس الرشاش من الدرج كي تلهو به أمامه، علی التجسس علی مكالمات طفله الصغیر مع زملائه في فصل أولي ابتدائي أول.

استغرق منه الأمر كثيراً.

فالرئيس - حين ینام هادئاً یصحو وقد شك في الجميع واستجوب الكل وطلبه علی الهاتف لیحضر فوراً، لیفتحا الملفات، ویعيدا تشغيل الكمبيوتر السري للرئيس الذي یحتوي علی كل منمنمات الوزراء والمسئولين الشخصية، وشرائط الفيديو التي تلتقط للرئيس أثناء حضور المؤتمرات أو افتتاح

ومدير الجهاز يسرع بدق سن القلم علي الورقة المسنودة علي لوح خشبي فوق فخذه ينظر للحائط حيث ذلك الخنجر اليمني في جرابه الفضي المزدان بالنقوش ودرر المجوهرات ومقبض الخنجر بخشبة الأبنوس وانحاءاته الذهبية اللامعة.

حين كلفه الرئيس بهذا المنصب قال له بوضوح وحزم إن كل من يعارضني شخص غير وطني، خائن، وعميل. كل من يحاول اغتيالي أو المشاركة في قتلي ليس من أبناء الوطن حتي لو كان جدوده يعيشون هنا لسابع جد.. هات أوراقا رسمية، أختاماً من عشرات السنين، جوازات سفر قديمة، هويات مزورة، شهادات جنسية أجنبية، اقتل ناساً حتي يكذب ناس آخرون، عذب، شوه، المهم أن تخرج للناس جميعاً تؤكد لهم بالصوت والصورة والورقة والمستند واعترافات المتهمين وشهادات الشهود أن من فكر لحظة في التخلص مني شخص ليس من هذا البلد، أجنبي عميل، حتي لو كان ابن رئيس مصلحة الجوازات والجنسية، تعرف ليه؟ لأنني أريد أن أعلم هذا الشعب، أن أغرس فيه طاعتي والولاء لي، حتي يصبح كأنه مولود به ليس فقط أن يستغرب ويندهش من الذي يعارضني، بل يشك في أنه مواطن مثله، من هذا البلد من هذا الوطن، من أبوين طبيعيين.

كانت الكلمات تخرج من فمه بحمي غضب ورذاذ أعصاب هائجة، كان ذلك بعد يوم واحد فقط من محاولة اغتياله التي رجته أيامها بعنف وحاولوا التكتّم عليها وعلي تسريبها، حيث

كانت فضيحة يصعب التخلص منها ببساطة، وواقع الأمر - يقول مدير الجهاز - إننا نجحنا أن نقلل من خطورتها للرأي العام العالمي، لكننا لم نستطع أن نخفف من مأساتها.

كان يومها مناسبة الاحتفال بمرور مائتي عام علي إنشاء حديقة الحيوان الوطنية، وكان الرئيس يريد لهذا الاحتفال أن يكون عالمياً مذهلاً في محاولة لإثبات اهتمام سيادته بالبيئة والطبيعة، حيث صار الاهتمام بها موضة سياسية في تلك الفترة، لذلك تم تشكيل لجنة دولية للإشراف علي الاحتفال، ورصدت عشرات الملايين من أجل استيراد حيوانات جديدة ومنقرضة للحديقة، وإعادة بناء وتشكيل الأقفاص وبيوت الحيوانات وإعادة حفر البحيرات الداخلية وتجديد المياه في الجينة كلها وشراء ملابس جديدة لعمال وحراس الجينة، والاستعانة بشركة أمن خاصة تشرف علي التعديلات والتسقيلات، مع اهتمام خاص بجبلالية القروود واستقدام عشرات القروود من إفريقيا لهذه المناسبة خصيصاً، الحادثة التي عكرت هذا الاحتفال قبل أن يبدأ وتمكنا من إخفائها هي ما حدث حين سفرت البلد مجموعة من حراس ومدربي الحيوانات إلي ألمانيا للتدريب علي حراسة خاصة للأسود والأفيال.. وبعد تمام بعثتهم وقرار عودتهم إلي البلاد وقبل أسبوعين من الافتتاح الجديد، سقطت الطائرة التي كانت تقلهم وماتوا جميعاً. الأمر الذي جعلنا نستعين بحراس ومدربين من السيرك الوطني وخاصة لقص الأسود الذي تم تصنيعه خصيصاً وفق رسم هندسي لأحد

فنانسي العمارة والديكور الكبار في إيطاليا، وقد دعا الرئيس شخصيات عالمية ودولية معروفة باهتمامها بالحيوانات وقرر أن يصطحب معه في هذا الافتتاح والاحتفال كل وزراء البلد تأكيداً علي العلاقة الطيبة التي تجمع رئيس ووزراء الوطن بالحيوانات.

وكانت الأجواء الكرنفالية تغمر حديقة الحيوانات التي امتلأت بالورود والزينات الوردية وشرائط الألوان الطائفة، وعزفت فرق الموسيقى الموزعة في جميع أرجاء الجنيبة الألمان الراقصة والاحتفالية، وأقامت ثلاث فنانات استعراضات حية بالصوت والصورة مع عشرات الأطفال من تلاميذ وتلميذات معاهد الباليه.. وجهوا تحية مفعمة بالحفاوة للنجمة الأمريكية السينمائية التي وهبت نفسها للحفاظ علي فرو وجلود الحيوانات في أركان العالم. اشتعلت الفرحة في قلب الرئيس خاصة أن رؤية قفص الأسود قد ملأته غبطة وسعادة ربما وصلت حد النشوة، حين شاهد سبعا من الأسود ضخام الجثة غزيري الشعر، أنيابهم صلبة ومخالبهم بارزة وشواربهم أسطوانية، وانحناءات أبدانهم كأنها مغزولة بأزميل مثال، أعجبت عشرات الشخصيات من وزراء البلد وضيوفه الدوليين بهذا المشهد الرهيب المهيّب وخاصة حين بدأت الأسود تترأر في صيحات الملوك الذين ملكوا غابات العالم كله. كان حرس ومدرّبو الأسود ثلاثة من الشباب في أواخر العشرينيات، رياضيين الأجسام ومفتولي العضلات وأنيق الملابس، يقفون

أمام الأسود ويتحركون حولهم في القفص الواسع الذي يضم في واجهته بابين صغيرين (أو كأنهما صغيران) أقفالهما من الداخل، ثم ممر متر من العشب الأخضر الجلي الرطب، ثم وقفة الرئيس وضيوفه ووزرائه، كان وزير الزراعة يشرح شيئاً للرئيس وضيف دولي يحكي عن أصل ونوع وسلالة هذه الأسود وموطنها حين بهت الجميع، وثلت أفكارهم، وتصلبت أجسادهم، وتوقفوا عن التنفس وخرسوا وصموا في وهلة، حين انفتحت أبواب القفص.. كأنها تدار بالريموت كنترول عن بعد، وقفز أسدان في لحظة منضبطة وبتنسيق خرافي كأنهما يتدربان عليه منذ آلاف السنين، قفزا وعبرا بجسديهما المتر الفاصل بين القفص والرئيس ونشبت مخالب قدم أحد الأسدين وهو يقفز بكتف الرئيس الذي سقط في نفس الثانية التي قفز فوق جسده أسد ثالث نط من القفص، ترنج الوزراء واحداً تلو الآخر، سقطوا في فوضى زلزال نشب، سقط بعضهم فوق بعض وداس آخرون يجرون علي أجساد آخرين مرميين علي الأرض. بج الدم من أجساد كثير من الضيوف الدوليين، دعر أصاب النجمة الأمريكية التي كرس حياتها للرفق بالحيوانات، أغشي عليها وقد سقطت في حضن رجل واقف، فسقطا معاً متكورين في مئات البالونات الموضوعة علي جانب القفص، غطسا ولم يتابعهما أحد بعدها. عض أسد رقبة شخصاً ثم التفت فضرب بمخلبه شخصاً آخر، أسد ثان وقف فقط يزار ويرفع ساقه الأماميتين والناس تعدو أمامه وتتأرجح وتترنج وتتمرجح

وتهوي وتقوم وتجري بظهرها مثبتة عيونها عليه، كان ضابط مرور من تشريفة الاحتفالية وحده الذي تذكر أن الرئيس علي الأرض أمام الأسود، فجري بخوذته المعدنية وعصاه الحمراء حتي وصل إليه مبهوراً مبهوراً الأنفاس، والعجيب أنه قد وجده حياً يقظاً تماماً فقط مزق خفيف عند كتف البذلة، جرّ الضابط الرئيس وهو نائم علي ظهره مترين بعيداً وهو يزحف علي الأرض، تنهت الأسود لفرار الرئيس فبدأ ثلاثة منهم يولون اهتمامهم بالضابط الذي يجر الرئيس زاحفاً بظهره علي الأرض مجروراً مع الرمل والخضرة والتراب وبذلته الممزقة، بدأ الأسود يتحركون نحوهما حين وقفت ذراع الضابط ممسكة بذراع الرئيس، ومذهولاً من تنبه الأسود وتعدها المشي خلفهما كأنها تقصده مرتبكا وموتوراً، مذعوراً، خاطب الرئيس النائم علي الأرض.

- قم اجر يا سيادة الرئيس.

سمع الرئيس ذلك هبّ شبابيه من تحت الثمانين عاماً، نهض بسرعة الرغبة في إنقاذ الروح ووقف علي حيله ونظر للأسود وهو يتمم متهتها ومذهولاً:

- مش معقول.. مش معقول.

ثم أخذ يجري، رافعا ساقيه بأقصى ما يستطيع، رامحاً بأقوي ما لديه يسابق ريح الموت، ومخالب القتل، وجد الوزراء الرئيس يجري فكأنهم أفاقوا علي أهمية الجري، أخذ العشرات بالبذل الرسمية والقمصان البيضاء والأحذية اللامعة وعمليات

القلب المفتوح وتصلب الشرايين وسن السبعين يجرون بعزم ما فيهم والأسود وراءهم تمشي وتجري وتقف وترأر كأنها واثقة من إتمام مهمتها.

في اللحظة التي رأي فيها الرئيس جبالية القروء أحس أن الله يريد أن يبقي لشعبه.. فقفز وقفز خلفه عشرات الوزراء والضيوف والصحفيين ومصورو التلفزيون، كأن مخططاً كان معمولاً به لمواجهة الأسود بالقروء.

وصل الأسود وقد بلغ عددها الآن سبعة بتمامهم حتي سور الجبلية، صعدت بمخالبها وأقدامها إلي سطح السور وبدأت تسير عليه ممعنة النظر في مشهد تكس الرئيس ورفاقه وسط كومات من الصخور وكذا قرد يلاعب رأس الرئيس وآخر يشد الجاكت وثالث جالس علي فخذه والرئيس آمن معها، رعشته تحيط أجسادها بتدليل مداعب ويربت علي شعورها وظهورها، لم تر الأسود سوي حمار مؤخرات القروء في المواجهة حيث غطت القروء علي رعوس وأجساد البشر.

وقفت الأسود رافعة سيقانها لأعلي كل علي حدة، كل بعد الآخر، وتسلم كل أسد من زميله شعلة الزئير المدوي الغاضب الصاخب.

حتي ظهر الحراس الثلاثة الآن قادمين وقد أعياهم الأسى وخيبت الأسود آمالهم، وقفوا فوق السور ناظرين إلي الجبلية العميقة التي اشتبكت فيها أذرع حكام البلد بسيقان القروء وجوههم البضة بمؤخرات القروء، دماؤهم وكسور ضلوعهم

بقفز وتنطيط القروود. الجبلالية معقدة الصخور، متشابكة المنحنيات والتضاريس، والرئيس يتخفي خلف قروود تتعافى عليه.

في تلك اللحظة صرخ الحراس الثلاثة:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

أخرجوا مسدسات مفككة من تحت طيات ملابسهم، ركبوا أجزاءها وأحكموا تثبيتها ثم استداروا للأسود التي هبطت من فوق السور بمجرد رؤية مدربيهم قادمين نحوهم، رفعوا المسدسات في الهواء وأطلقوا الرصاص تباعاً بحسرة وألم وخيبة أمل وضبعة علي أجساد الأسود، فخرجوا بين ميت وجريح جرح الموت وتحول زئيرهم إلي طن وأن وزن.

ثم تبادل الحراس الثلاثة النظرات طويلاً وعميقاً رغم خطف اللحظة وارتباك الفوضي وقشعريرة الرصاص ورعشة الموت وانفجار الرعب.

أطلقوا الرصاص كل علي الآخر لينتحروا موتي بأسرارهم.

٧

ليلتها كان حاضرا في صالون الجناح الرئيسي في القصر الجديد الذي كان مزدحماً إلي حد الفوضي صخب وضجة وتوتر ورهبة وخوف وارتباك كل هذا مبعوث في فضاء المكان تلمحه العين الخبيرة بالأسرار الخبيئة في العيون وحركات الأجساد وتقديم التحيات والكلمات المقتضية والحروف المدموغة والأنفاس المضغوطة والسكون المرتعد والإحساس بأن نبضات البدن رعد مدو في عروق مخنوقة، كان ولاشك يحس أن شيئاً ثقيلاً ومريعاً قد جري، إلا أنه لم يبذل جهداً ضائعاً في فض كمون الغموض لأن استدعاءه ولاشك كان بسبب هذا الجلل الذي لم يفصح عن سبب كونه ولا حضور كنهه حتي الآن.

كان قد شاهد جزءاً من بدايات الاحتفال بمرور مائتي عام علي إنشاء حديقة الحيوان الذي افتتحه الرئيس هذا الصباح، لكن الإرسال التليفزيوني انقطع وعاد بعدها بفترة، أكدوا نهاية الاحتفال وعودة الرئيس إلي منزله دونما تفسير للانقطاع سوي الأعطال الفنية، حاول أن يعرف ماذا حدث بحسه الأمني المدرب، لف المحطات الفضائية عبر الطبق الهوائي لكن لا حس ولا خبر، كان يعرف أن الرئيس قد أصدر قراراً بالآ

يصور الأحداث والمناسبات التي يحضرها سوي التليفزيون الوطني ومهما كانت عالمية الحدث الذي يجري في عاصمة بلاده، فلا يمكن لأي كاميرا غير وطنية أن تصور شيئا، وكان يعيد بنفسه توليف المشاهد المصورة ثم يعاد بثها، وفي حوادث غير اعتيادية وأمور استثنائية - غالبيتها فرح - كان يسمح بال بث المباشر، من هنا أدرك أن الأمور سوف تدخل خانة التوقعات والاستنتاجات حتي يصدر بيان رسمي يوضح ما غمض، في الطريق بعد تلقيه الاستدعاء الرئاسي عرف من سائقه الخاص أن كلاما يدور وشائعات يتسمعها الناس حول تعرض الرئيس لمحاولة اغتيال أثناء إعادة افتتاح الحديقة، لكن الإذاعات الأجنبية التي أدار لها الراديو خصيصا في السيارة لم تقل شيئا.

في نفس اللحظة التي انتهى فيها من رشف فنجان القهوة، طلب منه أحد سكرتارية الرئيس الحضور إلي قاعة الاجتماعات، عندما انفتح الباب فوجئ بعشرات الكاميرات ومصاييح الإضاءة وازدحام صحفيين، طلب منه السكرتير أن يبغي لحظة، توقف عند ركن القاعة القصي عندما دخل الرئيس ومعه نجمة السينما الأمريكية، كانت في ثوب أبيض نصف عار وزهو العجائز الفاضح ابتسم كلاهما للأضواء والكاميرات. وبدأت وقائع مؤتمر صحفي لم يستمر سوي ثلثي ساعة سأل من سأل واستفسر من استفسر، صحفي واحد فقط سأل عن الاضطرابات التي سمعوا عنها أثناء احتفال حديقة الحيوان، نفي

الرئيس باسم أي اضطرابات، وأضاف بسرعة لعلك تقصد ثورة بعض حيوانات الحديقة أمام الأضواء والكشافات الخاصة بالتصوير، لقد كان أمرا عاديا لا يشكل أي تعكير لصفو الاحتفال ثم تدخلت النجمة فشرحت كم كان الاحتفال رائعا وشكرت الرئيس علي اهتمامه بالحيوانات وحرص سيادته بنفسه علي حضور هذا اليوم الذي صار رائعا بمشاركته ووعدت أنها سوف تحضر مرة أخرى للبلاد كي تتمتع بجمال شتائها كما هو مشهور عنها.

انفض المؤتمر ورأي الرئيس يلوح له أن يأتي، مشي خلفه حين انصرفت النجمة بعد مصافحة الرئيس بحرارة وطبعت علي خده قبله ثم أخذه من يده ودخلا قاعة جانبية، جلس عندما أمره الرئيس بذلك ثم فوجئ، بالرئيس يطلق شجرة من أعماقه وبدأ حديثا عاصفا يتهم فيه كل من حوله بالجبن والتفاهة ثم توجه بالكلام إلي وجهه تماما:

- طبعا عرفت ماذا حدث النهارده؟

قال: لا في الحقيقة

صرخ - واضح إنك حمار مثلهم

ثم أضاف بعصبية:

- اليوم يا أستاذ تعرضت لمحاولة اغتيال، ولولا أنه ليس هناك تليفزيون أجنبي بيبصرك كانت بقت فضيحة بجلاجل، تعرف كم كلفتني هذا الحادث حتي الآن، أكثر من عشرة ملايين دولار.. رشونا كل من كان موجودا حتي لا يذيع سر ما

حدث، هددنا وسجنا العشرات في أقل من ساعة، تعرف الممثلة القحبة اشتركت في هذا المؤتمر بكم؟ بثلاثة ملايين دولار.. وطبعاً تطلع إشاعات من هنا للصباح.. كل هذا ليه، لأن رجالتني حمير.. هل أنت حمار مثلم.. قل لي من الأول عشان أكون علي نور؟

سكت الرجل حتي تكلم الرئيس

- أنا قررت النهارده أعينك مديراً لجهاز الأمن الوطني، ومن بكره الصباح عايز تقرير كامل عن العيال اللي حاولوا اغتيالني في الجنيّة.. جنّتهم في الداخلية وقد أبلغت الجميع بالقرار.

أخيراً فهم.. وبعدها نطق:

- لكن سيادتكم أنا تركت الخدمة في الجهاز منذ عامين وكنت في البلد إجازة من إجازاتي سفيراً للبلاد في أوروبا. قال الرئيس وهو يخرج من القاعة وبمنتهى الانزعاج والقرق:

- كل ده خلص واتغير.. انتفضل روح شوف شغلّك.

وراح مدير الجهاز يري شغلّه، وبعد معاناة أيام طويلة قدم للرئيس تقريره، مروضو الأسود لا يوجد أي أرشيف لهم في أي من الجهاز المدني ولا أي جهاز أمني.. لا بطاقات شخصية ولا جوازات سفر، ولا صور لا علاقة لهم بالسيرك، إدارة الجنيّة اتفقت مع ثلاثة مروضين آخرين بعد حادث وفاة مروضي الأسود في ألمانيا، يوم الاحتفال حضر الثلاثة الجدد ولم يهتم

أحد بمعرفة هوياتهم أو التأكد من شخصياتهم.. وجدنا الثلاثة الأصليين مخدرين وفي غيبوبة في مستشفى العاصمة نتيجة حادث تصادم وقع لهم في أحد الشوارع المطلة علي النهر.

لم يكن العالم مهتماً كثيراً بما يجري في البلاد، حيث لم يكن الرئيس يورق أهداً خارج حدود وطنه، وكان هناك غزو أمريكي لعاصمة إحدى دول أمريكا اللاتينية طغى علي الأحداث، كما أن الرشاوي والتهديدات أدت إلي نتيجة مبهره في إخفاء حادث ومحاولة الاغتيال.

لكن بعد شهر من تسلمه مسئولية الجهاز الوطني حدث ما هو أسوأ من جنيّة الحيوانات، حيث كان الرئيس في زيارة لإحدى المناطق السياحية في شمال البلاد حين دار حوار بينه وبين وزير السياحة في حضور عدد من الوزراء والصحفيين الذين يتابعون الحدث ولا أحد يعرف حتي الآن ماذا قال وزير السياحة إلي الدرجة التي أغضبت الرئيس للغاية، إلي حد أنه نسي نفسه واندفع ناحية وزير السياحة الذي خاف وبهت من اندفاع الرئيس فتأخر قليلاً من هول الدهشة والتفت كمن يبحث عن أحد يحميه وهو يلهث فإذا بالرئيس يمد قدمه ويضربه حتة دين شلوت في مؤخرته وهو يصرخ:

- أنت بتدّ عليّ كمان:

ارتفعت أمواج الفوضى وتلاحمت مشاعر الذهول بين الحاضرين، وأسرع البعض يحاول تهدئة الرئيس فأمسك بذراعيه وكان الرئيس يفلت منهم مقرراً - وهو يلعنهم - أن

يضر بهم بالشلوت هم أيضا، بينما أمسك الحرس الرئاسي بوزير السياحة حتي لا يفر من أمام الرئيس فتبقي واقعتهم سودا، ربما أراد أن يضر به مرة أخرى.

في وسط هذا اللهاث والارتباك، استطاع مصور يعمل لإحدي وكالات الأنباء أن يمر بكاميرته قبل أن ينتزع الحرس كل أفلام الكاميرات الأخرى ومضي يومان دون أن ينزعج أحد حتي فوجئ مدير جهاز الأمن الوطني بالصحف الأجنبية تصدر صباح أحد الأيام صورة الرئيس يضر بوزير السياحة بالشلوت في صدر صفحاتها الأولى والغريب أن الغزو الأمريكي لعاصمة في أمريكا اللاتينية كان لايزال مستمرا، إلا أن هذه الصورة طغت علي كل اهتمامات الصحف وقنوات التليفزيون في العالم كله.

كان الرئيس قد أمر وزير السياحة بنسيان الموضوع وقال بعزم مافيه في مجلس وزراء عقد خصيصا لهذه القضية إن أي وزير يعاير زميله وزير السياحة بضر به بالشلوت فلن يتورع الرئيس أن يضر بهذا الوزير الآخر بالشلوت وقصاد الكل. وحينما أخبرت الرئيس بأن وزير السياحة يشيع أنه سوف يستقيل احتجاجا علي ذلك الشلوت، أمرني أن أقول له التالي:

١- إذا استقلت فسوف نقدم مخالفات الوزارة إلي النيابة وسوف تسجن وأنت تعرف ماذا فعلت وماذا أخذت من ملايين؟

٢- لو استقلت فلن تضمن وظيفة في أي بنك أو شركة كعضو أو رئيس مجلس إدارة ولن تحصل سوي علي معاشك من الوزارة.

٣- لو كنت راجل استقيل.

لكن ظهور الصورة جعل الموضوع يكبر إلي حد حافة الخطورة علي سمعة البلاد الدولية، فطلب الرئيس من مدير جهاز الأمن الوطني أن يتحرك بسرعة، وقد تحرك فعلا، استأجر الجهاز شركة تقنيات الخدع السينمائية والجرافيك وهي الأشهر في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، ودفع خمسة ملايين دولار من أجل أن يظهر مهندسوها في برنامج دعائي مدفوع الأجر يذاع علي شتي شاشات العالم يؤكد أن الصورة مركبة وهي تحمل خدعة ولاشك.

وتولي الجهاز حملة لمؤسسة صحفية إنجليزية استأجرت عشرات الخبراء فيما يشبه المسابقة حول تأكيد أو نفي الصورة واشتدت الخلافات بينهم مما أربك العالم المهتم تماما. وظهر وزير السياحة ضاحكا معلقا علي الصورة بأنها دعابة سخيفة.

ثم ركز الجهاز علي مصور الوكالة الصحفية الذي التقط الصورة، فاعترف أنها صورة مزيفة وحصل مقابل ذلك علي مليون دولار بينما اعتذرت الوكالة عن نشر الصورة في بث يومي لها لمدة أسبوع.



لكن المذهل أن تقارير الجهاز التي تم رفعها للسيد الرئيس عن الرأي العام المحلي تضمنت مفاجأة حقيقية، فقد استقبل الشعب هذا الشلوت بفرحة وتشفي وشماتة في الوزارة، وكان سائقو التاكسي الليلون يبنون تقاريرهم أن مستقلي التاكسيات كانوا يحيون الرئيس علي هذه الفعلة وأكدوا أن الوزارة كلها عايزة الضرب بالشلوت، أما المقاهي فبدأ زبائنهم في اقتراحات محمومة حول من يستحق من الوزراء الآخرين الضرب بالشلوت كذلك.. وكشفت التقارير أن سكان جنوب البلاد قد تحمسوا لفكرة ضرب المسئول بالشلوت وأنهم أرسلوا برقيات مبايعة وتأييد للرئيس علي خطوته الحكيمة بضرب الوزراء بالشلوت.

وقد ثبت أن أكثر من ستمائة موظف ومدير عام قد تقدموا بشكاوي في أقسام البوليس ضد رؤسائهم لأن الرؤساء احتدوا عليهم في العمل وضربوهم بالشلوت أسوة بالسيد الرئيس، وانتشر في البلاد شعار مكتوب علي كل جدران المصالح الحكومية بخط يكاد يكون واحدا يقول:

«أشتاتا أشتاتا أشتوت.. حكومة عايزة الضرب بالشلوت» ولما بلغ هذا الرئيس كاد يترجع عن نفي حقيقة الصورة لكنه ضحك لأسابيع متتالية علي وفاء شعبه له ومبايعته لشلوته.

٨

جلسوا في الصالون..

فسيح ومريح، مقاعده مبطنة بوسائد من القطن ومغلقة بحريز منقوش بزهور صغيرة دقيقة بين الصفار والزرقة، كانت فناجين القهوة قد تبعثرت في أرجاء الصالون فارغة أو نصف فارغة وخيوط البن السائل مرسومة إثر الشرب علي ظهر الفناجين، وآثار السجائر ملقاة في كل زاوية، تحت الأحذية، في الطفايات، وعلي أطراف السجاجيد، عندما قام العمال بتنظيف الحجرة بعد فض اجتماعها، أحصوا أن حوالي سبعة من الأشخاص دخنوا ١٨ علبة سجائر (وصلت أن استلفوا علبة سجائر الحرس والعمال بأصنافها المحلية) وشربوا ٤١ فنجان قهوة معظمها سادة واستهلكوا ١١ زجاجة مياه معدنية.

وحين فتح العمال الباب كان الدخان خانقا يملأ الصالون كأنه آثار حريق والهواء المحبوس في الغرفة بات ملوثاً ومكتوماً، حتي إنه لا يوجد أحد دخل المكان لثلاث ليال تالية إلا وقد كح أو تتحنح أو طرد بلغمأ أو قال يا ساتر.

رعدة الأيدي وهي ترشف فنجان القهوة وهزة الأعصاب المتوترة المضبوحة في طحن السجارة في الطفاية دون أن

يدخن نصفها، ورفع النظارات عن الأعين وتدلّيك الوجه بكل الكف، والوقوف والجلوس والمشي في الغرفة ثم التوقف فجأة، وتمدد أحدهم علي ظهره فوق كنبه بعيدة وقد أرهقه الجلوس حتي أنت فقرات عموده، كانت شمسهم كأنها تغرب من تلك الغرفة، وكان كل منهم يحاول أن يتشبث بأخر أشعة منهوكة تداري ضعفها في لحظات الوداع فتسرع بالرحيل.. كانت زلزلة الأرض تحت مقاعدهم مؤكدة، وكان كل واحد منهم يحاول أن يجد عموداً يرتكن عليه حتي يتفادي سقوط السقف أو انفجار الأرضية، لاشك أن كلا منهم كان يتمني أن يغمض عينه ويفتحها فلا يجد ما وجده قد وُجد ولا ما سمعه قد جري، أو علي الأقل يغفو فيصحو، فإذا بكل هذا حلم كابوسي عابر أو حادث كارثي وقد نجا منه.

وزير الإعلام عملها، غفا علي الكنبه وهو يدرك أن النهاية حلت والأقدار طلّت، لعله رأي فيما يري النائم، أو فيما يستيقظ من ذكرى في نفس المستيقظ أنه واقف علي حبل في السيرك محشو بالأضواء المبهرة والأنوار الكثيفة المتقاطعة علي وجهه وجسده وهو يسير علي الحبل مرتدياً بنطلونا مما يرتديه راقصو الباليه ولاعبو السيرك، عاري الصدر، يمشي علي الحبل ثم يقفز فوقه ضارباً بكعبيه الحبل الممطوط المدود فيطير في الهواء، يمد يديه - وسط تصفيق الجمهور - إلي اللوح الخشبي العريض المعلق بأحبال متينة في سماء السيرك يلمسه يمسكه تشد حرارة الجمهور في اندفاع حماسي يهتفون باسمه،

يستدير بذراعيه ثم بجسمه كله علي الزانة الخشبية ثم يطير في الهواء دورة ثم اثنتين ويفرد ساقيه وذراعيه ثم يثني ساقيه إلي صدره ويضم ذراعيه إلي جنبه وينظر للحبل صارماً جاداً سوف يهبط فوقه الآن تماماً ليقفز عليه قفزتين ثم يثبت قدميه ويسير علي الحبل بحرفنة يشتعل فيها إعجاب وحماس المتفرجين، التفت للجمهور فرأي الرئيس جالساً مبتسماً مستهزئاً ملوحاً بيده أي مع السلامة، نظر الوزير تحته فاخفي الحبل وهو يطير في الهواء وحده يمعن في الأرض تحته حين اندفع جسده نحوها في آخر مراوغات لاعب السيرك حين يكتشف أن اللعب قد انتهى.

استيقظ من غفوته علي صوت يشخط.

- دا مش اجتماع دا سيرك.

نظر فرأي مدير جهاز الأمن الوطني الوحيد الذي بدا أنه يحاول التماسك، هل لايزال مغفلاً يعتقد أن دولته التي دالت بقتل الرئيس سوف تعود فاتحة ذراعيها له، هل يعرف من الذي غرس السكين في قلب الرئيس ليفرغ بالونة نظامهم وحياتهم من الهواء.. هواء المال والنفوذ والسلطة والسلطان.

- لماذا تشعرون أنكم متم معه؟

سأل مدير جهاز الأمن الوطني، فرد عليه وزير الداخلية:

- المشكلة أنه لم يمت مودة ربنا.. لقد تم اغتياله في عقر داره في قلب بيته، هذا معناه أن هناك قوة لانعرفها تمكنت منه، ومن المؤكد أن لديها خطة لما بعد التخلص منه، وبما أننا

لأنعرف هذه الجهة فلا نعرف الرصاصة القادمة سوف تخرج من أي مسدس؟

رد عليه مدير الجهاز كأنه يحدث نفسه.

- إذا كنا لانعرف من أي مسدس سوف تخرج الرصاصة القادمة فعلياً أن نعرف من أي مسدس يستحيل أن تخرج الرصاصة القادمة.

- نقصد نؤمن ظهورنا؟

ثم عاد وكاد يصرخ أو كاد يبكي أو لعله صرخ وبكي فعلاً.

- بس أنا أول واحد فيكم لازم أقدم استقالتي، لأن الرئيس القادم سوف..

ثم هبت ريح صمت.

- ثم قال وزير الإعلام وهو يفك رابطة عنقه:

- الرئيس القادم.

تدخل مدير الرئاسة.

- قبل أن نسأل عن الرئيس القادم يجب أن نعرف مصير الرئيس السابق؟

قال مدير الجهاز:

- أشكر مدير الرئاسة لأنه ذكرنا أن هناك رئيساً مقتولاً

في الدور الثاني من هذا القصر.

تساءل وزير الإعلام وهو يدلق القهوة رغماً عنه من الفئجان علي المائدة ويلحقها بمنديل ورقي ليجفف ما سال:

- هل سنعلن للعالم وفاة الرئيس؟

وزير الداخلية:

- ح نقول إيه للعالم. رئيسنا اتقتل في بيته وفي سريرته؟

وهو يكرمش علبة السجائر ويبحث عن سيجارة أخرى وجدها في علبة بعيدة لاتخصه، سحبها وأشعلها وقال رئيس الوزراء:

- لو قلنا إنه مات فهذا أمر طبيعي، لقد وصل عمره إلي

٨٣ سنة، صحيح كانت صحته بمب ولا شاب في الأربعين ولم يتعرض لأي مرض طيلة حياته، لكن دي أعمار ربنا، لا أحد سوف يشك فينا.

مدير جهاز الأمن الوطني أفزعته الجملة الأخيرة فهتف:

- يشك فينا.. وهل فعلنا شيئاً؟

قال وزير الإعلام:

- يقصد الدكتور إن أحداً لن يشك في بياننا الرسمي أنه

مات بالسكتة القلبية مثلاً.

وزير الداخلية تدخل:

- وهل معقول أن الخبر لن يتسرب، مستحيل! وساعتها

ن بقي كأننا عاملين عملة ودارينا الموضوع حتي لانتورط.

مدير الرئاسة وقد جلس في ركن تحت نافذة مغلقة وهو

يشعل سيجارة من سيجارة.

- ألا تلاحظون أننا نسينا موضوعين؟

استفهم الجميع بعيونهم فأكمل:

- كيف سنجد ابنه؟

رد رئيس الوزراء بسرعة ندم عليها:

- ابنه.. الله يعلنه ويلعن أبوه.

لم يكن لدي أي منهم لا الحيل ولا الهمة ولا الرغبة ولا النية في الدفاع عن الرئيس الميت وابنه أمام شتيمة رئيس الوزراء، بل فيما بعد قال وزير الإعلام إنه أحس أن الرئيس مات فعلاً حين تمكن رئيس الوزراء من سب سيرته.

- قال مدير الجهاز:

- صحيح.. هذا موضوع يجب أن نأخذه في اعتابنا.. وهل نبخله في أمريكا حيث يعقد آخر صفقاته أثناء حضور جمعية رجال الأعمال أم نستدعيه ونقول له الموضوع هنا وهل سنقول له مات أم قتل؟ وهل سيري جثته أم لا؟ لم يجد أحد جواباً جاهزاً لأي من هذه الأسئلة فصمتوا ثم قال مدير الرئاسة:

- أما الموضوع الثاني فكيف سنبلغ الحكومة الأمريكية بالحدث وهل يمكن أن نكذب عليها إذا كذبنا علي الآخرين؟

قال رئيس الوزراء:

- أنا باقترح استدعاء السفير الأمريكي لهذا الاجتماع وإفهامه أنه اجتماع عاجل وخطير مع الرئيس!

رن جرس اللاسلكي الخاص بمدير الرئاسة الذي تحدث إلي شيء في كفه لعله الميكروفون ثم انتفض قائماً فانتبه الآخرون لحركته فسأله أحدهم:

- هل هناك جديد؟

بينما صرخ رئيس الوزراء:

- أحسن تكون دي لعبة والرئيس صحي.. أنا قلت فعلاً لايمكن يموت.

تجاهلوا ملاحظة رئيس الوزراء وهمس مدير الرئاسة.

- وزير الحرب دخل القصر الآن وهو في الطريق إلينا. حذق فيه رئيس جهاز الأمن الوطني.

- هل هذا انقلاب؟

ثم استدار رئيس الوزراء برأسه دورة كاملة كأن دوامة بحر تلفه. متي رجع وزير الحرب؟ ألم يكن في رحلة علاجية بلندن حيث تم تغيير أربعة شرايين في قلبه؟ أجاب وزير الإعلام:

- حقا..

قال وزير الداخلية:

- لقد اتصل بي أمس الأول بعد وصوله للبلاد وقال إنه لن يعلن وصوله قبل أسبوع حتي يسترد بعضاً من صحته ويستكمل فترة النقاهة في استراحة الوزارة قبل أن يتوافد عليه المهنئون بشفائه فيشعر بالإجهاد مبكراً.

نهره رئيس الوزراء باعثاً روحه الخاملة.

- وكيف لم تخبرني يا سيادة الوزير؟

تدخل مدير الجهاز.

- لسنا في وقت المعاتبة.. إن حضوره ضروري فعلاً..  
لكن هل هي الصدفة أم أنه عرف؟  
قال مدير الرئاسة:  
- كيف تسرب الخبر إذن؟

انفتح الباب ودخل وزير الحرب مكدوداً ومرهقاً، كان وزنه قد انخفض كثيراً ونحافته بدت مرضاً وليست رشاقة عسكرية، والتجاعيد بانّت علي وجهه كاملة، ولاحظ البعض أن انحناء قد ظهرت في ظهره تحت عنقه مباشرة وأن أصابعه السمراء كانت ترتعش حين تمسك بأي شيء أو حتي حين يشير بها في الهواء.

سارع مدير الرئاسة بإفساح أول مقعد مريح له، وأحكم غلق الباب وأخذ وزير الحرب نفسه من إرهاب المشوار إلي الصالون، بينما قام الجميع ليسلم عليه بكلمات ترحيب وتهنئة مقتضبة، وكانت ظهور الجميع تتحني كأنها تريد لموجة البحر العالية القادمة أن تعبرها في أمان.

همس من فرط إجهاده يطمس حروف الكلام.

- البقية في حياتكم!

ثم أضاف بهدوء - ماذا حدث؟

بدأ مدير الرئاسة يحكي تفاصيل اكتشاف الاغتيال ثم أضاف:

- لم أكن أعرف أن سيادتكم قد وصلت بالسلامة إلي البلاد. - فأخبرت السادة الموجودين هنا بالحضور لأهمية

للبيت في الأمر، وكنت قد تحفظت علي جميع الحراس المشاركين في نوبة الأمس واليوم، وطلبت من رئيس الحرس استدعاء الدبابات الخاصة بالقصر الرئاسي تلك التي شاهدها سيادتكم بالتأكيد تحاصر القصر في محاولة لتأمينه.  
- تأمينه ممن؟

سأل وزير الحرب فلم يجد أحداً، فعلق:

- عموماً هذا إجراء طيب وطبيعي؟

سكت فسكتوا - كل طرف يضغط علي إصبع الآخر بفكه، وانتظروا معاً من يصرخ أولاً من الألم.. صرخ رئيس الوزراء طبعاً حيث لم يطق صبراً:

- وسيادتكم عرفت الخبر إزاي؟

أجاب في اطمئنان:

- هل تريد يا سيادة رئيس الوزراء أن تتحرك دبابة في البلد دون أن أعرف؟

رغم النبذة الواهية للتحدي السافر، إلا أن كلمة يا سيادة رئيس الوزراء التي ناداه بها أراحت رئيس الوزراء للغاية فتمتم:

- فعلاً.. فعلاً.

ثم سأله:

- وعلي أي شيء استقر المجتمعون؟

أجاب مدير جهاز الأمن الوطني:

- نحن الآن في وضع شائك ودقيق، عندنا رئيس ميت أيا كانت طريقة وفاته، دون أن يكون هناك نائب له تنتقل له الأمور بسلاسة وبساطة، إذن الأمر يدفعنا إلي السؤال من هو الرئيس؟ ومن سيختره؟ دعنا من الإجراءات الدستورية فهذا وضع إجرائي، لكن المشكلة - إذا كانت هناك مشكلة - تكمن في اختيار الرئيس.

الشق الثاني من خطورة الموضوع أن الرئيس لم يمّت موتاً عادياً، لقد مات مقتولا ولمزيد من الأهمية وفداحة الخطورة أنه اغتيل في قصره وفي سريره، مما يلقي ظلال الشك علي كل من اقترب منه ويهز الثقة في ثبات النظام وقوته، وي طرح هنا سؤالاً ضرورياً بالتأكيد: هل سنعلن للناس وللعالم أن رئيسنا مات مقتولاً ونعترف بحجم هذه المأساة؟ أم أننا سوف نخفي الخبر وهل يمكن إخفاؤه ولمتي؟ وعلي من؟ أما إذا اخترنا إعلان خبر الموت بالاغتيال.. فعلياً أن نقدم المتهم أو نشير إلي المتهم وسوف يظل بحثنا عنه محل نظر وانتظار المجتمع المحلي والدولي، والكل سوف يطالب بالقاتل. وعلانية ذلك قد تقود التحقيق إلي التسرع أو إلي التجني أيهما أو كليهما، أنت كما تري القصة معقدة خصوصاً أننا لم ننس أن لنا حليفاً استراتيجياً اسمه الولايات المتحدة الأمريكية للدرجة التي فكر فيها بعضنا أن نستدعي سفيرها لحضور هذا الاجتماع. أوماً وزير الحرب وبدا ارتياحه.

- أشكرك علي هذا العرض الأمين لحجم المشكلة التي نواجهها، لكن ألسنت معي أنه يستحسن أن نصل لقرار ثم نستدعي السفير الأمريكي لنبلغه به بدلاً من أن يتدخل أو يتداخل معنا في أمور تخصنا نحن أكثر.

قال رئيس الجهاز بسرعة:

- أنا معك تماماً.. فقط أحب أن أوضح أنني لم أكن صاحب اقتراح استدعائه للمشاركة معنا.. لكنني كنت أعرض عليك ما تمت مناقشته.

- حسناً.. حسناً.. فقط أرجو أن تكفوا عن التدخين قليلاً حتي لا أتهمكم بأنكم تحاولون السيطرة علي قواني باغتيالي بدخان سجائرکم، توجسوا وابتسموا وضحكوا وأدركوا أنهم ليسوا حزاني علي موت الرئيس، لم يضبط أي منهم الآخر وفي حدقته دمة، أو أسي، أو شجن.. فقط تابعوا الخوف من الآتي والترقب للحوادث الجلل التي ربما تعصف بهم، كان خوفهم علي سلطتهم ونفوذهم أعلي كثيراً من حزن خائب علي رئيس مغرور.. بل ربما كانوا يشعرون بالتشفي والشماتة فيه، كان بعضهم - أو كلهم - يظنون أنه كان يستحق وأن أيا منهم لو كان خارج السلطة الآن لربما زغرد لو علم بموته، أو ربما أغلق علي نفسه باب حجرة نومه ولف خصره بإيشارب زوجته ورقص.. رقص طرباً بموت الملك نمرود.. لكنهم كسبوا منه وعاشوا في كنفه ومصوا دم وطنهم معه وبه ومن خلاله،

فشعروا ليس بالحزن لوفاته ولكن بالحزن لغموض مستقبلهم بعد وفاته، أما هو فلن يفقده حين يفقده أحد.

كان وزير الحرب قد طلب معاينة غرفة نوم الرئيس ورؤيته للمرة الأخيرة.

صعد معه مدير الرئاسة، بينما انحنى رئيس الوزراء علي مدير جهاز الأمن الوطني وهمس مازجا الكلام بدخان السجارة.

- لقد عرفنا إذن مسدساً جديداً، لن تطلق منه رصاصة ضدنا، مدير الجهاز اختلس من صمته بضع كلمات.  
- المسدسات كثيرة يا دكتور.

حين هبط وزير الحرب، أطفأ الجميع سجاثرهم بسرعة وأحكم أمين الرئاسة غلق الباب واطمأن علي إقبال كل الكاميرات والميكروفونات المدسوسة في الأركان والأسقف للتصتت وجلس وزير الحرب يعاني من إجهاد الصعود إلي الدور العلوي (منع الرئيس تشغيل المصعد الداخلي بعد وفاة حرمه، بل أمر بعدها بشهور بنزع المصعد، فهو يري أن من يستخدمه لأجل ثلاثين درجة سلم في حاجة إلي أن يموت أفضل له وللمصعد).

قال وزير الحرب وهو ينهج:

- لقد أخبرني مدير الرئاسة بمشكلة ابن الرئيس! وأنا أسأل: هل له أي وضع دستوري أو قانوني؟

عاجله رئيس الوزراء:

- إطلاقاً- إنه فقط وزير الشباب ورئيس جمعية المستثمرين ومستشار الرئيس للشئون الاقتصادية ورئيس مجلس إدارة جريدة الشباب اليومية والعضو المنتدب لبنك التنمية المالية وعضو بالبرلمان ومساعد رئيس الحزب الحاكم ويملك أربع مدن ملاح في عاصمة البلاد ومدنها الأولى، والمالك الرئيسي لشركة في الأدوية وأخري في المقاولات والثالثة في السياحة ورابعة في السيارات وشريك ١٨ رجل أعمال محلياً في مصانعهم وتجارتهم وزوج السيدة كريمة أشهر رجل أعمال سعودي في العالم.

هذا فقط كل ما يمتلكه ابن الرئيس!

رد وزير الحرب باقتضاب:

- لقد كنت تحفظ الأناشيد في المدرسة بسهولة..

عقب وزير الإعلام: خطب الرئيس كذلك، كان يحفظها بسهولة.

أسرع مدير الجهاز بفض حلبة الغمز واللمز علي رئيس الوزراء وقال:

- عموماً كل هذه المناصب أكثرها تشريفي وورقي وبلا تأثير حقيقي، فضلاً عن أن قوته كلها كان يستمدّها من أنه ابن الرئيس، وعندما يكون ابن الرئيس الراحل فهذا أمر يختلف قطعاً، ثم إنني أثق في ذكائه وأنه سوف يفهم ضرورة الانسحاب في صمت، حتي أنني لا أشارككم (أو أشارك بعضكم) محاولة إخفاء أمر الاغتيال عليه، فهو سوف يفعل

ويتأثر بالطبع، لكنه لا يملك أن يفعل شيئاً سوى الضجة والصخب السياسي والإعلامي وهو ما يعرف جيداً أنه سوف يكون أول من يدفع ثمنه ولذكائه سوف يدرك أن من حاول اغتيال والده لن يتورع عن ارتكاب حماقة أسهل، ثم إن ابن الرئيس يضع عمارته كلها علي أعواد ثقاب بلا أساس سوى وجود الرئيس، وحين يختفي الرئيس، فأبي عابر سبيل يمكنه أن يدفع العمارة من فوق أعواد الثقاب فتسقط أو أن يشعل الأعواد فتحترق.

أراد مدير الرئاسة أن يضع قنبلة تحت مقاعدهم فقال:  
- ولكننا نتجاهل جميعاً أن الرئيس قد عشم ابنه بولاية العهد وأنه كان يظهر معه في كل لقاءاته السياسية والاقتصادية وزياراته الخارجية، بل لقد أوفده في أكثر من بعثة لدول خارجية، وأظن أنه كان قد أعد قراراً بتعيينه بالفعل نائباً لرئيس الجمهورية.

عقب وزير الحرب:

- وأين هذا القرار؟

ثم قال رئيس الوزراء:

- هذه أول مرة أعرف بهذا القرار!

قال وزير الإعلام:

- القرارات تصبح قرارات حين تصدر وتعلن، لكن طالما قلت مشروعاً أو نية فلا يمكن أن نتكلم عن القرارات.

وزير الداخلية شارك بدوره:

- وعلي فرض أن هناك قراراً.. أين هي أوراقه الرسمية، وهل نشر في الجريدة الرسمية، وهل تم إعلانه في أي مؤتمر أو اجتماع؟  
قرر أمين الرئاسة أن يحرق المركب قبل أن يظهر قمصان النجاة.

- القرار معي.

بهتوا جميعاً، حيث إن انفجار المفاجأة غمس شظاياها في أعناقهم.

هنا أضاف مدير الرئاسة:

- والمفاجأة أن القرار تم نشره صباح اليوم في الجريدة الرسمية، اكتسحتهم أمواج المصيبة فقال:  
- ثم إن الرئيس كان قد قرر تأجيل الإعلان الرسمي والاحتفالات المهيبة لذلك حتي يحين موعد عيد ميلاده القادم.

الوحيد الذي نجا من الغرق كان مدير الجهاز.. قال:

- وهل أخبر ابنه؟

رمي مدير الرئاسة أول قميص نجاة وقال:

- لا.

عاد مدير الجهاز إلي ثباته ووجه كلامه إلي وزير الحرب:

- أولاً: لا يوجد في الدستور أي نص علي أن يتولي نائب

الرئيس منصب الرئيس - فهذا كلام يمت إلي العرف والرغبة

في الاستقرار ولا يمت إلي الدستور بشئ.

ثم التفت لمدير الرئاسة:



- لعلك تتذكر أنه لا يزال هناك دستور في البلاد.

وواصل كلامه مرة أخرى إلي وزير الحرب:

- ثانياً: الأمر ليس فرضاً علينا، لو أردنا أن نضعه علي مقعد أبيه لفعلنا، لكنه قد يتركنا حوله بعض الوقت ثم سوف يتخلص منا واحداً وراء الآخر رغم كل ما بذله بعضنا من مسح رأسه عند قدميه.

قال وزير الحرب:

- وماذا يقول الدستور في البلاوي اللي زي دي؟

قال وزير الإعلام:

- رئيس البرلمان يصبح رئيساً مؤقتاً لحين انتخاب الرئيس الجديد.

علق وزير الداخلية:

- لكن البرلمان منحل.

أضاف وزير الإعلام:

- يبقى رئيس المحكمة العليا.

لما رأي أمين الرئاسة أن ركاب المركب لم يغطهم الماء

بعد، قرر أن يسد ثقب السفينة قال:

- عموماً أول ما عرفت وفاة الرئيس اتصلت بالمطابع

الرسمية وطلبت منها إرسال كل نسخ الجريدة الرسمية التي

تحمل قرار تعيين نائب الرئيس إلي القصر الرئاسي وهي تحت

تصرفكم.

ابتسم وزير الحرب مرتاحاً.

- أحسن حتي نتجنب وجع القلب.

ودون أن يفكر فيما فعل فقد فعله، وضع يده علي صدره ومشى علي طريق خيوط الجرح الذي شقه مشط جراح إنجليزي من أصل باكستاني في لندن لم يتبين ملامحه الدقيقة والصفراء ونحافته المفرطة وقصره البين إلا عندما جاءه بعد العملية ليطمئن عليه، كان منظره مثل عسكري مجند صادفه في موقع يزوره، لا يعتني به ولا يعنيه في شيء، لكن هذا الطبيب أنقذ حياته من ممات محقق، ابتسم له الطبيب وقال:

- أنت جندي شجاع للغاية، لقد قاتلت في العملية ببسالة.

استدعي وزير الحرب كلمات محفورة في ذاكرته من ضابطه الأول علي عتبة دخوله الجبهة وأعادها للطبيب كأنها بسمت صاحبها ورنين صوته وأدائه الجنوبي الغليظ.. قال:

- الجندي الشجاع هو الذي يدخل المعركة حرصاً علي النصر وليس حرصاً علي الحياة.

لم يفهم الطبيب الباكستاني الإنجليزي التعبير بدقة، لكنه عقب في ابتسامة الرحيل المسرعة:

- عموماً الحياة نصر عظيم في وقت لم يعد علي الجبهة أي جنود.

سلم عليه في اقتضاب ومضي تاركاً فيه إحساساً غريباً ضبابياً بالنجاة وتمسكاً أحق بالحياة وجرحاً طوله أكثر من ثمانية سنتيمترات في صدره يتلمسه كلما أحس أنه يريد الحياة،

وكلمنا أحس أن الحياة قد لاتريده، ناوشه مدير الجهاز مرة أخرى بثبات أعصابه في تلك اللحظات.

- تبقى القضيتان كما هما.. من الرئيس؟ وماذا سنعلن للناس؟

تدخل وزير الإعلام فوراً وكأن الكلمات محجوزة منذ فترة وراء أسنانه:

- طبعا نرشح سيادة وزير الحرب.

ارتفع صوت كالنحيب يشق الصمت الذي حط بعد كلمات وزير الإعلام الخاطفة التي عبرت كأنها دوي البرق في ليالي الشتاء الطويلة، كان الصوت الناحب مثل صراخ طفل علي حجر أمه، صوت رئيس الوزراء الذي هتف:

- لن نجد لا أعظم ولا أهم من سيادة وزير الحرب، وأنا مع هذا الترشيح بكل قوتي.

كان وزير الحرب قد أحس منذ كلمات وزير الإعلام بوطأة الدهشة علي شرايينه المفتوحة، شعر بنبض فطيع ستفجر له خيوط العملية وحين أتم رئيس الوزراء كلماته، كاد أن تسرق منه الاستثارة روحه وتجري، كان واثقا أنهم لن يستطيعوا التآمر من غيره ولا فعل شيء دون مشورته وموافقته، لكنه لم يكن يتوقع أن يحتل صفهم الأمامي بمثل هذه السرعة، كان وزيراً مرضياً عنه من الرئيس والجميع، لأنه وزير راض وهاديء بلا طموح ولا جنوح إلي شيء، مهذب في لفظه وتدخله، مطيع لما يسمع حتي من وزراء مدنيين لا يتمتعون

بمثل قوة ما يملكه، كتوم لا يذيع سراً ولا يكشف أمراً، صموت غير منشغل بما يقال أو يدور، لدرجة أنه كلما رأي مشهد اجتماع مجلس الوزراء في نشرة الأخبار التليفزيونية، تعجب، فكل وزير أمام التصوير يقول أي كلام غير مسموع وغير مفهوم، أو ينحني علي زميل بجواره يتبادلان كلاماً فارغاً أو ملأنا، يتساهران ويتسامران معاً لحين انتهاء التليفزيون من تصوير لقطاته التقليدية، لكنه وحده لا يكلمه أحد، لا يشاوره أحد، لا ينشغل بالميل عليه أحد، وهو لا يكلم الآخرين، صامت محلق فيما أمامه، ملامح وجهه لاتشي بشيء، كما أنها لاتفي بأى أدلة علي الحزن أو الفرح، تداخلت الكلمات بعدها من الحاضرين، مدير الجهاز الوطني أكد أن ذلك يجعل الوضع أكثر استقراراً وأضاف:

- إن البلد سيدرك فوراً أن عملية انتقال السلطة تمت بسلام وبسرعة وأن النظام لايزال يحتفظ بقوته وجذوره، كما أن وجود وزير الحرب علي قمة السلطة تقدير لأهم قوي داخل البلاد تحميها وتنتصر لها ونحن واثقون أن الرئيس الجديد من أشجع وأعظم الرجال في حياتنا السياسية.

لم يكن يعرف وزير الحرب ماذا يقول، فلم يقل شيئاً، سمع فقط ما يقوله مدير الرئاسة.

- إنني أضع نفسي وكل فريق العمل في القصر الرئاسي تحت أمر سيادته فوراً ويعتبرني كما كنت دائماً جندياً مخلصاً وأميناً في أي معركة يخوضها، وأنا أعرف صلابة هذا المقاتل

وقوته وقدرته علي خوض غمار الحروب ببسالة تأتي له دوما بالنصر.

طبعاً لم يكن وزير الحرب قد خاض حرباً طويلة حياته، كما أنه لم يمسك سلاحاً إلا أسلحة التشريفه وأنه كان "ياورا" للرئيس ثم رئيساً لحرسه الخاص ثم وزيراً للحرب وأن أحداً لم يعرف عنه أي خبرة بالحروب إلا ولعه بحرب النجوم وهي سلسلة أفلام أمريكية كانت في مطلع مراهقته.

وزير الداخلية هو الذي تحدث أخيراً وقال:

- بالقطع أنا أضرم صوتي إلي زملائي ونرجو من سيادته أن ينزل علي رغبة رفاقه، ورجاله، وأنا علي يقين أنها رغبة الشعب كله، وأثق أن نتائج الاستفتاء سوف تكون دليلاً علي إيمان الشعب بقدره ابنه البار علي تجاوز المحنة.

صفق مدير الرئاسة بيديه وقال:

- بعد إذن السيد الرئيس سوف نعتبر موافقته مؤكدة وندخل في التفاصيل.

كان يجب أن يتكلم، لكن لا لسان ولا ريق ولا صحة ولا تماسك ولا يقظة كانت لديه، وأذهل الجميع بأنه لم يتكلم فعلاً.. فتكلموا هم مرة أخرى، أكمل مدير الرئاسة:

- إذن نبلغ رئيس المحكمة العليا الذي يدعو البرلمان للانعقاد ونتقدم له بأوراق الترشيح.

أضاف وزير الإعلام:

- مع حملة إعلامية ضخمة تؤكد وقوف الشعب إلى جانب الرئيس الجديد وأؤكد أنها ستكون أقوى الحملات الإعلامية التي قامت بها قنواتنا التلفزيونية تشهد على عهد جديد ومرحلة جديدة.

م يفتح الله على أحد بكلمة جديدة فاضطر مدير جهاز الأمن الوطني أن يطلق كلاماً رصاصاً في الفرع حتى أوشك أن يخرق أذن العريس.. قال مدير الجهاز:

- أحب أن ألفت نظركم ونظر السيد الرئيس الجديد إلى أن الدستور. يشترط أن يكون المرشح للرئاسة مدنياً، أي ليس من العسكريين، شعر وزير الحرب أن خيوط جرح العملية قد انفتحت تماماً، بل ربما كانت الفتلة البنية في يده هي خيط العملية.. أخيراً تكلم في زهق وفزع:

- يعني إيه.. أستقيل من الوزارة؟

أسرع رئيس الوزراء يركب ثوراً عصياً وهائجاً.

- معناه إيه الكلام ده.. لو ترك الوزارة من يضمن لنا أن الوزير القادم سوف يكون ولاؤه لنا.. (تردد وتهته لكنه أكمل) أقصد للرئيس الجديد، ومعنى ذلك أيضاً أن الوزارة بقوتها تكون خرجت من إيدنا ومن حساباتنا لكن مدير الرئاسة ألقى باندفاع خراطيم المياه ليطفئ حرائقهم.

- أعتقد أن كلام السيد مدير الجهاز حقيقى دستورياً، لكن الدستور أيضاً لم ينص على ضرورة أو وجوب أن يكون وزير الحرب ضابطاً عسكرياً أو برتبة عسكرية معينة.

انطلقت زغاريد على هيئة أنفاس متنهدة لكن وزير الحرب  
تكلم ببراعة وفرح طالب نجاح فى الامتحان.

- هو ه فين الدستور ده.. أنا عمرى ما قريرته دا باين فيه  
حاجات مهمة قوى.

ابتلع من فهم ما فهمه، لكن وزير الداخلية أصر على أن  
يضيف:

- والله يا سيادة الرئيس حتى لو كان اسمه إيه ده الدستور  
مش موافق كان ممكن نفعنه..

زجرته عيون باستخفاف فأصلح.. كلامه.  
- أقصد نعدله..

تدخل مدير الجهاز:

- موضوع تعديل الدستور حكاية معقدة وطويلة وليست  
سهلة على الإطلاق لنعد إذن إلى جثة الرجل الراقدة فوق، ماذا  
سنفعل؟

قال رئيس الوزراء:

- الرأى رأى سيادة الرئيس.

انتبه وزير الحرب بعد وهلة أنه هو سيادة الرئيس فكان  
عليه أن يجيب.

- والله أنا رأى وقد يكون خطأ أو صواباً، أنا نعلن عن  
وفاة الرئيس وفاة طبيعية بالسكتة القلبية حتى لا نظهر أمام  
الشعب والعالم أننا دولة ضعيفة لم تستطع أن تحمى رئيسها..  
أما الكشف عن مرتكبى الجريمة فهذا أمر لا بد من حدوثه وأنا

واثق أن يقظة وذكاء ونباهة الجهاز الوطنى ووزارة الداخلية  
سوف تصل بهم إلى القاتل الذى أظن أنه مجرد فرد مختل أو  
مجنون يعمل بمفرده أتاح له إهمال البعض ارتكاب هذه  
الجريمة، والعقاب سوف يكون رادعاً وسريعاً.

ولما سكت سكتوا هم أيضاً فعاد ليقول:

- والرأى رأيكم.

فقالوا:

- والله نعم الرأى.. لقد اتضحت هكذا كل الأمور وباتت

واضحة ناصعة.

تمتم مدير الرئاسة:

- طيب وأمريكا.. السفير الأمريكى؟

قال وزير الحرب مدهوشاً:

- ماله.. مات هو أيضاً

تدخل وزير الإعلام:

- لا سيادتكم.. تذكر فى البداية قلنا إن أمريكا حليف

استراتيجى ولا يمكن أن نخبئ عنها سر اغتيال الرئيس.

اشتعل الفهم فى رأسه فقال وزير الحرب:

- نخبئ.. هو احنا نقدر أصلاً.. زمانهم عرفوا.. يعنى

انتوا عايزين نستدعى السفير الأمريكى ونشركه فى الحكاية؟

همس مدير الجهاز:

- حكاية!!

لم يسمعه سوى مدير الرئاسة الذى تدخل:

- اسمح لى يا سيادة الرئيس أن اتصل به للحضور خلال دقائق بالطائرة.

أوماً وزير الحرب وقد أحس أن الثمرة لم تسقط من على الشجرة بعد.  
- آه.. انتفضل.

حينما هم مدير الرئاسة بالخروج ناداه وزير الحرب:  
- لا تنس أن تتأكد من حرق كل نسخ عدد الجريدة الرسمية.

ثم تدخل وزير الإعلام:  
- وياليت تعطيتهم أمراً بإعادة طبع العدد بسرعة بدون هذا القرار.

أحس مدير الرئاسة أن وزير الإعلام يعطيه أمراً فتقلص وجهه وانقبض غضباً، فأسرع وزير الحرب بالتقاط سن السكين.

- وزير الإعلام يقترح فقط، وهو اقتراح جيد ولا أشك أنك بعقليتك الراجحة سوف تستجيب له.

ابتسم مدير الرئاسة وقرر عبور الحفرة دونما إثارة غبار قال:

- طبعاً هو اقتراح ممتاز وسوف آخذ به فوراً.

عندما عاد مدير الرئاسة من خارج القاعة كان كل من فى القاعة كأنه يضع عصفوراً فوق رأسه، فانشل تماماً مخافة أن يطير لا كلمة ولا حركة ولا همسة ولا لمسة.

كان السفير الأمريكى يصعد إلى سلم الطائرة الهليكوبتر التى تتطلق من فوق سطح السفارة التى اتسعت مساحتها ست مرات منذ مجيئه إلى العاصمة. لقد نجح فى استصدار قرارات جمهورية ووزارية بإخلاء المباني المجاورة لأنها كانت قديمة ومتهاكة ويتصارع عليها رجال الأعمال وأصحاب شركات العقارات الذين دخلوا فى منافسة حادة وملايين متضخمة، ملايين الأغبياء، بل إنهم لفوا أيضاً على الأجهزة الحكومية، ومنهم من نجح فى الوصول إلى الرئيس للحصول على قرار بإزالة هذه المباني والبيوت على أن يمتلك هو المكان.. وقد قال له الرئيس ضاحكاً فى مأدبة عشاء:

- طيب الناس يعرضون على مبنى كاملاً من عشرين طابقاً، أمنح مكاتبه وشققه لمن أريد من رجال الدولة ورجالى مقابل أن يتمتعوا هم بحق الامتلاك والبناء، فقد قرروا بناء عمارتين من عشرين طابقاً مخصصة كلها لمحدودى الدخل.. فهل يمكن أن أقف أمام مصلحة رجالى وشعبى؟

رد السفير وهو يتذوق قطعة لحم غارقة فى الزبدة:

- سيادة الرئيس: طعامكم لذيذ ومطبخ هذا البلد رائع.

شعر الرئيس أنه يتجاهل الرد فأحس خطراً.  
- لم تقل لى ما رأيك فى موضوع المبانى.. أليست  
المساحة حول السفارة تستحق أن تكون مكاناً لمواطنى هذا  
البلد!

قال السفير باستسلام الأفاعى:  
- طبعاً.. إن كل شبر فى هذا البلد يستحق أن يكون  
لمواطنى هذا البلد، لكن أحب أن استفهم من السيد الرئيس عن  
تعريفه لكلمة مواطن.

اندهش الرئيس.  
- نحن فى حصة العشاء وليست حصة العلوم السياسية، يا  
جناب السفير.

أمعن السفير فى جر السجادة من تحت الرئيس.  
- أنا دائماً فى حضرة سيادتكم أعتبر نفسى فى حصة  
للتعلم منكم العلوم السياسية.

ضحك الرئيس ولاشك أنه صدق أن السفير صادق، فقال:  
- المواطن فى رأى هو الكائن الذى تستطيع أن تضع له  
أى تعريف تريده بصرف النظر عما يريده هو.

ضحك السفير ضحكا حقيقياً وصافياً واحتسى رشفة نبيذ  
أبيض.

- هذا هو مواطن دولكم يا سيادة الرئيس بالضبط.  
رد الرئيس فى أعلى درجات الانسجام.

- وحياتك وده أى مواطن فى العالم لولا أنتم وكلامكم  
الفارغ عن الديمقراطية والحرية وكلام الجرايد التافه بتاعكم..  
هو أنت عايز تقنعنى إن الرئيس الأمريكى لا يعمل لخدمة  
الشركات الجبارة ورجال الأعمال الكبار ومؤسسات المال  
والنفوذ فى العالم.. أم تريد إقناعى أن الرئيس يعمل لخدمة  
المواطن الأمريكى البسيط فى بروكلين أو كوينز.. روح العب  
غيرها.

ضحك السفير مرة أخرى وهو يشيح بيده ويعود بظهره  
إلى مسند المقعد.

- هل هذا الحديث بين سفير ورئيس أم أنه حديث بين  
أصدقاء؟

فرد الرئيس صدره وضرب عليه بقبضته وابتسم بوسع  
ما فى قوة شفتيه.

- بين أصدقاء طبعاً.. أما أنت سفير حمار.. إنت فكرك أنا  
باعبر أى سفير ولا أقعد معاه!! ليه هو أنا عيل طمعان اشتغل  
وزير خارجية، أنا قاعد معاك لأننا أصحاب.. حتى مزاجنا  
واحد فى النسوان.

ارتج على السفير واستفهم بعينيه، فضربه الرئيس على  
كتفه ضربة ود وقال هامساً:

- ليه هو أنت فاكرك أننى نايم على ودانى ومش عارف  
البنت الصحفية اللى أنت مرافقها.

حاول السفير أن يبتسم لكنه لم يستطع، فقط نطق.

- سيادة الرئيس:

زعم فيه الرئيس:

- مالك ارتبكت كده ليه، خليك راجل، ثم دا الرئيس بتاعك نايم مع نص نسوان أمريكا ولا يعنى عشان البت الصحفية بتاعتك زوجة مستشار الأمن القومي الأمريكى.

ضحك الرئيس وتآلق ضحكه فى الهواء كمن ينادى على العالم يتفرج كيف أسقط السفير على أرض الحلبة.

بادل السفير الرئيس الابتسام وضغط على أسنانه ومسح شفتيه من آثار رشفة أخرى من النبيذ.

- سيدى الرئيس أوراق الجميع مكشوفة.. ولعلك لا تعرف أن مستشار الأمن القومي فى طريقه إلى الطلاق مع زوجته، لكن ظروف السلطة تعوق الاثنين والذى لا تعرفه أيضاً أنه مرتبط بامرأة أخرى.

ضرب الرئيس المائدة بيديه منتشياً من استقزاز السفير.

- امرأة أخرى...!!

رفع كفيه للسماء داعياً.

- يارب أرجوك وأدعوك ألا تكون السيدة الأولى.

رشف السفير بقية كأس النبيذ كاملة وهو يرى وجه الرئيس وقد احمر من الضحك.

- سيادة الرئيس فى بلادكم من يتفوه بمثل هذا الكلام تطلقون عليه الرصاص.

تمالك الرئيس نفسه من الضحك وقال:

- ياراجل أنتم لكم قيمكم الخاصة ونحن لنا تقاليدنا، ثم نحن أصدقاء فى جلسة شراب نلهو ونضحك.. ثم أنت بالذمة ألا يمنعك أدبك من أن تقول لى إن لديكم شرائط كاملة صورتوها لى مع عدد من المذيعات وأكد كان منظرى يفضح وأنا قاعد أمسك فيهن وأبوس صدرهن ثم أطبطب عليهن ويروحن من غير آثار رجولة على أجسادهن!

ضحك الرئيس ضحكاً مدوياً وبادله السفير الضحك هذه المرة صادقاً ومتحمساً ومستدعياً تلك المشاهد التى أتاح له مسئول المخابرات فى السفارة رؤيتها بشكل شخصى وكان منظر الرجل هزئاً مذللاً ومن ثم اندهش من روح الرئيس المعنوية العالية فى معالجته هذا الموضوع والكلام عنه بمثل هذه البساطة.

مال عليه الرئيس.

- ها قلت إيه!

- فى إيه؟

- فى المبانى من حول السفارة؟

- حضرتك رئيس البلاد وحر فى أى شئ تفعله.

- طيب بص أنا لا أريدك أن تغضب، هناك مبانى فى

شكل دائرة حول السفارة، أنت تريد المبانى التى تقع خلف وعن يمين السفارة، لتوسع المبنى ولأنها مبانى متهاكة شوف أنا موافق، لكن خذ بالك معى من المبانى الأخرى التى تقع على يسارك وأمامكم وهى أيضاً يمكن أن تكون متهاكة (قالها

بطريقة متحالية يفهم منها السفير أن الأمر سيتم بشكل قانوني  
رغم عدم حقيقته) سندهما وتكون لكم وأنتم تتركون المواقع  
الأخرى لرجال الأعمال.

ثم رمى الطبق البلاستيك في فم الدرفيل.

- ولكم نصيبيكم في هذا الموضوع مقابل مجرد رضاكم  
عنا وعنهم.

قفز الدرفيل والتقط الطبق وهبط إلى حوض السباحة.

- أنا تحت رهن إشارة سيادتكم.

تهكم الرئيس ساخراً وسافراً وقال وهو يعود بظهره  
للوراء:

- رهن إشارة سيادتكم (قالها بخفة وتريقة).. ياسفير  
يا ألعبان يابهلوان.. والله أنا حاسس إن أنت بالذات الذى سوف  
تأتى حتى قاعة مكتبى وتطلب منى التنازل عن الحكم أنت  
بالذات يا ضلالى.

- معقولة يا سيادة الرئيس.. دا أنا كان يتقطع لسانى.

مستمرا فى سخريته وتهكمه ولهجته التحذيرية الخفية وهو  
يقلد السفير فى نطقه.

- يتقطع لسانك.. إنت جاي يا له من أى حارة فى بلدنا..  
شكلك عمرك مازرت واشنطن أصلا.

كان لقاؤهما بمقهى صغير فى أحد طوابق البيت الأبيض،  
لعله كان فى زيارة أو إمضاء وقت مع أحد المسؤولين الصغار  
فى هذا المكتسب أو ذاك، لكن على العموم رآه - هل هى  
الصدفة أن يجدا متسعا فى نفس الوقت ونفس المكان لنفس  
كوب القهوة الأمريكى؟

الأسئلة التى تلقىها على نفسك فى البيت الأبيض قد تجد لها  
جوابا - ولو كاذبا - أما الأسئلة التى يطرحها سفير أمريكى  
ذاهب إلى الشرق الأوسط وسفير أمريكى عائد من الشرق  
الأوسط، فهى أسئلة تجد عشرات الإجابات المضللة والمتداخلة،  
المسؤولون الأمريكان تعودوا أن يكذبوا على مسئولى الشرق  
الأوسط، ومسئولو الشرق الأوسط اعتادوا أن يكذبوا على  
الأمريكان أو يتعلموا تصديق أكاذيب الأمريكان، كان السفير  
الأمريكى الذى صدر قرار ترقيته إلى إحدى إدارات وزارة  
الخارجية وحل محله السفير الجديد، يجلس فى ركن يكشف  
الداخلين لهذه القاعة الصغيرة التى تملؤها رائحة البن كأنها  
مطحن بن فى أحد سراديب هذا البيت الأبيض الغامض، ألقى  
السفير الجديد التحية عليه، قام وصافحه، أحضر الرجل قهوته



ولم يجد مفرأً من الجلوس أمامه على المائدة نفسها وقد أخذ الآخر يتصفح الواشنطن بوست بعناية، حاول السفير الجديد أن يجر معه كلاماً.

- الواشنطن بوست أيضاً جريدتى المفضلة.

ابتسم السفير القديم وقال:

- الحقيقة لقد وجدتها على المائدة، واضح أن شخصاً كان موجوداً مكانى ونسيها، لكننى - عموماً - أبحث عن دور العرض السينمائى والأفلام التى تعرضها فى حفلة الثانية ظهراً. وجدا نفسيهما فى طابور أمام قاعة عرض سينمائية فى أحد شوارع واشنطن، قطعاً التذاكر (كل على حسابه) واشترى كيسين كبيرى الحجم من الفشار المنفوش وجلسا فى مقعدين متجاورين لفيلم حركة، ملئ بالمسدسات.. قال السفير العجوز.

- لقد وجدت عشرات من الناس يشاهدون أفلام الحركة الأمريكية دون أن يفهموا كلمة من الحوار، فقط يركزون فى البداية على من هم الأشرار ومن هم الطيبون؟ وبعد ذلك تتساوى كل أفلام الحركة.

ابتسم السفير الشاب وهو ينحنى على أذن الآخر.

- معرفة الطيبين والأشرار سهلة فى السينما.. لكنها صعبة أحياناً فى الواقع.

- عندما تذهب إلى الشرق الأوسط فإن الطيبين هم من ينفذون سياستك والأشرار هم الذين يعارضونها، ليس مهما من فيهم يذهب للجامع أو للكنيسة.

طرق الرصاص فى الفيلم بما يكفى تحرير مدينة محتلة، وخرجاً معاً، تمشياً وهما يتبادلان ذكريات متقاطعة عن إدارات الخارجية الأمريكية، وشتما بما فيه الكفاية رؤساءهما الصغار، ثم قال السفير العجوز وقد عبر الإشارة بعد خطوة من السفير الشاب:

- هنا فى واشنطن يعتقدون أن رئيس هذا البلد الذى ستذهب إليه من حفريات القرون الوسطى فى الشرق الأوسط، لكننى أؤكد أنه قد يكون من الصعب أن نتمسك به فعلاً، لكن من الأصعب أن نتخلص منه، إننا مثل الذى يمسك الأسد من ذيله، والأسد الوحيد الذى يمكن أن تمسكه من ذيله هو الأسد الذى قمت بنفسك بخلع أسنانه.

وقفا قبالة بعضهما وأكمل السفير المحنك والمروى بماء أنهار الشرق:

- هذا الرئيس ثعلب لم يشبع من مزرعة دجاجة بعد، هل سمعت عن ابنه؟ إنه رجل فى الأربعين فى عمره، مهذب حتى تكاد تبكى من شدة أدبه، يملك أكبر نصيب فى أسهم شركة للأقمار الصناعية بشراكة مع عدد من رجال الأعمال فى نيويورك، لعلك تسمع عن هذه الشركة إنها رقم ١١ فى قائمة ممولى حملة الرئيس الأمريكى الانتخابية، إن هذا العجوز المغفل الجالس فى الشرق الأوسط، يدعك صدور النساء يراهن على كل مرشح ترتفع أسهمه فى استطلاعات الرأى، ويأمر بتمويله، لم يخب توقعه إلا فى حالات نادرة، لاحظ أنه يدفع

أموال التبرع من أموال المعونة التي يحصل عليها من واشنطن، إنه لا يصرف مليماً من جيبه، وانظر إلى بيته هنا في واشنطن وآخر في سياتل وابنه رغم أنه وزير في حكومة بلاده إلا أنه يمضى نصف عامه في نيويورك وسان فرانسيسكو.

عندما تصافحا عند جراج البيت الأبيض وهما يركبان سيارتهما أضاف السفير العجوز:

- لكنه أيضاً رئيس كريم لسفراء أمريكا في بلاده، لاتزال زوجتي مطمئنة على مستقبلها بعد وفاتي، حيث تركت لها في المنزل تمثالاً عمره أربعة آلاف سنة أهدها لى هذا الرئيس، وقد قدر أحد الخبراء ثمنه بمليونى دولار فانتظر ماذا سيهديك عند وصوله.

بعد عام من وصوله لهذه العاصمة أدرك أنه يمسك فعلاً بذيل أسد يسخر من صياديه الذين لا يعرفون أن يمسكوا به (الفرق بين لا يعرفون.. ولا يريدون.. استغرق من السفير سنين كى يعثر عليه فى العلاقة بين هذا الرئيس والإدارة الأمريكية)، أدرك أيضاً أن عليه أن ينسى حقوق الإنسان والتعذيب فى المعتقلات وحرية الصحافة، فكل هذا القاموس ألقاه من نافذة مكتبه فى السفارة، حيث لا يحتاج إليه الأمريكان مع ذلك الرجل.

بعد عام أيضاً أهدها الرئيس تمثالاً وشارك الرئيس مآدب العشاء الفاخرة التي جلسا فيها وحديهما، وأحياناً قليلة بمشاركة أحد ضيوفه، فى لقاء معه كان متعكر المزاج من نجاح المرشح

المنافس للمرشح الذى مولته شركة ابنه فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، لكنه آخر الجلسة كان صافياً تماماً وهو يعرف يقيناً أن أحداً هناك لن يستغنى عنه وقد جرى بعدها اتصال بينه وبين الرئيس الأمريكى الجديد، كان الحوار فيه ودياً وعميقاً، ومؤثراً، حيث قال الرئيس الأمريكى له بالنص:

- اعتبرنى ابنك وامد لى يدك بالخبرة التي تملكها فى حياتك السياسية العظيمة.

اتصل الرئيس بالسفير الأمريكى وحكى له تفاصيل المكالمة (التي كان يعرفها السفير) وأخذ يردد جملة اعتبرنى ابنك عشرات المرات، وقد ظل شهوراً بعدها لا كلام له إلا عنها، حتى سمع المسؤولون فى بلاده وبلاد أخرى كثيرة هذه الجملة حتى حفظوها وردد فى اجتماعات متعددة مع رجاله كلاماً مثل: - الرئيس الأمريكى الجديد ولد طيب عايز يفهم ويعرف..

والحقيقة أننى لن أبخل عليه بشيء.

المذهل أنه كان يتصل فعلاً بالرئيس الأمريكى ويبدأ فى نصحه بالتصرف بطريقة معينة فى أزمة لا علاقة لها بمنطقة بلاده، وكان لا يتورع عن الاتصال بالرئيس الأمريكى فى عطلة نهاية الأسبوع لينصحه بتجربة عدد من النساء حتى يظل محتفظاً بشبابه ونشاطه دون ملل، أو يتصل ليقول له رأيه فى خطاب أخير ألقاه الرئيس الأمريكى، أو تصريحات تليفزيونية، بل إنه مكث مكالمته ثلاث ساعة يحكى للرئيس الأمريكى عن تجربته فى إسكات المعارضة وذلك حين هبت عاصفة ضد

الرئيس الأمريكى فى إحدى خطواته لفرض سياسته على الكونجرس. وطهق الرئيس الأمريكى من هذه المكالمات (خصوصاً نصائحه الجنسية فى المكالمات إلى الحد الذى قال فيها الرئيس الأمريكى لزوجته إننى أشعر أحياناً أنه مشغول بحيواناتى المنوية أكثر منى). فقرر ألا يرد عليه ويترك هذه المهمة للإدارة أو الخارجية وبعدها بشهرين أبلغه وزير الخارجية أن هذا الرئيس لا يريد أن ينفذ اتفاقاً معه على عقد قمة فى بلاده للتمهيد لتسهيلات للقوات الأمريكية فى البحار الأربعة إلا إذا اتصل به الرئيس الأمريكى شخصياً، وقد تعصب الرئيس الأمريكى وأقسم أنه لن يتصل، لكن بعد إلحاح من وزير خارجيته ومستشاره للأمن القومى، كلمه وهذا نص الحوار - كما وصل إلى السفارة:

- كده برضه متعبرنيش وتكلمنى.

- مشاغل يا سيادة الرئيس.

- لماذا تعاملنى رسمياً ألسنا أصدقاء؟

- قطعاً.

- إننى كلما أراك فى التليفزيون تدمع عيونى.

- لماذا؟

- من الفرحة.

- أى فرحة؟

- فرحتى لرؤيتك.. هل تعرف أننى أضع صورتك أنت

والسيدة الأولى فى غرفة مكتبى.

- هذه لفئة كريمة.  
- هل تأخذ بالك من صحتك؟  
- إنها طيبة.  
- هل تأخذ كفايتك من النوم؟  
- نعم .. نعم.  
- لكن أنا لاحظت مرة إن تحت عيونك ظلالاً بنية.  
- أنت تعرف أعباء المسئولية.  
- اعمل بنصيحتى.. هذه الشعوب لا تستحق أن نرهق أنفسنا من أجلها.

- لقد انتخبني شعبى كى أعمل على مصالحه.

- مصلحة الرئيس هى مصلحة الشعب.. يا راجل بلاش غم.. لا تقرأ الصحف، فهى كلها ليس وراءها إلا النكد والهم ولا صحف ولا كتب ولا تقارير ولا كلام فاضى.. هو أنت عايز كل ده عشان تحكم.. كفاية بس تشغل تفكيرك وأنت تتخذ القرار الصائب على طول.. أنت فكرك إنه ليس هناك حكمة فى اختيار ربنا لك لترأس هذا العالم.. طبعاً إن فيك من رائحة حكمته، أنت ظله على الأرض، وإلا لماذا لم يأت بأحد آخر غيرك؟

- شكراً.

- لا شكر ولا فكر.. أنا عايزك تأكل وتأخذ بالك من صحتك وتراعى حق شبابك عليك ولا تنسى أن تشبع من النساء حتى تستطيع أن تدير قضايا بلدك براحة بال..

- هبطت الطائرة الهليكوبتر على المهبط الخاص فى  
القصر الرئاسى، كانت المروحة تثير الرياح والهواء والغبار،  
بينما كان أمين الرئاسة فى الانتظار وقد طار ذيل بذلته ورابطة  
عنقه حين صافح السفير الذى نزل من سلالم الطائرة برشاقة  
وأخذا طريقهما إلى داخل أحد الأجنحة فى المبنى الرئاسى.

- شكرا سيادة الرئيس.  
- مرة ثانية ح تعاملنى رسمياً.. ألم أقل لك إننى أحبك  
وأضع صورتك أمامى طوال الوقت وساعات أكلم الصورة  
وأسألها يا ترى عامل إيه دلوقتى.  
- سيادة الرئيس.. هل تباشر الجلوس مع طبيبك النفسى؟  
- طبيبى النفسى.. أما والله أنتو لكم حاجات ياخوجات، أنا  
يا حبيبى لا أمرض ولا أعرض نفسى على أى طبيب وعمر ما  
جاتنى حتى أنفلونزا والدواء الجاهز دائما لى هو كوب عسل  
نحل أجمعه بنفسى من خلية خاصة فى جنيئة القصر الرئاسى.  
- هل تحب أن أرسل لك طبيبى؟  
- يا عينى يا حبيبى.. لا تشغل نفسك بصحتى.. اهتم أنت  
بنفسك وصحتك.  
- أشكرك يا سيادة الرئيس وأرجو ألا تنسى اتفاقك الخاص  
مع وزير الخارجية.  
- أنسى!! هل هذا كلام؟! أى حد من ريحتك.. ريحة  
الحبايب كلامه كله أوامر.  
- شكرا.  
- قبلاتى لك.  
- سيادة الرئيس أنت واثق أنك لست فى حاجة إلى طبيبى  
النفسى الخاص.  
- لماذا تعود وتقول هذا؟  
- لا أبداً.. مع السلامة.

عندما كان يعرض رئيس الوزراء ماتوصلوا إليه من مواقف وإجراءات للسفير الأمريكى، كان حريضا على جعل كل شئ فى هيئة اقتراحات.. "واقترحات أقرها بعضنا أو كثير منا" مما جعل وزير الحرب يتلمل غيظاً منه ومن جبنه ومن تفتيت وحدتهم التى هى ملاذهم فى هذه المأساة - كان رئيس الوزراء يسرق نظرة من حين لآخر لكل من فى القاعة، كى يعرف هل ما يقوله يوافق خواطرهم ويناسب مطالبهم، فلم يجد أحداً قد تغير وجهه إلا وزير الحرب، الأمر الذى اعتبره "مريسة" من الأول.. لذلك حين وصل إلى اختيارهم للمرشح لمنصب الرئاسة قال متحمساً يذوب من فوق حروفه دهن النفاق:

- ولقد وقع اختيارنا بالإجماع على زعيم عظيم ومقاتل مهيب وسياسى خبير ليكون مرشح حكومتنا وحزبنا للرئاسة، ألا وهو السيد وزير الحرب.

ضحخ الدماء عاد إلى قلب وزير الحرب، وظهر راضيا تماماً - كالأطفال - عن رئيس الوزراء الذى سكت منتظرا أن

يحمل أحدهم عنه حمولة طن الزفت هذا الذى رصف به الشارع إلى قلب السفير الأمريكى.

كان السفير الأمريكى من لحظة ما تلقى خبر اغتيال الرئيس وهو كمن ضبطته امرأة تستحم فى حمامها، ينظر إليها من نافذة مكتبه، مرتبكا ومأخوذا وحائرا، لكنه رسم بأداء هولويودى شيناً من الجدية والخطورة على ملامح وجهه، بعد أن استمع لكلام رئيس الوزراء قرر أن يصمت ويترك فى الأرض طويلاً، لا شئ على الإطلاق يشغل تفكيره، مجرد متاهات تشبه ألعاب التسلية فى الجرائد المحلية، لكنه لم يتكلم حفاظاً على مظاهر مدى الأهمية وعمق التفكير.

أخيراً قال له وزير الإعلام:

- ماذا ترى يا سيادة السفير؟

تتحنن وقال بسرعة لا تليق مع تمثيلية التفكير العميق التى أداها.

- لا بد من الرجوع الآن إلى الإدارة فى واشنطن وسماع نصيحتها.. كانت الدقائق كلما مرت دهست عظامهم جميعاً فى تلك القاعة ، عندما اكتشفوا أن الساعة لا تزال الثانية ظهراً فوجئوا كلية، لقد ظنوا أن العام كله قد مرّ عليهم فى جلستهم هذه، ولقد أحسوا أن القاعة تلك هى صالة زفافهم التى تحولت إلى حوش مقابرهم، كان مرض السكر قد جعل رئيس الوزراء يكاد ينهار فطلب غذاء على أى نحو من أجل حقنة الأنسولين وراح يأكل كأنه يضغط نفسه بالعافية، أما الآخرون فقد اندسوا

فى فناجين قهوتهم وقد قطعوا أى اتصال تليفونى بهم منذ ساعات.

حين عاد السفير من الحجرة الأخرى التى أجرى فيها مكالماته، جلس على أول مقعد صادفه.. ثم بدأ كأنه يتلو بيانه.

- أولاً: السيد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يبلغكم تعازيه القلبية وتعازى الشعب الأمريكى كله فى وفاة الرئيس.

خرجت بين الهزل والجد كلمات رئيس الوزراء من تحت قطع الخبز المنتشية فى فكه.

- ياسيدى شكر الله سعيه.

تجاهل السفير الرد وأكمل..

- ثانياً: لقد تفهم صواب كل القرارات التى وصلتم إليها.

طرق قلب وزير الحرب طريقة تشبه الطرقات على الدائرة النحاسية فى حلبات الملاكمة تعلن نهاية الجولة.

- ثالثاً: إن الإدارة الأمريكية على ثقة أنكم سوف تولون هذا الحادث الخطير كل اهتمامكم رغم سرية إعلانه، إلا أنها تقترح تشكيل لجنة محايدة لا علاقة لها بأى من الأجهزة الأمنية فى كلتا البلدين لتتولى التحقيق بشكل خاص وفردى ومستقل فى حادث الاغتيال لتستعينوا برأيها والمعلومات التى تصل إليها فى هذا الحادث.

نظروا جميعاً إلى وزير الحرب الذى نظر إلى وزير الداخلية ثم إلى مدير جهاز الأمن الوطنى اللذين صمتا فلم يسعه إلا أن قال:

- على بركة الله.

التفت له السفير الأمريكى.

- مبروك يا سيادة الرئيس.

وكانت هذه الجملة إيذانا للمشاعر أن تتفجر فى قلبه.

لم يخجل أن يطلب من الماكبير بعضا من المساحيق المضللة تحت عينيه كأنه لم ينم حزنا وكمداء، كانوا قد اختاروا وزير الإعلام لكى يذيع بنفسه بيان وفاة الرئيس، أولا: لأنه لا يوجد نائب رسمى للرئيس ومن ثم لاصفة لوزير الحرب كى يعلن النبأ وقد يثير هذا أسئلة وارتباكات هم فى غنى عنها. ثانيا: لأنه من الطبيعى ووزير الإعلام هو المتحدث الرسمى باسم مجلس الوزراء أن يعلن الخبر بنفسه وهو مالا يعطيه امتيازا خاصا بخلافة الرئيس أما الصياغة فقد قرروا تركها لوزير الإعلام أيضا على أن يقرأها على وزير الحرب لإقرارها.

بمجرد عودته إلى مبنى التلفزيون اكتشف وزير الإعلام أن شيئا ما قد تسرب.. هل جاءت الشائعات من تأخر كل هؤلاء المسئولين فى قصر الرئاسة وتسلفت الأنباء عن طريق الحرس الشخصى أم السكرتارية التى أحيطت علما بمكان تواجدهم بينما منع عليهم الاتصالات، لقد لاحظ قلقا فى العيون وتوجسا فى حس الأصوات التى كلمته وارتباكا غامضا فى

قواعد الأمن اليومية وثمة تسبب يعكس إهمالا أو استهتارا.. لقد وصلتهم أشياء متناثرة طبعاً ولعلمهم اعتقدوا أن وزير الإعلام قد أطيح به، أو أنه في أزمة.. ربما هذا ما أكل رأسه ولعب النمل فى عبه. ربما يكون قد أعلن وزير الحرب عن نيته فى تولى شخص آخر وزارة الإعلام، معقولة بهذه السرعة وذلك التسرع، إن هذا شغل هواة ولا يجب أن يصدق كل التوجسات التى ستهرس قلبه من اليوم ورائح.

أعطى أوامره باستعداد استديو الهواء للبث المباشر وإعداد ديكور عبارة عن مائدة صغيرة على شكل مكتب وخلفها العلم الوطنى على صارى يملأ خلفه الكادر وشخط بدون مقدمات فيهم:

- لا أريد الأعلام بنت الفحبة اللى واكلها الفيران والممرية فى المخزن.. نقوا علما عليه القيمة.

طلب من سكرتيرته البذلة السوداء من دولابه فى مكتب الوزارة ورابطة عنق سوداء، فتشوا عن رابطة العنق السوداء فلم يجدوها، توترت سكرتيرته وأحست أنه نهار أزرق لن يفوت، حتى فوجئت بأحد القادمين لموعد مع الوزير وهو يرتدى رابطة عنق سوداء غاية فى الأناقة، لم تفكر لحظة، بل اندفعت ناحيته وهو يجلس بمنتهى الوقار على المقعد فى أنتريه الانتظار وأطبقت على زمارة رقبتة وهو مذهول ومستسلم، خلعت عنه رابطة العنق وهى تلهث وتجرى مبتعدة وتتمتم.

- لا مؤاخذة يا حضرة.

كان الوزير فى مكتبه ينتظر مكالمة رئيس الوزراء يحاول كتابة البيان، لكن عصت الأفكار وتمردت السطور، فاستدعى رئيس تحرير النشرات التليفزيونية وهو رجل مسن وبارد ومرعوس نموذجى حيث يستعد للانحناء قبل أن يطلب منه أحد ذلك.. جاء على عجل وجلس قبالة بعد أن استأذن أكثر من مرة للجلوس والوزير لم يكن ينقصه هذا النفاق البلدى على آخر النهار، المهم جلس فى أدب قرودى جم حتى بدأ الوزير يشرح له ما هو مطلوب منه، ارتج الرجل وفزع وهلع وأزرق واصفر واخضر ووجهه جاب ألوانا ثم بدأ يبيكى وهو يتحنح قائلا:

- البقية فى حياتك يا سيادة الوزير.. البقية فى حياة البلد.. أنتم الخير والبركة.. والله العالم خسر خسارة فظيعة.

رمى الوزير بنظارته على المكتب متفجرا فيه.

- خلاص فهمنا إنك متتيل بستين نيلة وحزين على موت

الرئيس يا سيدى، نفضى إذن لشغلنا.

الزعيق أنتج نتيجته فورا فى الرجل، فالتزم الصمت وتوقف أنفه أخيرا عن مخاط، البكاء. تقريبا كتب البيان على طريقة الخطابات المرفوعة من وإلى السيد الوزير للعلم والإفادة لكن الوزير أقره قائلا:

- يعنى لا يوجد أحد فاضى الآن للبحث عن الاستعارات

المكنية ودروس البلاغة، كله سوف يأخذ الخبر وينكب مذهولا دون أن يتأمل تعبيرات طه حسين بتاعة رئيس تحرير النشرات.



كان قد أقسم أن يغيره لكنه تراجع عن ذلك فوراً لما اكتشف أنه أساساً على كف عفريت ولا أحد يعرف ماذا تخبئ الأيام لمنصبه، جاءه صوت رئيس الوزراء أخيراً يأذن له بالضغط على زر القنبلة.

عندما بدأ الوزير يلقى بيان إعلان وفاة رئيس الجمهورية، كان عمال الإضاءة والمصورون والمخرجون خلف الزجاج الحاجز ومهندسو الصوت وكل من فى المبنى قد غشيه الصمت المصحوب بالذهول.. لم يكن أحد يتصور أو يتخيل لحظة أنه سوف يعيش حتى يرى هذه اللحظة، كان الرئيس بالنسبة لهم قدراً وقضاء وأنه مثل الصيف والمطر والخمسين والجمال.. جزء من طبيعة حولهم لا مفر منها ولا أمل فى تغييرها ولا تفكير فى أن تختفى أبداً عندما أنهى وزير الإعلام بيانه لم يكن يرى حزناً فى الممرات ولا الطرقات ولا المصاعد إلى مكتبه، كان يرى ذهولاً.. آثار صاعقة، أشخاصاً منومة، لم يحدث أحد أحداً فى الخبر ولا أحاسيسهم ولا مشاعرهم ولا أفكارهم.. كانت عملية جراحية صعبة بلا مخدر ولا منوم ولا مسكن لنزع اللوز أو الزائدة الدودية من جسدك وأنت صاح مستيقظ.

كانت تعليماته بإلغاء البرامج العادية والاكتفاء بنشرات الأخبار وإعادة إذاعة البيان وتلاوة القرآن الكريم. ومضى إلى وزارة الداخلية للاجتماع مع وزيرها ومدير جهاز الأمن الوطنى من أجل الإعداد للجنازة وخطة مسيرتها وأماكن استقبال الوفود والرؤساء والبعث التلفزيونى المباشر

ومندوبى الدولة للانتظار فى المطار وتأمين الشوارع والميادين وطرق المطار والتعاون مع الخبراء الأمريكان الذين سيحضرون لمرافقة مسئوليتهم، وكانت وزارة الخارجية تدمهم كل ساعة بالرؤساء الذين أعلموهم بحضورهم الجنازة، وكان وزير الحرب على اتصال مستمر معهم من مكتبه حيث انتقل للمبيت الأيام القادمة كلها هناك، فى نفس الوقت كانت تقارير أمن الدولة تأتى للوزير حول ردود فعل المواطنين وكانت كلها تشرح الذهول الذى يجتاح البلاد والصمت البالغ وعدم الرغبة فى إبداء أى انفعالات وهو ما كان سمة للبلاد على طولها وعرضها بينما وزير الإعلام يرد بشكل مقتضب وملخص على أسئلة وكالات الأنباء التى توافدت الآن إلى مقر وزارته مما دعا إلى اقتراحه بعقد مؤتمر صحفى عاجل، لكن مدير جهاز الأمن الوطنى عارض الاقتراح لأن الصحفيين سوف يسألون عن معلومات دقيقة ولا شئ نستطيع أن نجيب به عليهم، ووافق وزير الداخلية. على الطرف الآخر كان مدير الرئاسة يشرف على عملية سرية ومكتمة جداً هى غسل الرئيس بحيث يظل الذين غسلوا جثته محتفظين بسر الجرح الواسع الغائر الذى شق من قلبه حتى بطنه، فاختارهم من ضباطه الأطباء الثقاة وكان يتلقى تعليمات الغسل الشرعى بالتليفون من أحد الحانوتية الذى أمده به أحد رؤساء أحياء العاصمة من معارفه القدامى.

كان الحرص بالغاً على إتمام كل شئ بسرعة قبل وفود ابن الرئيس من الخارج.. وكانت المهمة العويصة لرئيس الوزراء

أن يكلمه بنفسه قبل إذاعة الخبر فى التلفزيون ويعلمه بنفسه ويطلب منه الحضور فوراً فى طائرة خاصة أرسلتها له الدولة.

كان رئيس الوزراء مرتبكا وتائها تماماً، تتصارع فى رأسه ونفسه تيارات الجبن والشجاعة، رغبة السلطة ومذلة الحاجة، هداه تفكيره إلى حيلة تتجوبه من الارتباك والتعثر أمام ابن الرئيس، فأخرج من درج مكتبه جهاز تسجيل دقيقاً، فتحه وسجل عليه حواراه المفترض مع ابن الرئيس، بحيث يقول هو جملته ثم يتوقع فى سره ماذا سيقول ابن الرئيس فيرد عليه بصوته، اطمأن إلى براعة التسجيل ومساحات الصمت المستروكة لرد فعل ابن الرئيس، وضع الشريط فى جهاز التلفزيون وربطه آلياً بالسماعة وضغط على أزرار الرقم السرى الخاص الذى يعرفه ويحفظه لابن الرئيس.. جاء الجرس رنيناً بعيداً عميقاً كأنه يعبر آلاف الأميال معه. كان يمشى فى الغرفة ترتجف سمانتا ساقيه.. فجأة رد ابن الرئيس:

- آلو.

أدار رئيس الوزراء بسرعة جهاز التسجيل وهو يهتز من فرط الاستثارة والحماسة، فجاء الحوار بين ابن الرئيس وجهاز التسجيل هكذا.

- أزيك يا ابنى.

- مين معايا.

- أريد منك أن تتماسك وتتشجع.

- تفكر ده وقت هزار.

- لادى خير سىئ.. فصل على النبى الأول.
- يابنى آدم أنت مين.. صوتك مش غريب على.
- أيوه كده مفيش احسن من الصلاة على النبى.
- مين الحمار اللى بيتكلم؟
- أبوك.
- مين!
- سيادة الرئيس.
- بابا اللى معايا.
- البقية فى حياتك.
- فى مين يابابا.
- المرحوم كان زعيماً عظيماً ووالداً عظيماً وفاضلاً وأنا واثق أنك تتمتع بشجاعة والدك فى تلقى مثل هذه الصدمة.
- أنت رئيس الوزراء.
- واعتبرنى بمثابة والدك الثانى والسيدة حرمى بمثابة والدتك الثانية.
- أنا مش فاهم حاجة.
- كويس أنك استوعبت الخبر وتلقيته بشجاعة كما توقعت.
- بابا حصل له حاجة.
- الطيارة فى المطار والبيان فى التلفزيون والأكل فى
- الثلاثية.
- أنا ح أضربك بالرصاص.

- عموماً أنا قلت له أكيد فيه مشكلة في الخطوط واضطرت لأن أتولى عنك المهمة وأخبره بوفاة الوالد.

- وماذا كان رد فعله؟

- سكت وخرس تماماً ثم قال إنه راجع للبلد بعد ساعات.

بعد ساعة بالضبط اتصل مدير جهاز الأمن الوطنى برئيس

الوزراء.

- مساء الخير يا دكتور.

- أهلاً يا أفندم.

- إيه اللي أنت قلت لابن الرئيس؟

رئيس الوزراء محتداً - تانى الأكل فى الثلاثية.

رد مدير الجهاز بوقار ودون انفلات أعصاب.

- أكل إيه وثلاثية إيه.. أنا كنت عايز أفهم ماذا وصل له،

لأن فيه تقريراً شفوياً جاءني الآن من طائرته في طريقه للبلاد

يقول إنه غاضب واثار وقاعد يقول عملوا في أبويا إيه.. فيه

انقلاب.. فيه خيانة!

بهت رئيس الوزراء:

- يا نهار أسود وما العمل؟

مرة أخري كان مدير الجهاز هادئاً تماماً.

- احتمال يكون هذا من أثر الصدمة الأولى، وانفلات

أعصابه سوف يتحكم فيه بمجرد حضوره.. لكن عموماً لا بد من

احتوائه.

- لا شكر على واجب يا ابنى والله الست هانم حرمتنا صممت تعملك بنفسها الأكل وتحطه فى ثلاثية الطيارة أول ما تركب تسخنه المضيفة وبالهناء والشفاء.. الأيام الصعبة قادمة ومن يعرف متى نأكل مرة أخرى.

- أنا ح أقفل الخط وح اطلع دينك.

- العفو يا ابنى والبقية فى حياتك خليك فارساً وشجاعاً.

سمع قفل الخط على الطرف الآخر، أسرع بغلق جهاز

التسجيل، كان يشك أن ابن الرئيس فهم شيئاً لكنه أزاح عن

صدره هذا العبء ومن السهل أن يتحجج بحالته النفسية التعبانة

من الخبر، أو الصدمة التى أحس بها ابن الرئيس، أو سوء

الخطوط الدولية هذه الأيام ومن ثم لم يكن غريباً أن يسمعا

بعضهما جيداً أو يفهما بدقة ما يقوله الآخر.

اتصل بوزير الإعلام أخبره بتمام المهمة وأن له أن يذيع

الخبر الآن على الهواء، بعد أن وضع السماعة فوجئ بتليفون

من مدير الرئاسة وقد بان على صوته أثر قلق ودهشة

واستغراب.

- ماذا فعلت يا دكتور فى ابن الرئيس؟

- فعلت إيه؟

- اتصل بى الآن غاضباً ولاعنا وعرف من جهازه أنك

الذى اتصلت تقول له الطيارة فى المطار والبيان فى التليفزيون

والأكل فى الثلاثة.. إيه حكاية الأكل فى الثلاثية يا دكتور؟

- أكل وشرب إيه حد له نفس يأكل.

حاول رئيس الوزراء أن يخرج بحقيقته لحظة من تحت جلده.

- ليه ح يعمل إيه يعني؟ ليس في يده شيء.

- لكن في لسانه شيئاً يا سيادة رئيس الوزراء، لسانه يمكن أن يطول ويفلت ويعمل وجع دماغ.  
في حزم ثعلب يسفر عن غضب.

- اسمع.. بلغ مندوبك في الطائرة إنه يهدئ روع ابن الرئيس ويذكره بأن شركاته وأسهمه وشركاءه في البلد ممكن يتخلون عنه فوراً ويخسر مع والده عشرات ومئات الملايين.  
دعه يذكره بصريح العبارة، إنه ممكن لوتوترت أعصابه أن تضيع ثروته وليس بعيداً أن يدخل السجن بقضايا فساد أكثر من عدد الشعر في الرأس.

شعر مدير الجهاز أن قطا تحول إلي نمر في لحظة، كمن يري تحول دكتور جيكل إلي مستر هايد، هل هذا هو رئيس الوزراء؟!

تذكر أن الكلب لولو المحمول علي ذراع الفتيات يمكن أن بعض أحياناً..

قال:

كلام دقيق وحاسم يا دكتور وسوف أنفذه حالاً.. ثم واصل.

بالمناسبة من سينتظره في المطار؟

ارتد رئيس الوزراء إلي أصله.

- لست أنا..

ابتسم رئيس الجهاز رغماً عنه.

- هل أجعل مدير الرئاسة يذهب في استقباله؟

رد في حسم:

- لا.. إن العلاقة بينهما قد تسمح بتسرب الأنباء.. اسمع..

اجعل «ن» رجل الأعمال إياه صديقه وشريكه يذهب في استقباله واجعله يهدئ من روعه في الطريق إلي العاصمة، ودعه يتذكر معه أن مصالحهما التي خدمتها السياسة قد تهدها السياسة.

أبدي مدير الجهاز إعجابه وتعجبه من مفاجأة رئيس الوزراء له بعقل جديد.

- فكرة ممتازة.. ليكن.

كان عشرة من الجنود يحملون الأوسمة والنياشين والقلادات والأوشحة التي حصل عليها الرئيس، يضعونها فوق مسند من القטיפه الأحمر مثبت علي طبق غويط من النحاس المبطن بحرير أسود، يسيرون بخطي منتظمة عسكرية ذات وقع حديدي علي أسفلت الشارع الطويل الواسع المختار بعناية في منطقة لا تحوطها البنايات ولا العمائر العالية، يسهل حصارها وتأمين مرتفعاتها، وتضييق مساحتها بصفوف من الجنود علي الجانبين يضيقون مساحة المشي الذي تسير فيه عربة يقودها حصانان عربيان تكشف انشاءاتهما عن أصل أصيل وفرع طويل في حشا السلالات النبيلة، الحصانان أكبر من الخيول العادية وأكبر رهبة وحضوراً، طرق حدوات أقدامهما علي الأسفلت يقترب من الرقص الناعس العفوي وأجراس نحاسية تخفق مع حركتهما فوق العنق، وموسيقى عسكرية جنائزية تنتحب حول الجنازة، علي العربة يرتكن النعش الخشبي المنقوش بأطر من الرسوم النحاسية ومقبض

فضي عند منتصفه ملفوف من ناحيتين بعلم البلاد، فوقه نجمة من الزهور الصفراء والبيضاء والبنفسجية، ثم صورة الرئيس مرتكنة علي النعش، موضوعة علي أرضية العربة ملفوفة بشريط أسود حدادي، بعد أن أعيدت الجنازة في التلفزيون كان وزير الإعلام يريد أن يضرب بالجزمة الشخص الذي اختار هذه الصورة، فقد كانت ضاحكة مبتسمة تدفع الجنازة كلها إلي حالة من البلاهة كلما أمعن فيها المشيعون أو اقتربت منها عدسة الكاميرا المقربة، كان ابن الرئيس ومعه رئيس الوزراء ووزير الحرب يتقدمون الجنازة بعد ثلاثة صفوف من ضباط التشريف الذين ظلوا يخطون الأرض لمدة ست ساعات بنعال أحذيتهم العسكرية حتي كاد الأسفلت يشكو الانهيار تحت أقدامهم.

رسم الجميع حالة حزن وكرب وارتدت الصفوف العشرة الأولى - علي غير عمد ودون توقع - نظارات سوداء، فكان مشهدهم إعلانا مجانيا للنظارات السوداء أو كأنه مشهد إعلاني تبثه شركة نظارات عالمية لصنف جديد تطرحه في السوق، الذين انتبهوا لهذا الكم الهائل من الوجوه التي ترتدي نظارات سوداء تحول بهم الانتباه إلي الضحك حتي القهقهة. أما إحدي شركات المآتم والمقابر والمدافن في إنجلترا قد استغلت هذه الصورة المنشورة في جريدة الجارديان لمشهد من الجنازة وقد ارتدي المئات المزدحمون نظارات وبذلات سوداء واشترت الصورة الأصلية من المصور وكبرتها وجعلتها

في إعلان الشوارع عن عملها وكانت الحملة الرئيسية للإعلان.

- البعض يعمل حساب البذلة والنظارة السوداء في الجنازة وينسي شكل التابوت. ثم اسم الشركة وعنوانها، وبعد شهر من وضع الإعلانات في شوارع العاصمة البريطانية ونشره في بعض الصحف الإنجليزية والاسكتلندية، نشر بريد الجارديان احتجاجا من مواطن من مواطني بلد الرئيس علي استغلال جنازته بهذه الطريقة التجارية، مما أخرج السفارة هناك فاحتجت واعتذرت الشركة عن الإعلان بعدما صارت حملة في صحف البلاد وإنجلترا أثمرت إعلانا مضاعفا للشركة.

كان الضيوف الأجانب في مقدمة الجنازة مع مسؤولي البلاد وقد وضعوا في مربعات محكمة بين المشيعين حيث كان يحيطهم من الجوانب الأربعة ضباط أمن البلاد وحراس الضيوف الشخصيون بملابس مدنية وقد وضعوا سماعات اللاسلكي في آذانهم وبانت المسدسات تحت أطراف بذلهم، وكان المشهد الذي جذب أنظار العالم كله هو وجود أربعة من الرؤساء الأمريكيين السابقين يشيعون الرئيس في الجنازة، وكان الرئيس قد عاصر ثمانية رؤساء أمريكيين بين سابق وفقيد، ولأن الرؤساء الأربعة ظهروا منذ عامين ربما في جنازة أحد ملوك المنطقة أيضا، فقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز رسما كاريكاتوريا للرؤساء الأربعة يجلسون في ساحة انتظار أحد المطارات وواحد منهم يقول:

- ها.. سوف نذهب نعزي فين النهارده؟

لكن حضور الرؤساء الأمريكان الأربعة كان حدثا إعلاميا ركز عليه الإعلام المحلي باعتباره شهادة اعتراف بتفوق الفقيد الراحل، وبينما كان الرئيس المؤقت للبلاد رئيس المحكمة العليا قد حلف اليمين وأعلن عن توليه منصبه، إلا أنه ظل متعثرا في مصاحبة زعماء وأمراء الدول المجاورة، ولم يظهر في الصفوف الأمامية وكانت التعليمات واضحة لمخرجي الجنازة بتجاهل وجوده والابتعاد عن أماكن تواجده في الجنازة، وقد التقطت عشرات الكاميرات مشهد رئيس الوزراء في الجنازة وهو غارق في البكاء يستند علي مصاحبيه فيما يشبه الإغماء والانهيال من فرط التأثر وشدة الحزن، ولم يجد زملاؤه من أصحاب خطة انتقال السلطة بدا من الإعجاب بقدرته علي التمثيل بينما أقسم مدير جهاز الأمن الوطني علي أن يحصل جهازه علي ملف علاج رئيس الوزراء في مصحة أوروبية أثناء تلقيه بعثة تعليمية. وكانت تلك الشائعة التي لم يتثبت من صحتها جهازه منذ تولي الرجل مقعد رئاسة الوزراء، لكن مشهد إغماء رئيس الوزراء جعل النكتة الشعبية تخرج فورا من المقاهي، حيث ترددت تملأ أرجاء البلاد في اليوم التالي، حيث أطلق عليه المتفرجون من المواطنين رئيس الوزراء وأرملة الزعيم الراحل!

لكن النكت لم تتوقف عن رئيس الوزراء بل طالت الرئيس الميت شخصا فقد رصد العالم كله اختفاء المواطنين من

الجنازة فقد اقتصرت علي الرسميين والمسؤولين والضيوف الأجانب، وقد أشارت وكالات الأنباء إلي الظاهرة وهي اختفاء شعب الزعيم من جنازته وخلو المشيعين من مواطنيه وعلقت عليها في صدر برقياتها وتغطيتها للحدث، مما جعل الإعلام المحلي يضع عقب كل جملة «جنازة الرئيس» كلمة «الرسمية» حتي يوحي بأن الجنازة - لظروف أمنية- لم يكن مطلوبا أن تكون شعبية، وأن الشعب كذلك لم يهرب من تشييع جثمان الرئيس. لكن الشعب - فعلا- شيع الرئيس بنكت تنواليا كفقاعات ماء يغلي قبل انفجار بركان من تحت بحيرة، وقد وصل تقرير النكت إلي مدير جهاز الأمن الوطني الذي أشر عليه بإحالة نسخة منه إلي وزير الإعلام والداخلية، وسبق رئيس الوزراء الجميع في مهاتفة وزير الحرب مرشح الرئاسة وروي له أشهر النكت بين الضحك والدموع والاستغراب المصطنع.

- قال لك إيه.. إن مكافأة نهاية الخدمة لعزرائيل هي قبض روح الرئيس.. بعد فاصل من الضحك، والترقيقة وضع للنكتة دلالتها.

شوف يا أفندم.. الناس لم تكن تتصور أنه سيموت.. لدرجة أن جعلت ملاك الموت يعتزل بعد قبض روحه.  
استزاده وزير الحرب فزاد بالنكتة الثانية.

بيقولك الرئيس الأمريكي والرئيس الفرنسي ورئيسنا ماتوا  
وظلّعوا للسماء، سألوهم إيه الحاجة إيلي أنت سبت شعبك فيها  
وحاسس إن شعبك سيتذكرها لك بالخير؟  
الرئيس الأمريكي قال: الشعب الأمريكي سيتذكر لي بالخير  
أنني تركته شعباً حراً.  
وقال الرئيس الفرنسي: الشعب الفرنسي سيتذكر لي بالخير  
دائماً أنني تركته شعباً عظيماً.  
وقال الرئيس بتاعنا: الشعب بتاعي يحمد ربنا أنني مت  
وتركته عايش!  
واصل رئيس الوزراء يثرثر بعد النكتة:  
- تصور يا افندم شوف النكتة، يعني مجرد أنه ترك شعبه  
حياً لم يعدم أو يُمت نكدا وقهراً، مجرد إنه عايش خدمة عظيمة  
له من رئيسنا السابق.  
طهق وزير الحرب من محاولة تفلسف رئيس الوزراء فقال  
له:  
- أنا لا ألحق أضحك علي النكتة حتي تلقي علي  
محاضرة، والنبي احك لي النكتة المتبقية دون تعليق.  
رد رئيس الوزراء بما يشبه اللوم والتفريع المخفي:  
أصل فيه فرق بين إلقاء المنولوجست للنكتة وإلقاء رئيس  
الوزراء، ثم قرر أن يتراجع حتي لا يفهم وزير الحرب معني  
يسوؤه من كلامه.  
فأضاف ساخراً:

- المنولوجست أحسن طبعاً.  
وبسرعة واصل نكته:  
- بيقولك الرئيس لما لقي «رقيب وعقيد» واخدينه علي  
السماء خلاص ح يتحاسب، قرر يرشيهم فراقهم «عميد وعقيد».  
وأيضاً:  
- بيقولك لما دخل الرئيس جهنم طلب يتفرج علي برنامج  
«صباح الخير يا جهنم».  
ضحك وزير الحرب كثيراً ثم قال:  
- دلوقت ممكن تبرطم بالفلسفة اللي انت عايزها..  
لكن رئيس الوزراء نقل لهجته إلي لهجة الأهمية  
والخطورة..  
- ما الأخبار لديك؟  
- أين؟  
- في الوزارة؟  
- تعبئة كاملة واستدعاء الاحتياط وتكاتف ممتاز وروح  
وطنية لم أرها من قبل.  
قرر رئيس الوزراء أن يشكه بشوك بذلة القنفذ التي يرتديها  
فقال:  
- ربنا يكمل بالستر ويعطيك الصحة كي تري هذه الروح  
تسري في البلد كله.  
وجود العساكر في الشوارع وظهور دبابات في بعض  
الميادين وكثرة عبور الطائرات فوق سماء العاصمة علي مسافة



قريبة، كل هذا كان رغبة من وزير الحرب بعد إعلان ترشيحه أن يضمن وجوده حيا في قلب حياة البلاد وكان استعراض قوته يغطي أنباء مرضه وعمليات القلب المفتوح التي أجراها والتي بدأت تنتشر في الأجواء وربما كان وراءها محاولة ما من ابن الرئيس لإثارة أي زوابع، وقد قفزت إلى مخيلته صورة الطبيب الباكستاني الذي أجري له العملية الأخيرة وخشي أن يجري خصوم البلد إليه في محاولة لسبر أغوار مرضه، فأرسل له وسيطا شخصيا من ضباط مكتبه يطلب منه ألا يتكلم مع أي من وكالات الأنباء أو الساسة أو المسؤولين عن ظروفه الصحية وقد عاد إلي وزير الحرب وسيطه يعرب عن ارتياحه لأدب وطاعة الطبيب الذي أكد أنه لا يتحدث عن أسرار مرضه أبدا، لكن الطبيب اتصل بنفسه في صباح اليوم التالي ولاحق وزير الحرب حتي عثر عليه تليفونيا وسأله برعشة لم يخفها تماسكه الصوتي الظاهر:

- هل استوليت يا سيادة الوزير علي قرص الكمبيوتر الخاص بحالتكم الصحية؟

استيقظت كل حواس الوزير وانتفض قلبه الكليل.

- إطلاقا.. ما هذا الكلام؟

رد عليه الطبيب ورنه الخطر تتكبي فوق حروف كلماته.

- إذن يجب أن أنبهك إلي أن أحدا استولي علي ملفك الطبي من الكمبيوتر الخاص بي وبالمستشفى.

حين اتصل وزير الحرب بوزير الإعلام كي يتدارس معه خطة حصار شائعات المرض، كان الأخير قد فوجئ بمديرية مكتبه تخبره بأن الرئيس المؤقت للبلاد يريد مقابلته، قال لها:

- حاولي أن تتهربي بأي حجة.. اعطيه موعدا ثم الغيه قبل الموعد بساعات.

نظرت له مديرة المكتب مسلوبة تاما.

- لا أستطيع

اضطرب من رد لم يتوقعه لكنها عاجته بما لا يتوقعه لا هو ولا هي.

- إنه ينتظرني الخارج، في أنتريه مكتبك.

لسعه الخبر، فقام مذعورا من مقعده إلي الأنترية الملحق بمكتبه وهو يرفع صوته بحماس جلي النفاق.

- معقولة سيادة الرئيس يطلب إنذا للدخول لمكتبي.

أنت تضرب الباب بقدميك وتدخل.

رد عليه رئيس المحكمة العليا بجفاء لا لبس فيه:

- لا ح اضرب باب المكتب ولا ح اخبط.. كل ما أريده..

سارع وزير الإعلام:

- اتفضل يا افندم الأول

ثم صرف مديرة مكتبه وأخذ بيد رئيس المحكمة العليا ودخلا إلي مكتبه، لكن رئيس المحكمة العليا كان لا يزال علي إيقاعه الغاضب.

- أنا أعرف تماما أن وضعي مؤقت، بل أنا في موضع لم أكن أريده ولم أسع إليه ولم أفكر فيه.

بلهجة ودودة يرد:

- مفهوم.. مفهوم.

يواصل الرئيس المؤقت:

- لكن طالما شأئت الأقدار، فلا بد من احترام الشكل الدستوري يا سيادة الوزير سواء في الظاهر الإعلامي أو في الباطن الإداري والسياسي. استهبل وزير الإعلام وتخابث: - لا أفهم يا سيادة الرئيس.

قام من فورهِ الرجل وقال كمن يبلغ رسالة إلي الجميع:

- من الطيب جدا أنك تتذكر أنني الرئيس وأن هذا الوضع المؤقت يسمح لي بإجراء تغييرات وإعادة تشكيل ووضع أمور في غير موضعها الذي اعتادت عليه.

وبسرعة صافح وزير الإعلام وبلهجة رسمية.

- أشكرك علي وقتك الثمين.. ووداعا.

مضي حين، كان استدعاء وزير الحرب، فارتبك وزير الإعلام وأحس أن هذا البلد لم يعد كما كان «قرْد وهو يعرف طرق ملاعبته» كان يستعد للانصراف حين فاجأه رئيس التلفزيون بدخول في غير موعد، تحمل فضلات السياسة واستمع له وهو يقول:

- ياسيادة الوزير، جاءني تقرير من الداخلية يطلب مني إعادة بعض برامج قنوات التلفزيون حيث لاحظوا أن الناس

انصرفت إلي القنوات الأجنبية وأنهم قد ضجوا بالأفلام الدينية والتاريخية.

قال الوزير:

- ماذا أذعنا منها حتي الآن؟

- كلها يا أفندم.. فيلم عمر المختار، وفيلم ناصر ٥٦ وفيلم

مصطفى كامل، وفيلم «القادسية» وفيلم «الناصر صلاح الدين» وفيلم «وا إسلاماه»

وفيلم «وفاة الرسول».

تتمر الوزير:

وفاة إيه.. إنت عايز تخرب بيتنا.. وفاة الرسول بمناسبة وفاة الرئيس!!

تراجع رئيس التلفزيون وهمس:

- في الحقيقة يا سيادة الوزير لم يعترض تقرير الأمن علي

فيلم «وفاة الرسول» لكنهم سجلوا النكت التي خرجت علي إذاعتنا لفيلم «جميلة بو حريد».

- نعم.. جميلة بو حريد..

- أيوه يا أفندم.

في زهق وضيق.

- وقالوا إيه يا سيدي؟

في رعدة سرت بصوته:

- قالوا طيب.. صلاح الدين وقطر وناصر وفهمناهم، إنما

جميلة بو حريد ليه، ما هو إما الرئيس هو جميلة أو هو بو حريد.

هل هذه هي النكتة؟

في خشوع قال رئيس التلفزيون:

- لا يا أفندم «النكتة إن الرئيس لما طلع السما قابل جميلة  
بوحريد بالصدفة فسألها: الواحد يشوفك فين دلوقت في الجنة  
ولا في النار؟ قالت له: لأ.. في القناة الأولى!

١٤

تمشي وحدها في النفق المؤدي إلي مكتب مستشار الأمن  
القومي، خطواتها الرجالية وملابسها المحتشمة المحكمة وحسمها  
الصارم، تقودها أفكارها إلي المشي مسرعة تخطف الطريق  
خطفا، ذات مرة وقفت في الشارع وقد ضبطت نفسها تلهث من  
الجري وهي تمشي سألت نفسها لماذا أجري؟ قفز جلدتها من  
عروقها.. ما الداعي إلي هذه العجلة.. لا موعد ينتظرني ولا  
تأخير يربكني، لماذا أجري هكذا في الشارع؟ هل لأن الشعب  
الأمريكي كله يجري أمامي فأجري وراءه؟

تذهب إلي محاضرتها مبكرا وتتهي المحاضرة في  
موعداتها، تلحق المترو أو لا تلحقه، فكل دقيقة عربية مترو قادمة  
تصل منزلها لا أحد ينتظرها كي تبدو متأخرة عليه أو مبكرة  
من أجله لم العجلة؟

أربعون عاما بالتمام والكمال عمرها، قضتها لاهثة مسرعة  
متعجلة، ثم ها هي الآن تسأل نفسها هل الأمر كان يستحق كل  
هذا الجري؟

في السادسة صباحا أيقظها رنين التليفون، سكرتيرة  
مستشار الأمن القومي اعتذرت عن هذا الاتصال المزعج  
المبكر وأضافت أن مستشار الأمن القومي يبلغها لو كان لديها  
في أي من ساعات النهار نصف ساعة يمكن توفيرها للقائه في  
أمر عاجل بمكتبه بالبيت الأبيض سيكون شاكرًا لها للغاية..  
وافقت بين النوم واليقظة.. وها هي تخطو نحو مكتبه حين تعثر  
حذاؤها ذو الكعب العالي كادت تسقط، ترنحت، استندت علي  
الحائط، لحقت نفسها، لكن الكعب انكسر.. عظيم.. حدثت  
نفسها.. هذه هي العقوبة المنتظرة لها طبعًا بعد أن أصرت مع  
نفسها علي ارتداء الحذاء ذي الكعب العالي الوحيد الذي تملكه،  
كل ملابسها وحاجاتها عملية رجولية في الغالب لدرجة أنها  
كانت في حفلة ذات سهرة مع زوجها السابق فالتقي بها رئيسها  
صدفة فصرخ أول ما رآها.

- معقولة.. ريتا أنثي..

أربكها تعبير رئيسها الجامعي الوقور، وشعر هو أيضًا بأنه  
خذل صورته الأكاديمية فألحق بكلامه إضافة.

- آسف يا ريتا.. لكنها أول مرة أراك في ثوب الأنثي  
الجميلة المهمة بنفسها..

ابتسمت رغم غباء تعبيراته.. استنجد هو بآخر من  
زملائهما في الحفلة.

- ألا تري يا صديقي أن دكتورة ريتا تخفي وراء جديتها  
العلمية امرأة ساحرة الحسن.

هذه آخرة السحر والحسن، الكعب انكسر، لدرجة أنها  
عندما وجدت في وجهها سكرتيرة مستشار الأمن القومي  
صرخت في وجهها بانفعال لا ذنب لأحد فيه.  
- إما أن أستعير حذاءك أو أدخل لمستشار الأمن القومي  
حافية.

ولما لم تتمكن من ارتداء حذاء السكرتيرة، قررت الأخيرة  
أن تحل الموقف بطريقتها، فكسرت كعب فردة الحذاء الأخرى،  
ورببت علي كتف دكتورة ريتا.

- الآن.. اتفضلي فهو ينتظرك.. ومع معرفتي لشخصيته  
وطريقة عمله فإن هذا يعني بالنسبة لي إما أن الموعد موعد  
غرامي أو موعد للتخطيط لجريمة قتل.

كان يجلس في المقعد الخلفي لسيارة سوداء تطلق نفير  
الشرطة كل لحظة بمناسبة وبغير مناسبة، علي يساره ضابط  
شرطة بملابس مدنية وشارب بوليسي ولا شك ممثلي، بلحمه  
وبذاته وأمامه بجوار السائق يجلس ضابط آخر نحيف ومهذب  
وكأنه يتولي شيئًا في العلاقات العامة لفندق أو وزارة.

كان يعرف أنه من المستحيل أن يحصل علي معلومات  
منهما فإذا كانا يعرفان فإنهما لن يقولوا، وفي الأغلب فهما لا  
يعرفان، مجرد حارسين يستمعان للتعليمات ويتبعان الأوامر،  
آخر ناس في الدنيا يمكن أن يوافق علي أن يراهم هؤلاء الذين  
يراهم مرتين منتظمين في الأسبوع، حيث يعطي محاضراته

في كلية الشرطة. عندما طلبوا منه أن يضيف إلي عمله بكلية الحقوق أن يدرس بشكل منتظم مادته في كلية الشرطة، انقبض واغتم، لكن الخانع داخله حسم الأمر لصالح مزيد من الخنوع وفوافق، واليوم حين كان ينتهي من درسه أمام مئات من طلاب الشرطة بزيهم البوليسي ورءوسهم الحليقة وعقولهم الحليقة وفي اللحظة التي كان يدرك أن محاضراته وأفكاره سوف تضيع تماما من رءوسهم أمام أوامر وتعليمات رؤسائهم، وأن ما يعلمه لهم من قانون واحترامه وقواعده ومواده وروحه لا مكان له في صحراء قلوبهم أمام العنف والقسوة والشراسة والتهاوي الأخلاقي الذي سوف يتلبسهم بمجرد أن يلبسوا نجمة الشرطة علي أكتافهم.

وفي هذه اللحظة دخل إلي المحاضرة هذان الضابطان، وانتظرا لما فرغ من ختام محاضراته، وتمشيا معه في الممر وهما يلقيان عليه ما تم تسجيله في صدرهما من صوت.

- سيادة الوزير يريد لقاءك حالا في مكتبه.

وكان يعرف أن «حالا» هذه معناها أن يحمله لو رفض في قفص ويذهب به إلي الوزير، لم يكن في نيته أن يتملص أو يرفض (متي تملص من شيء أو رفض) فركب معهما ومضي إلي البناية المهيبة الدائرية الصفراء حيث يرهبها الناس، ويخشأها الأبرياء قبل المذنبين، ويعشأها الأبرياء قبل المذنبين. سلمه الضابطان لضابط آخر في مدخل البناية - دكتور يوسف

يا أفندم - صعد معه الضابط الجديد إلي مصعد، انفتح فسلمه إلي ضابط آخر.

- دكتور يوسف يا أفندم.

صافحه الضابط الآخر ومشى معه في ممر طويل وهو يقول كلاما مقصوداً منه ملء الوقت فانتسع الوقت أكثر ملأ. نزلا إلي سلالم صغيرة في زاوية الممر، وانفتح باب يؤدي إلي صالة كبيرة تؤدي إلي باب له جهامة فخيمة انفتح فسلمه الضابط إلي ضابط آخر.

- دكتور يوسف يا أفندم.

أفندم.. كان يبدو «أفندم» فعلا، قادني بابتسامة وترحيب إلي باب انفتح بعد أن طرقه ودخل بي علي مكتب الوزير الذي كان بعيدا في نهاية الغرفة المتسعة الفسيحة التي تحتوي علي صالون ومائدة اجتماعات ثم مكتب الوزير الذي يحتل نصف عرض الغرفة تقريبا، وقف الآن لتحيته وقال:

- دكتور يوسف أهلا أهلا.

كان في انتظارها عند الباب حين رفعت قدمها لتضعها في الحذاء الذي كسرت السكرتيرة كعبه، خرج فرأى المشهد فضحك وهو يرتدي رابطة العنق علي القميص الأبيض بالبنطلون الرصاصي الواسع.

- خير يا دكتورة ريتا.. هل هذا استعراض لأحدث الأحذية النسائية.

ضحكت رغما عن حرجها.  
- الصناعة الأمريكية مهددة بالضياح يا سيادة المستشار.  
صافحها وهو يفسح لها بالدخول إلي مكتبه وقال:  
- ألن تكفي عن الهجوم علي الرأسمالية يا دكتورة.. إنك  
من ديناصورات اليسار الأمريكي.  
ردت بجلاء:  
- أنا أفضل أن أكون ديناصورا في متحف على أن أكون  
ثعبانا في مكتب بالبيت الأبيض.  
قهقه مجاملا لها أو متحاملا علي نفسه.  
- هذا ما قلته للرئيس.. إن دكتورة ريتا قطعة شرسة لن  
نسلم من خريشاتها.  
- القطعة تخرش من يحاول أن يؤذيها.  
لاحقها.  
- ومن يحاول أن يداعبها أيضا.  
في المساحة بين الجد والهزل قالت:  
- أهو لقاء غزل؟  
قهقه مرة أخرى هذه المرة أمينا مع طبيعته.  
- وهل يجرو أحد علي مغازلة دكتورة ريتا.. إنني لست  
علي هذه الدرجة من الطموح.  
ثم وضع حدا للثرثرة ودخل إلي الجد مباشرة.

- لقد وقع اختيار الرئيس عليك لتمثيل أمريكا في لجنة  
محايدة تتولي التحقيق في جريمة اغتيال رئيس جمهورية  
بالشرق الأوسط.  
ثم بدأ يحكي لها.  
جلس أمام الوزير وهو يحاول أن يتواضع إلي درجة لا  
تواضع بعدها.  
عاش عمره يسير جنب الحائط حتي زهق الحائط فتحرك  
ودخل هو فيه.  
قال الوزير في إحساس بالمسؤولية مبالغ فيه:  
- منذ فترة ونحن نتابع نشاطك يا دكتور يوسف.  
بهت يوسف وسارع مربوكا يجيب:  
- أنا عمري ما كان لي نشاط سياسي أبدا.  
ارتبك الوزير بدوره.  
- أنا لم أقصد النشاط السياسي.. أنا أقصد النشاط العلمي.  
كان الوزير يلعن المهمة في سره ويسأل نفسه إيه بقي  
الخبطة دي لكنه قال للدكتور يوسف:  
- دكتور يوسف.. ألا تفكر أن تكون عميدا لكلية الحقوق؟.  
- لأ.. لا أفكر.. لا أريد أي منصب في الحقيقة.  
- لماذا؟  
- أنا راهب علم.. كفاية علي التدريس في الجامعة وكلية  
الشرطة والجامعات العالمية ومؤتمرات القانون والإشراف علي

رسائل الدكتوراه والماجستير.. إن هذه هي مهمة العالم الحقيقي.

دخن سيجارا وأخرج دوائر غليظة من الدخان وهو يسأله:  
- ألا تفكر في خدمة بلدك.

- استغفره السؤال لكنه طوي إحساسه بجهل الوزير تحت جلده وقال:

- أليس العلم خدمة لبلدي.

- أحس الوزير بغياؤه فأكد:

- طبعاً.. طبعاً.. أنا أعرف أنك رجل وطني يا دكتور يوسف.

كان دكتور يوسف يريد أن يقول له إنه ليس في حاجة إلى شهادة منه بالوطنية لكنه لم يواجه مسئولاً من قبل حتي رئيسه في القسم يتحاشاه.. فلم يرد الآن لذا سكت وتمتم بعدها.

- شكراً.. شكراً.

رسم علامات الأهمية على علامات استفهام سؤاله.

- دكتور يوسف.. ما رأيك في خطوات انتقال السلطة الآن

بعد وفاة السيد الرئيس.

- الله يرحمه.

- الله يرحمه ويرحمنا جميعاً.. أكنت تحبه؟

رد دكتور يوسف مرهقاً حقاً.

- أنا لم أجب على السؤال الأول حتى ألحق أن أجيب على

السؤال الثاني.

- صحيح.. ما رأيك في انتقال السلطة سلمياً؟

- شيء جميل.

- تفكر كده.

- الحقيقة....

لكن دكتور يوسف توقف على أن يكمل الحقيقة.. كان يريد أن يقول في الحقيقة إن انتقال السلطة سلمياً هو الشيء الطبيعي لكن ليس هناك أي ضمان لانتقال السلطة مدنياً وسلمياً في دول العالم الثالث.. وأنه يرى تحت السطح صراعاً بين ديدان السلطة، ثم في الحقيقة أن انتقال السلطة إلى وزير الحرب أمر عسكري تماماً ليس فيه انتقال سلمى أو مدنى أساساً.

لكن - بطبيعة الحال وبطبيعة دكتور يوسف - لم يقل أيأ مما أحس به، كفى أن يقلق من مجرد أنه أحس به.. ثم صمت. فهم الوزير أن ثمة شيئاً في داخل هذا الرجل، فسأله بشكل مباشر.

- هل كنت تحب الرئيس!

رد في سرعة:

- ولماذا أكرهه.

- تحبه.

- الحب الكراهية مشاعر يشعر بها العشاق وليس العلماء.

قرر أن يرمى وزير الداخلية الآن بالسر في وجه دكتور

يوسف.

- شوف يا دكتور - لقد اخترناك كى تمثل بلادنا فى لجنة مشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية للتحقيق فى جريمة اغتيال رئيس البلاد.

تسمر تماماً.. بهت وصمت وسكت ثم صار على مهل يحاول ان يمضغ كل كلمة قالها وزير الداخلية قبل أن يبلعها.. قبل أن يعيها.

لكن الوزير بدأ يحكى له.

فتح الضابط الباب بدورة مفتاح ثلاث مرات ثم التفت لهما وقال:

- إلي هنا انتهت مهمتي.. عندما تنتهيان اضغطا علي رقم ١١٢ في قرص التليفون سوف أعود لاصطحابكما. ومضي بمنتهي الأدب وبمنتهي البرود وهو يتحرك مبتعدا. قالت له ريتا بعامية أفضل سلامة من عاميته: - تسلم إيدك.

لم يلتفت الضابط لامرأة تحمل وجه خواجية وترتدي جلبابا نسائيا تنطق بعامية غامضة المصدر، ربما أصيب بالصمم كما لقنه رؤساؤه وهم يطلبون منه أداء هذه المهمة، الوصول بشخص اسمه يوسف يصحب سيدة إلي غرفة نوم الرئيس ويتركها وينصرف حتي يأذنا له بالعودة.. قبل ذلك وبعده.. أنت أصم.

أدارت ريتا المقبض الذهبي للباب الخشبي الذي لا تبذل جهدا لمعرفة أنه تكلف كلفة أثاث شقة متوسطة بالكامل.. مدت قدميها ودخلت ووراءها يوسف برهبة ابن البلد الذي لم يكن



يفكر أبدا أنه سوف يدخل غرفة نوم أحد رؤسائه، بل ربما ظن - كأهله في قري هذا البلد - أن رئيسهم لا ينام بعد أن تأكدوا أنه ربما لا يموت.

صحيح أنه ليس في مقدرة سيدة مثل ريتا أو غيرها من الأمريكيات أن يدخلن غرفة نوم الرئيس الأمريكي - إلا إذا كان غرض كليهما ليس مناقشة سياسية - إلا أنه يمكنها أن تشاهد غرف نوم الرؤساء السابقين أو اللاحقين، يمكن أن تدخل الي البيت الأبيض وتري كيف يعيش رئيسها، لكن القدر يكتب عليه الآن أن يري كيف يموت رئيسه.

أنار الغرفة واكتشفا معا أن الإضاءة الكاملة لكل زوايا الغرفة - لنسمها الجناح أدق - تحتاج ساعة كاملة من اللف والبحث عن أضرار النور أو عن فهم تقنيات الريموت كنترول المسئول عن كل هذه المصاييح.

التفتت له ريتا.

- غرفة نوم رئيسكم أكثر فخامة من غرف نجوم هوليوود.

انسحب يوسف من لسانه وقال:

- طبعاً.. إن تمثيل رؤسائنا أكثر إحكاما من نجوم

هوليوود.

التفتت له مستغربة.

- ما هذه الشجاعة المفاجئة.. إنني أصحبك وأنت صامت كل هذا الوقت وتعاملني كأنني مخبر أرسلته

حكومتكم للتجسس عليك أو الإيقاع بك في أي مصيبة أثناء هذا التحقيق.

لم يتكلم.. سكت.. اكتفي بتأمل ملامحها التي انتفتحت من الحماس والغضب.. أضافت هي:

- اسمع.. سياسة الصمت التي تنتهجها لن تنفع معي.. أنا لا أتحمل الهدوء البارد.. ثم لاحظ نحن نحقق في اغتيال رئيسك لسنا مساعدين لشرلوك هولمز في لغز هزلي.

تجاهلها إلي الحد الذي يمكن أن تعتبره حرق دمها الحامي.. عرف أنها هستيرية الحماس والانفعال عندما رآها لأول مرة في المطار، اتصلوا به وأخبروه بأن سيدة تحمل اسم ريتا جيفرسون مكربي سوف تحضر مساء علي طائرة أقلتها من نيويورك، وأنها هي التي ستشارك معه في اللجنة السرية للتحقيق، كانت التعليمات واضحة - وتأكد أنها وصلت أيضا إلي ريتا.. أي مكان أو شخص تريدان اتصالا برقم تليفون معين سوف يرد عليكما ويجري اللازم، وفيما عدا اللقاءات الرسمية والأشخاص الذين ستحققون معهم لا أحد يعرف عنكما شيئا تصرفا كأنكما عاشقان في جولة سياحية.

أول ما عرف أنها سيدة.. انقبض واكتأب.. وسري في سره «هيه الحكاية ناقصة نسوان كمان».. كان يشعر أن المسألة كلها فخ للإيقاع به لتوريطه في كارثة، وكان متأكدا أن دولته، وحتى أمريكا - لا تريد أن تعرف أكثر مما تعرف وأنها تريد لهذا التحقيق نتيجة محددة وإلا لماذا تستعين الدولتان بهواة

من سلك التدريس الجامعي كي يحلوا لغزا عصيا ومرعبا مثل اغتيال الرئيس في غرفة نومه.. أفهمه وزير الداخلية أن كل الجهات والأجهزة أجرت وتجري تحقيقاتها، وإذا أراد أن يطلعا علي أي شيء فهو تحت أمرهما.. لكن النتيجة التي سوف تعتمد أمام المحاكم - إن وجدت نتيجة أو وجدت محاكم- هي ما وصلت إليه اللجنة المستقلة المشتركة.

لم يستنزف نفسه في توقع شكل لها. فقط انغرس في ورطته دونما حماس، هناك عشرات النساء القاديات علي الطائرة، كل وصلن، وترك الموضوع كله للصدفة حتي اقتربت منه سيدة شابة (فيما بعد عرف أن عمرها أربعون عاما) نحيفة وبيضاء، وذات وجه صابح غير مكدود وغير مجعد، ضحوة وعصبية حتي الهوس، شعرها ملموم للخلف دون بذل أي جهد في تسريحه، أسود لا يخلو من خشونة، نظارتها تشي أنها تكره العدسات اللاصقة وعبئها، تريد فقط أن ترتدي النظارة أو ترميها جنبها علي السرير دون حاجة للاستعدادات والتجهيزات الطبية المعقدة للعدسات، صدر أربعيني وأحمر شفاه خفيف وكفان تحملان صفات الجنسين من النعومة والخشونة، العظام البارزة، أو اللحم الملفوف بلا خواتم أو طلاء أظافر. لم تحمل غير حقيبة صغيرة علي كتفها.. قالت له:

- دكتور يوسف رضوان.

هز رأسه مندهشا أنها هي التي تعرفت عليه وليس هو. صافحته بحرارة وعرفت نفسها.

- دكتورة ريتا جيفرسون مكربي.

كانت تتكلم لغة عربية طليقة، فأراد أن يجاملها عندما ركبا سيارته:

- اللغة العربية التي تتكلمين بها جيدة جدا وفصيحة للغاية.. أين تعلمتها؟  
ابتسمت.

- غريبة.. الأجهزة المحلية لم تعطك أي بيانات عني.  
ثم أخرجت ملفا كرتونيا أخضر عليه رسم البيت الأبيض وفتحته كانت صورة فوتوغرافية له وثلاث صفحات بخط كبير من الكمبيوتر.

- لقد قدموا لي ملفاً عنك من المؤكد أنه غير كامل، لكن كان كان يكفي أن أعرف أنك لست حكومياً ومن ثم فوجئت بأن الحكومة لديكم قد احترمت اتفاقها وجاءت بشخص مستقل أو بلا تاريخ سياسي كما يقول التقرير.  
حاول أن يخفي دهشته لكنها ضحكت.

- لا تندهش.. ليسوا عابرة لدينا إلي هذه الدرجة، إن الحكومة لديكم أمدتهم بمعلومات وهم أضافوا عليها من إحدي موسوعات القانون.. إنك أستاذ حقوق شهير يا دكتور.

غطس في إحساسه بالورطة.. حتي قطعت هي الصمت «طول الوقت تتحدث بحماس وانطلاق كأنها في رحلة إلي الآثار».

- أنا جعانة.

أجابها وهو يضع سدوداً وحدوداً أمام بساطتها واقتحامها.  
- سوف نصل إلي الفندق بعد دقائق.  
شخطت فيه- فندق إيه.. أنا لا أكل أكل الفنادق، يمكن أن  
ترميني في أي شارع في وسط البلد وأنا سوف أتصرف.  
كان عليه أن يتصرف بشهامة فقال:

- وهل هذا ممكن.. طبعاً سوف أصحبك إلي مطعم قريب.  
في صباح اليوم التالي حين نزلت من غرفتها بالفندق رآها  
ترتدي جلباباً شعبياً من زي تراث هذا البلد، مشغولات من  
الخيوط الذهبية علي الأكتاف وعند أساور الأكمام، ورداء  
فضفاض وألوان زراعية ثم مشغولات فضية في سلسلة معلقة  
علي صدرها.

- متي أحضرت هذه الأشياء.. لقد تركتك ليلاً تذهبين للنود  
في غرفتك.  
قالت له:

- كويس جداً أنني أثرت فضولك، لقد ذهبت إلي محل  
جلاليب في منطقة قريبة وصفتها لي عاملة في الفندق، ذهب  
معاً في الحقيقة واتعشيت مرة أخرى في الشارع علي عربان  
طعام فوق الأرصفة، تيقن ساعتها أنها مجنونة ولا بد أن يأمر  
حماقتها.

عندما ركبوا السيارة في اتجاه القصر الرئاسي، قالت له  
وهي تغلق جهاز الكمبيوتر الخاص بها:

- أنا لا أفهم كيف تكون أستاذ حقوق ولا تتطرق بكلمة كل  
هذه السنين ضد ما يحدث في بلدك وما يفعله رئيس مجنون  
وحكومة فاسدة، كيف تصبر علي هذا السكوت، أفهم أن تكون  
منافقا ولكن أنت لست كذلك كما أعتقد، أفهم أنك تريد مجداً أو  
منصباً أو نفوذاً، لكنك يا مولاي كما خلقتني، حتي أنك لاتعمل  
بالمحاماة، إذن لماذا عشت خائفاً هكذا؟ لماذا نام ضميرك؟.. يا  
راجل ولا كلمة للطلبة في محاضراتك، ولا حرف في أي ندوة  
أو مؤتمر.. إيه اتخرست.. ولا اتعميت قبل ما تتخرس؟.  
قالت كل هذه الكلمات مندفعة ومتوترة وقرفانة منه.. ولزم  
هو الصمت كأنه القدر.

حاولت أن تهدأ الآن، جلست علي طرف سرير الرئيس،  
أحسيت بمجرد ما وضعت مؤخرتها أنها تنزلق في ريش نعام  
(تراهن أن أحداً ممن عرفتهم في حياتها لا يستطيع أن يصف  
ريش النعام).. حاولت أن تجره.. متراً من الود.  
- دكتور.. هل يمكن أن تصف لي إحساس النوم علي  
ريش نعام.

فوجيء بتحولها، لكنه أدرك أنها مجنونة فتعامل مع  
تحولاتها بهدوء.

- الحقيقة قرأت عنه في الكتب، سمعت عنه في الأمثال  
الشعبية كثيراً عندنا، لكن أنا لا أعرف حتي النعام بدقة.  
جلجلت بضحكاتها.

- يا دكتور أنت راس نعامة كبير.

آخر. اقترب من لوحة عبد الهادي الجزار طويلاً حتي شعرت أنه ينقشها في عينيه، لكنه مد يده إلي تحت اللوحة تماماً حيث تعلق جراب نحاسي مطعم بالأحجار الكريمة في تحفة ماهرة الصناعة.

أمسك بالجراب المعلق ثم سألها وهو يعطيها ظهره.  
- ألم يقتل الرئيس بخنجر؟

مس السؤال مركز الجنون في مخها، صاحت:  
- نعم.

التفت لها.

- هل لديك ورقة بمواصفاته أو صورة فوتوغرافية له؟  
صرخت فيه مستثارة تماماً:

- لا.. الأوراق سوف تصل ليلاً إلي الفندق، لكن يمكن أن نطلب ما نريده.

قال في هدوء من لا يعنيه الأمر:

- عموماً لانريد أن نتسرع في الاستنتاج.. ممكن ألا يكون الخنجر المفقود هو الخنجر المستخدم في عملية الاغتيال؟  
أخذت تتكلم وهي تدون في مفكرتها بالإنجليزية وبحروف ضخمة تأكل الصفحة.

- لو لم يكن هذا الخنجر هو المستخدم في عملية الاغتيال، فأين الخنجر المعلق علي الحائط؟.. مستحيل يكون الرئيس أخذ هدية عبارة عن جراب فقط، دا يبقى رئيس هزق، وهل معقولة يكون الخنجر اتسرق وهو لايعرف صعب جداً.. إلا إذا.

أحس أنها أهانته - علي نحو عدائي غامض الدافع - وأحسب أنها جرحته فلزمت صمت المذنبين مكسوري العين. تجاوز دكتور يوسف النصل الذي تشهره في وجهه منذ النقايا وقال:

- هل غرفة النوم علي حالها منذ جري الحادث أم غيروا فيها ترتيب أشياء أو تعديل أثاث.

انقضت من السرير برشاقة.

- ملاحظة رائعة.

ثم أضافت وهي تجول فاحصة بعيونها المكان، السرير، الدولاب، الأنستريه الصغير، والتسريحة الملكية، السجاجيد، الطهرانية، لوحات الحوائط، سرقتها لوحة في زاوية ما، اقتربت ناحيتها وهي تتأوه.

- أووه.. محمود سعيد.. لوحة أصلية لمحمود سعيد.

هذه المرة نجحت في إثارة استغرابه، إلي هذه الدرجة تعرف فنانا مثل محمود سعيد، لكنه التفت ناحية لوحة أخرى.

- وهذه لاتقل عنها أهمية.. إنها أصلية لعبد الهادي الجزار.

ضربت علي صدرها بكفها.

- مستحيل رئيسكم كان يعرف مقدار أهمية هذا الفن.

قال وهو يدور حول نفسه:

- أظن أنهم أفهموه أنها حاجة غالية جداً وثمينة، لهد وضعها في حجرة نومه حتي يراها هو ولا يشاركه فيها أحد

أكمل فوراً.

- إلا إذا كان قد تمت سرقة بعد عملية الاغتيال، خصوصاً أنك تلاحظين أن الغرفة فعلاً مرتبة ونظيفة والسرير زى الفل، واضح أن المرتبة والوسائد والأغطية والملاءات المغطاة بالدم قد تم التحفظ عليها.

ردت في حماس:

- ثم أريد أن أعرف تاريخ إهداء هذا الخنجر ومن أي دولة؟ وهل مواصفاته موجودة في سجل الأشياء المهداة إلي الرئيس؟

جلس بلا تفكير علي مقعد، فنهزه إحساس الموت ورهب غرفة نوم الرئيس فقام واقفاً قائلاً لها:  
- حيلك.. حيلك.. أشك تماماً في وجود مثل هذه السجلات عندنا، إن الرئيس يهدي ما يشاء دون أن يسجله أحد، ويتلقى من الهدايا ما يشاء دون حتي أن يعرفها أحد..  
حاولت أن تداعبه فهتفت ضاحكة:

- طبعي يحصل في البلد كل ده طول ما النعام سارح فيه وخبطته في صدره، إنها تقفز الحواجز وتحطم الحدود علي نحو يستفزه، لم تجد هذه الخطبة في صدره إلا الدهشة. وتعاملت هي مع دعابتها اللفظية والبدنية علي أنها جرت مع صديق.. تنهدت وصرخت منفعلة وهي تتجه نحو الباب:  
- لا بد أن نقابل الآن مدير الرئاسة.

واقفها برأسه لكنه أوقفها بكفه.

- لحظة.. أليس من الأفضل أن تطلبي شرائط الفيديو المسجلة لحركة الأمن ليلتها في القصر؟.. أعرف أنه لا توجد في جناح الرئيس كاميرات، لكن سوف تستفيدين أكثر لو رأيت المناطق المحيطة بجناحه ليلتها.  
- يوسف أنت تتحدث لي كأنني المسئولة وحدي عن التحقيق.

بعد أقل من نهار معاً رمت لقبه وتعاملت باسمه.

- أظن أنك أنت الرئيسة؟

- لماذا؟

- أنت الخبيرة..

- لماذا تعتقد أنني الخبيرة وأنت الهاوي.. أمازلت تري أنني من المخابرات الأمريكية.. أم لمجرد أنني قادمة ممثلة للحكومة الأمريكية؟

لم يجب حيث اكتفي بالفرجة عليها - صرخت فيه:

- آه.. أنت جاي تطلع دين أمي.

قالتها كأنها خارجة توا من الحارة التي تقع خلف بيت عائلته، عادت تحاول أن تدلق ثلجاً علي سخونة كلماتها.

- اسمع يا يوسف.. لماذا لم أحاول أنا أن أصدر لك إحساساً باعتقادي أنك تعمل لحساب وزارة الداخلية، وأنت مجرد جاسوس مطلوب منه أن يعطلني عن الوصول إلي الحقيقة.

عندما سمع كلمة الحقيقة أدرك أنها تصدق المسرحية التي  
تلعب بطولتها، فحاول جاهدا أن يكون صريحا.  
- أظن أنهم أحضرونا لتنم أوراقا وتقفيل ملفات وليس  
للبحث عن الحقيقة. فضلا عن كارثة الوصول إليها.  
هزت رأسها بحركة عصبية كأنها توافقه، ثم تكلمت  
بسرعة كأنها تلاحقه:

- أشكرك علي ردك الصريح أخيراً، وعلي واقعتك أيضاً،  
لكن أنا مصممة إذا كانوا يريدون هذه اللجنة كوميدية أن ألقبها  
ميلودراما وتراجيديا عنيفة علي دماغهم.. كل ما أحتاجه أن  
تكون معي كما كنت اليوم بملاحظاتك الفذة وأرجو أن تغتر  
قليلاً، فأنا لا أصف ملاحظات كائن من كان، بأنها فذة سوي  
ملاحظاتي أنا فقط.  
ابتسم.. فأخافها استخفافه.

انتشر الحرس في كل مكان حول المقبرة، وضع قبر  
الرئيس فوق تبة صناعية مرتفعة أحاطوها بنجيل جاهز  
التركيب وزرعوا نخلات جلبوها من وزارة الزراعة علي  
عجل، كان الموت مفاجئاً، ولم يكن الرئيس يفكر أبداً في موته،  
فلم يأت علي ذكر إعداد مقبرة له، أو مكانها، أو شكلها أو أيا ما  
كانت تفاصيلها، وبطبيعة الحال لم يكن قد ترك أي تعليمات أو  
وصايا (حيث تكون تعليمات الحي في حياته تعليمات بينما  
تتحول في مماته وبعد وفاته إلي وصايا) حول شاهد القبر، ما  
الذي يكتبونه عليه، وهل هناك آيات خاصة من القرآن الكريم  
يريد أن توضع علي رخام شاهده، أم مقولة له أو لغيره يتمناها  
علامة علي حياته بعد مماته.. لهذا جاء كل شيء خاص  
بمقبرته إبداعاً واختراعاً، أراد أمين الرئاسة في البداية أن يقيم  
المقبرة في المساحات الشاسعة حول القصر الرئاسي، لكن  
وزير الداخلية رفض بحجة واضحة، أنه يريد الوصول بمواكب  
زوار المقبرة الرسميين في أقصر طريق وبأسرع وقت، وأن  
توضع مقبرة الرئيس علي بعد ٤٠ كيلو متراً من العاصمة

معناه أن يتحمل حراسة رئيس أجنبي داخل العاصمة ثم خارجها كل هذه المسافة كي يضع باقة علي قبر الرئيس، لم يقتنع أمين الرئاسة بهذه الحجة لكن الذي أقنعه كان مدير جهاز الأمن الوطني الذي رأي أن وضع مقبرة الرئيس السابق بجوار مقر الرئيس الحالي أمر يثير الضغائن والمشاكل، فاقتنع مدير الرئاسة، أمسك ثلاثتهم بخريطة حديثة للعاصمة وأخذوا ينتقلون بأصابعهم وأسنة أقلامهم علي ألوان الخريطة وأشكالها بحثا عن مكان، حتي صادف وزير الداخلية مساحة خالية خلف استاد كرة القدم الرئيسي في العاصمة، قال:

- من يملك هذه الأرض؟

رد أمين الرئاسة:

- لا أعرف بالضبط ربما وزارة الشباب

أوماً وزير الداخلية:

- يعني ابنه.

رد أمين الرئاسة:

- أنت تتحدث كأن ابنه سوف يستمر وزيرا للشباب إلي

الأبد.

حرك وزير الداخلية رأسه علامة للنفي:

- حد ضامن إلي متي يعيش وإلي متي يعيش كرسيه.. ما أقصده أنه لن يثير الآن مشاكل حول الأرض، إنها مسورة جاهزة، من الليلة نبدأ العمل فيها لتنتهي بعد ٤٨ ساعة، وقبل الجنازة حتي ولو بساعات.

قال مدير الجهاز:

- هل تطلب من وزارة الحرب استخدام معداتها من أجل بناء المقبرة فورا.

ضحك أمين الرئاسة رغم أن الاجتماع كله حول دفن جثة.

- ما أعز هذا الطلب علي قلب وزير الحرب.

جاوبه كلاهما الابتسام.. لكن مدير الجهاز حاول أن يسد ثغرة بدت له.

- لكن المقبرة في حاجة إلي رسم هندسي.

عاجله وزير الداخلية:

- رسم هندسي إيه بس.. دا أي حانوتي ولا تربى في البلد يعملها في دقيقة.. حفرة وفوقها متر ولا اثنان أسمنت فوق الأرض متغطي بقطعة جرانيت كبيرة وشاهد رخام مكتوب عليه الاسم والتاريخ.. وشوية زهور علي نجيل جاهز علي كام نخلة من وزارة الزراعة بقت مقبرة رئيس.

ولم تمنع هذه الفوضى أن تكون المقبرة علي قدر من الجمال والراحة فعلا، فقط تم هدم أحد الأسوار المحيطة بالساحة حتي تصبح مفتوحة علي الشارع الرئيسي وكان العمال يشتغلون ليلا - بعد الدفن - في نصب احتفالي كبير في مدخل الساحة بناء علي رغبة ابن الرئيس، الذي حضر الآن مع رئيس وزراء اليابان الذي كان قد تخلف عن حضور الجنازة ونظرا لأهمية البلاد كمستهلك ضخم للمنتجات اليابانية أثر أن يجاملها بحضوره ولو متأخرا عن الجنازة ليقوم بواجب العزاء بنفسه

وكان علي رأس الوفد المستقبل له أمام الجنازة وزير الحرب وكان في صحبته المسئول الياباني ورئيس الوزراء أيضا الذي دخل بهيئة متزنة ومبتسمة علي غير ظهوره الباكي يوم الجنازة، أخذ ابن الرئيس في حضنه وكأنهما لم يتبدلا منذ وفاة الرئيس إطلاق النار كلاً في صدر الآخر.

انتشر الحرس حول المقبرة التي بنيت فوق تبة من الرمل صنعتها المحاريت الحديثة ورافعات وزارة الحرب، وعند المسافات الفاصلة بين النخيل، وحول أسوار المقبرة، وفوق أسطح الاستاد الوطني الذي يكشف المقبرة من فوق حيث يراها من يجلس علي أعلي مدرجات الدرجة الثالثة حين ينظر خلفه، وقف رئيس الوزراء الياباني وقد انطلقت فرقة الموسيقي العسكرية بزيها الأبيض في الأسود وأبواقها النحاسية وطبولها باعثة الرهبة في عزف سلام للموتي، وضع رئيس الوزراء الياباني إكليل الزهور يشاركه في حمله ضابطان من حرس الشرف، وبينما قرأ مسئولو البلاد الفاتحة مهموسة علي روح الرئيس الذي لا تزال جثته دافئة في قبره، كان المسئول الياباني صارم الملامح مطرقاً بنظراته إلي الأرض، يتمتم شيئاً لعله تعاويز من ثقافته اليابانية، انتهى العزف والتف المسئولون حول رئيس الوزراء الياباني الذي عاد فصافحهم جميعاً، وصاحبه ابن الرئيس ووزير الحرب حتي باب سيارته السوداء التي ساقه مع رئيس وزراء البلاد إلي المطار حيث يقوم بمراسيم توديعه الرسمي.

حين مضت السيارة، أخذ وزير الحرب ذراع ابن الرئيس تحت إبطه وضمه إليه ووفقاً فتتبت المشهد تماماً من حولهما، الضباط والحرس والفرقة الموسيقية العسكرية وبقايا الوفد الياباني، وعدد متناثر من صغار الموظفين والحرس الشخصي التابع لكل مسئول كبير موجود من مسئولي البلاد.. بإدره وزير الحرب:

- كيف حالك الآن يا ابني؟

رد الآخر في لهجة من يعرف هذا الحوار:

- نحمد الله.. الخسارة كبيرة لكن هذا قضاء الله.

- صحيح.. ربنا يعوض هذا البلد خيراً عن هذا الفقيد

العظيم.

بالمناسبة أنا أعذر أن المقبرة لا تليق بفقيدنا الراحل لكن ظروف الوقت وعدم الاستعداد لمثل هذا الخبر كانت وراء تواضع المقبرة.

- لا تقل ذلك.. إنها مقبرة عظيمة.. ثم ليس المهم أن تليق

المقبرة بالفقيد، المهم أن يليق خليفته به.

لم يطمئن وزير الحرب لللهجة، صحيح أن قواته في كل أرجاء البلد، وحضوره مائل للجميع رادعاً عن أن يدع أي منهم خياله يسرح به إلا أنه لم يرتح للهجة.. فيها غصة ما، فيها إيحاء، إيماء، تمنى أن يضبط أعصابه عن الرد عليه بما تمليه عليه رتبته لكنه قال:

- وما رأيك في خليفته يا ابني؟



تعتمد أن يقول «ابني» بأداء يوحى بالتدليل كأنه يعامل طفلاً.

ابن الرئيس أسرع في إجابته يغطيها بابتسامة وظلال دمة.

- والله لو كان الله قد حرمني من رئيسي ووالدي في نفس الوقت، فإنه يعوضني بك عن الوالد قبل الرئيس.

ارتجف قلب وزير الحرب حتي كاد يبكي مصدقاً لما ألقاه ابن الرئيس بين يديه فرد بأحسن منها.

- أما الوالد فلدينا ما يعوضه من حب وحنان ورعاية لك.  
أما الرئيس فلا نملك حكمته ولا رؤيته ولا قدرته، ونسأل الله أن يوفقنا إلي الاقتداء به.

وغمرت المشاعر المصنوعة طبيعة الاثنين فاحتضنا أمام الجمع مما جعل البلد كله يفهم أن وزير الحرب قد ضمن رئاسة بلا منغصات، دباباته في الشوارع والأمريكان لم يتذمروا من اسمه ومسئولو البلد في خدمته وابن الرئيس أعلن ببيعته.

كان هذا بالضبط ما يدور في بال وزير الحرب وهو يتجه نحو سيارته يتقدمه حرسه ويحيطه مرعوسوه من الضباط، انفتح باب السيارة مع نفخ بوق الفرقة الموسيقية العسكرية التي بدأت في لحن حماسي لاهب حين دخل وزير الحرب إلي مقعده وارتنن إلي مسنده وزفر زفرة راحة لكن أحد ضباطه سلم إليه مظروفاً أصفر وقال:

- هذا الملف جاء بشكل عاجل لسيادتكم بالبريد السريع من بلجيكا، ورأينا لغرابته أن نقدمه لسيادتكم بسرعة بعد التأكد من أمانه وخلوه من أي مفرقات.

أمسك وزير الحرب المظروف وحضنه بسرعة وفتحه بلهفة فسقطت منه صور أشعة قلبه وصور شهاداته الطبية ومعها قطعة ورق صغيرة فرت من المظروف إلي أرض السيارة، فانحنى يحاول التقاطها فنهج ولهث وانفطر عرقه فأسرع ضابط حراسته بالتقاط الورقة من الأرض وهو يتساءل:  
- خير يا أفندم حاسس بحاجة؟

نفي برأسه وأشار بيده أن يسيروا بالسيارة، أعطوا التعليمات للسائق فانطلق، حين كان وزير الحرب يقرأ قطعة الورق الصغيرة المكتوبة بالإنجليزية بخط الكمبيوتر وبلا توقيع.

- هذه صور من محتويات ملفك الطبي.. نتمني لك السلامة.

أيقظته من عز النوم وأعزها راحة، في تمام الثالثة والنصف صباحا رن جرس التليفون فاقتحم منامه وهز سكونه، مد يده إلي السماعة وهو يعرف - في كل الأحوال - أن رنة تليفون في هذا التوقيت، في هذه الأيام السوداء تعني مصيبة أخرى ترتمي علي دماغه.

كانت هي علي الطرف الآخر، فعرف أنها مصيبة أشد مما توقع.

- أيوه يا دكتورة.

- أنت صاحي.

- اتبهبت صحيت.. خير؟

- انزل ضروري إلي لوبي الفندق أو آتي لك في غرفتك.

تنبه تماما.

- لا في عرضك أنا نازل.. لكن ما هي الضرورة في

إتمام اللقاء الآن.. أمامنا أربع ساعات والبلد كله يصحو، نتكلم علي الإفطار.

بصاف استعماري.

- لآ.. انزل حالا.

وفي استسلام سكان أرض محتلة.

- حاضر.

شدته تقريبا من رابطة عنقه نحوها في المائدة حينما نزل  
ووجدما ضاربة نصف علبة سجائر ودخانا يشتعل في صدرها  
وكأن إنذار حريق الفندق سوف يدق حالا، قالت:  
- كيف جاءك نوم بعد لقاء مدير الرئاسة؟

رد هازلا:

- جاعني النوم بعد اللقاء لأنه زارني قبله وكان كابسا علي  
نفسي طول الحوار مع مدير الرئاسة حتي أنني غفوت فاتح  
العينين أمامه.

اعتبرت ما يقوله سخفا مقصوداً منه استفزازها فواصلت  
دون أن تقف عند أي نقطة في حروفه.

- ألم يقل لنا الآتي:

ثم أفردت ورقة كانت مطوية في جيب جلبابها وواصلت.

- إن أحدا لم يلتفت لكون الخنجر الموجود في جسد  
الرئيس هو نفسه الخنجر الهدية المعلق علي الحائط ومن ثم لم  
يلتفت أحد لكونه كان مختفيا أول ما دخلوا أم لا.

كان الجرسون قد جاء له بفنجان قهوة سادة وتبادلا  
النظرات التي كانت تعني - أمام حماسها وصراخها - حوارا

سريا بينه وبين الجرسون معناه.

- كان الله في عونك يا بيه.

هذه هي نظرة الجرسون.

- شفت يا عم آخر المشي وراء النسوان.

هذه هي نظرة دكتور يوسف.

- يا عم قوم اضربها قلمين ولا ارميها تحتك علي السرير.

هذه هي نظرات الجرسون الأخيرة وهو يصب القهوة، رفع

دكتور يوسف رأسه إليه قال يعني يقول له شكرا وقال بنظراته:

- أضربها.. يا عم انتيل.. هذه تضرب عشرة مثلي

وسرير إيه- لا أحد يسكت هذا النوع المزعج من النساء حتي

في السرير.

بعدما مشي الجرسون، ضربته دكتورة ريتا علي كفه

بغيط.

- خليك معايا.. قاعد تبص علي الجرسون كأنه زميلك في

الجامعة ومتكرر.

كان يبدو أنه لا أحد في الدنيا قادر علي أن يجعله يتخلي

عن شراء دماغه.. قال لها:

- أنا معك بدليل أنني ضد كلامك.

- يعني إيه؟

- لازم تكفري أن مدير الرئاسة لم يكن من أوائل الذين

دخلوا غرفة نوم الرئيس وليس آخر واحد دخلها.

- صحيح.. لكن هذه هي نفس أقوال الجميع.. جميع من

دخل إلي الغرفة.

أجابها بهدوء قائل:

- ومن قال إن كل ما يتفق الجميع علي قوله صحيح.  
صرخت متلهلة.

- يا ولد- ما هذا التمرد.

وأكملت دون أن تترك له فرصة لاستيعاب تصرفها.

- المؤكد أن الخنجر ليس موجودا في غرفة الرئيس، ثم إن الخنجر المتحفظ عليه موجود في مبني الأمن الوطني، ثم إنه لا توجد أي مواصفات نعرف بها أن هذا الخنجر الموجود في أحرار القضية هو نفسه الخنجر الذي كان في غرفة الرئيس.

- لا أفهم.. اشرح مع مراعاة أنني نمت ساعتين فقط.

- سأشرح مع مراعاة أنني لم أنم حتي هاتين الساعتين..  
لو جاءوا الآن وقالوا هذا هو الخنجر الذي قتل به الرئيس..  
وهو نفسه الخنجر الذي كان موجودا في غرفته.. ليس أمامنا إلا أن نصدقهم لأن البية رئيسك المقتول لم يكن يسجل له أحد هداياه.

قال كأنه أمسك بزمامة رقبتها.

- آه.. شفت.. ألم يكن من الأفضل أن ننتظر ونري مسؤولي جهاز الأمن الوطني ثم نقعد نثرثر في الأدلة والأسئلة؟  
- شفت أنك لست ذكيا بما فيه الكفاية.. لقد رأيت مسئول الأمن الوطني فعلا.

اندعش دكتور يوسف وأحس أن أحدا يقوده بخيط من فوق  
مسرح العرائس.

- متي ؟ ولماذا بمفردك؟

كانت تعرف أن هذا سوف يطير النوم من عينيه، فصممت  
أن تصطاد النوم وهو يطير من عينيه فترميه بالمفاجأة.

- هنا في الفندق، ولدينا موعد معه بعد عشر دقائق من الآن.

قال إنه ذاهب كي يقضي أمرا سريعا وسيأتي إلينا في  
المقهى الليلي للفندق.  
ابتسم في خبث.

- ومن قال لك إن هذا الرجل هو رجل الأمن الوطني..  
وأنه سوف يفي بوعوده؟

أحسنت أنه انتصر عليها فلم تكن تملك ما تجيب به عليه،  
أنقذها أن رجل الأمن القومي كان جالسا الآن بينهما تقريبا، لم  
يلاحظا أنه جلس في المائدة المجاورة فاتحا جريدة أجنبية عن  
البلاد، ثم لف بمقعده دورة كاملة فكان ثالث المائدة مع دكتورة  
ريتا ودكتور يوسف.. وقال في أدب مبالغ فيه:  
- صباح الخير.

زالت قوتهما تماما أمام هذه الحركة فارتدت شجاعة  
دكتورة ريتا لها في عدوانية شديدة.

- صباح الزفت.. إنت لازم توقع قلبنا.

أدرك يوسف أنه الرجل المقصود فصمت حتي يفهم رأسه  
من رجله.

أضافت دكتورة ريتا دون أن تترك الضابط ينطق.

- وبعدين يا جدع أنت مش قلت لي إنك مندوب الأمن الوطني.. إيه صحيح الذي يثبت ذلك ولماذا لم تهدوا وتنتظروا حتي نأتي لكم في الجهاز.

أخذته المفاجأة فدق بأصابعه علي سطح المائدة وهو يقول:  
- لو سمحت اهدئي يا دكتورة.. لم نشأ حضوركما للجهاز لمزيد من السرية التي يبدو أنه ليس لها أي أهمية لديك.. أما ما يثبت أنني مندوب الأمن الوطني فهو الخنجر.

فتحت فمها دهشة.. بينما كان يوسف يتحاشي فضح مشاعره.

- بتقول إيه؟

- الخنجر.. أليس الخنجر هو محل سؤالكم مساء اليوم لمدير الرئاسة لقد اتصل بنا وطلب سرعة التعاون معكم وبأوامر من رئيسي كلفت بهذه المهمة أن أرد علي أي أسئلة لديكم فضلا عن تزويدكم بملف تحقيقاتنا كاملا.. لكن لدي سؤال أولي يا دكتورة هل ستطلبين أيضا ملف تحقيقات جهاز المخابرات المركزية الأمريكية في هذه القضية وهل سوف يحضره لك؟!

صرخت فيه:

- طبعاً.. بالجزمة القديمة.. همه بس عاملين عليكم خواجات ومهمين.. لكن أمام الصحافة والرأي العام والفضيحة العالمية سوف يخضعون لكل طلباتنا.  
رد عليها الضابط في أدب جم.

- أتعشم أن يكون تفاؤلك في محله.. أو تهديدك في قدراتك.

ثم أخرج ملفا من مقعد خلفه.

- هذا هو الملف.. أين الأسئلة؟

قررت أن تشرك أبا الهول الجالس جانبها، دكتور يوسف رضوان.

فقالت بشر حقيقي.

- اتفضل يا دكتور سفنكس.

دهش يوسف والضابط معا، فكتمت ضحكتها.

- أقصد يا دكتور يوسف.. أليس سفنكس هو أبو الهول

الصامت الذي لا يتكلم أبدا مثل حضرتك في حضور مسئولو بلدك.

تحنج يوسف ورمأها بنظرات كالشرر المنطفئ الذي لا يخيف، حيث إنه لا يشتعل وقال متمتما:

- كنا نتساءل هل هناك وسيلة للتطابق بين الخنجر الموجود في جثة الرئيس وبين الخنجر المهدي للرئيس من اليمن.

قال الضابط بسرعة:

- لأ.. لم تكن موجودة أي وسيلة حتي تنبهنا لملاحظاتكم

هذا المساء وبالصدفة كانت هناك صورة تم التقاطها لأحد زعماء اليمن وهو يهدي الرئيس هذا الخنجر.. وقد كبرنا اللقطة و المكان الذي يظهر فيه الخنجر بكل تفاصيله الممكنة.. وقد

وضعت هذه الصورة منذ دقائق في الملف.. كان سر تأخري هو الحصول علي تكبير الصورة من مندوب سوف يلحق بي في الفندق.

تدخلت ريتا وهي تنتعش بهذه الخطوة.

- طبيب بخصوص تقرير الطب الشرعي.  
- ماله.

- مالوش.. أقصد هل هو موجود؟

رفع الضابط كتفيه.

- طبعا.. في الملف!

سأل يوسف:

- من الذي كتب تقرير الطب الشرعي للرئيس؟

تأمل الضابط وجه دكتور يوسف قليلا ثم قال:

- هل يفرق من قام بالكشف علي الجثة وتشرحها؟

رد يوسف متراجعا ومترددا:

- أبدا.. هذا مجرد سؤال..

صرخت ريتا:

- لأ.. يفرق طبعا.. هل هو جهاز طب شرعي مستقل أم

تابع للجهاز؟

أجاب الضابط:

- لا يوجد هناك طب شرعي مستقل، في أي مكان في

العالم.. لابد أن يتبع جهة ما.

تعاليت عليه ريتا بوضوح لا لبس فيه.

- حضرتك لست ملما بالعالم كله كي تتحدث بهذه الثقة..  
ثم إنه ليس لنا دخل بالعالم الآن.. فالعالم لا يشهد كل يوم رئيسا يتم اغتياله في سرير غرفة نومه.. من قام بالتشريح؟  
قال الضابط في زهق ومرارة:

- لدواعي السرية الشديدة.. قام بالكشف الطبي طبيب  
تشريح يتعاون معنا وهو من كبار أطباء البلد في هذا المجال..  
وبالمناسبة لا يوجد لدينا أكثر من الأطباء في البلد كله، فمنهم  
ثلاثة أو أربعة كبار والباقي شبان بلا خبرة أو تجربة.  
قالت ريتا:

ولماذا لم تطلبوا من الأطباء الثلاثة إجراء الكشف معا  
وتقديم تقرير جماعي.  
استهزأ الضابط بالسؤال.

- وبالمرة كنا ندعو مؤتمرا صحفيا لمتابعة التشريح.

ردت ريتا بوقاحة رأت أن الضابط يستحقها.

- لا تستعجل علي المؤتمرات الصحفية.. فهي قادمة  
قادمة.

حاول يوسف أن يجعل هناك نهاية لهذا اليوم الأسود من  
أوله وخاصة أن ريحا شديدة صفراء وترابية بدأت تعصف  
خارج نوافذ الفندق مع أضواء الصباح الخجلة والهزيلة.

- بالمناسبة يا حضرة الضابط.. ما هو موقف الحرس  
الشخصي الذين كانوا في نوبة الحراسة ليلتها؟  
مقتضبا قال الضابط:

- تم احتجازهم و أخذ أقوالهم ومواجهتهم ببعض.. ولكن  
وزير الحرب أفرج عنهم وسيتم تنفيذ القرار بعد ساعة من  
الآن.

كان يريد أن يصعد لينام وكانت هي تريد أن يستمر معا  
لقراءة الملف، كان يوسف مرهقا ومعذبا باحتمالها فنمت كلماته  
عن روح الاستغناء.

- ياست هانم هوه فيه حد مسلطك علي.. ثم أنت فاهمة إيه  
قضية اغتيال رئيس سوف تجدين حلها في عشرة عشرين ورقة  
تسلمها لك جهة لا أحد يعرف مدي تورطها، ثم اغتيال رئيس  
ياست هانم يتحل لغزه في ثمان وأربعين ساعة ليه.. كانت  
سرقة فراخ من سطوح.. دا لو نشال خطف شنطة من ست  
علي رصيف في نيويورك احتمال يفضلوا يطاردوه عشر سنين  
علي مايلاقوه.. عايز أنا.. ثم أنا والله العظيم ثلاثة ما أنا مهتم  
بمن قتل رئيسي عارفه ليه - لأنه افرضي عرفت.. ماذا سأفعل  
له؟ ثم ليست المشكلة ماذا سنفعل بعد أن نعرف القاتل المشكلة،  
ماذا سيفعل القاتل بعد أن يعرف أننا عرفناه؟

ثم وقد لفظ روحه مع زهقه وإجهاده.  
- اطلعي اتهددي نامي.. ثم سنتكلم بعدها.

وعلي عكس تلك الثورة المائجة في صدرها، إلا أنها شعرت أن عنفها يخذلها، فأدركت أنها تريد أن تنام، فسكتت لم ترد علي ثورته المكدودة فقط ربتت علي كتفه وقالت:

- حاضر.. نستريح قليلا.

ضحك رغما عنه وقال:

- قليلا لأ.. نستريح علي قدر مانقدر.. إن العالم لا يعرف أن الرئيس تم قتله أساسا كي ينتظر أن يعرف من قتله؟ وأضاف وهو يصعد معها في المصعد وتتبدل الأرقام حمرة معلقة عن رقم كل طابق.

- ثم للمرة المليون ياستي الدكتورة.. هم أحضرونا كي لا نعرف وليس كي نعرف.

زعتت فيه حتي ردد المصعد صداها.

- لأ بقي هوه أنا عشان سكت لك تحت ح تعمل فيلسوف علي.. سوف نفك سر هذه القضية فقط كي نؤكد أن الشعوب ليست مغفلة.. وبكره.. وبكره إيه.. بعد ساعات سوف تتفرج ماذا سأفعل مع المخابرات الأمريكية سأأصل بواشنطن وسوف يرسلون تقاريرهم كاملة وحياتك حتي باب غرفتي.

الآن وقد وصلا باب غرفتها في الفندق وأخذت تبحث في حقيبتها عن الكارت الممغنط الذي يفتح الباب قال لها يوسف:

- دون أن تغضبني مني.. اسمعي كلامي وارميه البحر فيما يتعلق بالمخابرات الأمريكية فإنهم سوف يتعاونون معك ثم يرسلون لك تلا من الأوراق، عشرين كرتونة من التحقيقات لو

أردت.. لكن هناك يدا يمكن أن تحذف سطرًا واحدًا هو أهم من كل تلال الورق.

أما فيما يتعلق بأنك تحاولين إثبات أن الشعوب ليست مغفلة، فالحقيقة يا دكتورة أن الشعوب مغفلة.

ما إن انتهى كلامه وقررت هي أن تضربه تقريبا، وجدا شخصا بملامح أمريكية شقراء وبذلة سوداء كاملة ونظارة سوداء تقصد التخفي أو ادعاء الأهمية يأتي من نهاية الممر عند المصعد ووقف قبلهما بمتريين وألقي تحية الصباح بالإنجليزية ذات اللمسة الأمريكية التي لامراء فيها، ردت ريتا واعتبرته سائحا أو ضيفا، لكن توجس يوسف كان له ما يبرره، فقد قال هذا الشخص:

- دكتورة ريتا..

ردت مندهشة ومتعبة.

- نعم.

ابتسم وقال بشيء من التهذيب والروح الرسمية.

- سيادتكم مدعوة للمجيء للسفارة الأمريكية في تمام الواحدة ظهرا حيث جاءت شخصية مسئولة هامة من واشنطن وتنتظرك للحضور في السفارة مع شخص اسمه دكتور يوسف رضوان.

تركهما يوسف متجها نحو غرفته فصرخت فيه.

- يوسف.

أشاح بيده دون أن يلتفت لها.



- أجلي الموعد.. أنا لن أذهب ولو انطبقت السماء علي الأرض، أنا سأنام أربع ساعات أحب أن أصحو بعدها فأري زلزالا قد هد هذا البلد.  
نظرت إلي مندوب السفارة مبتسمة وقالت له وروحها تطلع مع الكلمات:

- شكرا لحضورك..

بعد أن أحنى رأسه تحية لها.. مضي مبتعدا

كانت نصيحة من وزير الإعلام وبدت في محلها تماما، حيث امتلأ صالون مكتبه في الوزارة بأكثر من عشرين رئيسا وممثلا للأحزاب في البلاد، أنها المرة الأولى التي يعرف أن في البلاد كل هذه الأحزاب التي يخشي أن يراجع أحدهم الآن معه أسماءها فلا يتذكرها أو ربما يخلط بين الأسماء وحين يتفحص وجوه هؤلاء يكتشف أن الذنب ليس ذنبه كاملا، فهم أيضا بلا ملامح تحفظ للمرء صورتهم بلا حضور وبلا بصمة وأحزابهم - كأسمائهم - مجهولة مدفونة في توابيت هشاشتهم ونفاهتهم، لكنه كان سعيدا بهم للغاية، تزغرد بالبهجة جوانحه المتعبة والمهدودة بفتحات القلب المشقوق، يعرف أن نجمهم في البلاد لا يغني ولا يسمن من جوع، وأنهم مثل بذرة جوافة بين أسنانك لو أتعبوك، ولو أيدوك فهم مثل حبة كرز حمراء فوق ثورثة كاملة، إن بقيت حبة الكرز كان شيئا لطيفا، وإن غابت فلا طعم للثورثة وتغير لونها ولا قيمتها قد انخفضت.

لكن المظاهرات اليومية التي ترفع صورهِ وتنشد اسمه وتهتف به رئيسا والاحتفالات السياسية في المنتديات وقاعات

البرلمان وقدم رؤساء الأحزاب حتي مكتبه وصور رجل الشارع الذي يأتي في التلفزيون كل دقيقة يتحدث عنه كأنه المهدي المنتظر ويعرب عن حبه - وحب رجال الشارع كلهم - للرئيس القادم وأن البلاد في حاجة إليه بينما هو - هكذا قال أحد رجال الشارع مرة - ليس في حاجة إلي البلاد.. كل هذا بدأ يتسلل إلي عروقه، يركب كرات دمه البيضاء والحمراء، إن في نفسه أشياء كثيرة يريد أن يفجرها، أن يقولها، طول عمره يتلقي الأوامر وأنه مهاب وأنه ذكي وأنه قائد.. لكن عندما بدأ الترشيح والتأهب للرئاسة كان يخشي أن يكون الأمر ليس كما تعودته في الثكنات، حيث لا أحد يناقش أو يرده عن أمر (حيث ما يقوله أوامر وليس قرارات!).

وحيث الكل درجات مصفوفة فوق بعضها، تصور أن الحياة المدنية شيء آخر، صحيح أنه كان يري في ظل رئاسة الرئيس الراحل كيف يتمرغ المدنيون تحت أقدامه، إلا أنه كان يظن أن السر هو هذا العمر الطويل والخبرة الهائلة التي كان يتمتع بها الرئيس الراحل، وخاصة أن أحدا طوال فترة وزارته لم يكن يلقي له بالا أو يرمي عليه سلاما حارا أو خاصا، ولم يكن يعتقد أبدا أنه في يوم من الأيام يمكن لهؤلاء أن يحبوا حتي أقدامه زحفا. لم يكن أحد ينظر له كإله أو نبي أو ولي، كانوا يلقون عليه تحية كمن يعبر بسرعة أمام فوهة بندقية خشية أن يفلت منها عيار أو رصاصة فتقتله خطأ، لم يسأله رئيس الوزراء يوما رأيا في موضوع، ولم يستشره وزير الإعلام في

قضية ولم يمتدح وزير الداخلية سياسته أو يسأله الرأي في أمر عارض أو مائل.

الوزراء السياسيون من الأحزاب لم يكن أي منهم حتي يطلب منه خدمة أو يتوسط لديه من أجل قبول أو نقل أو ترقية أحد، كانوا يتصلون بالرتب الصغيرة بالقيادات من تحته دون أن يعرضوا أنفسهم لسؤاله... هل كانت الخشية والرغبة، أم كان الإهمال والتجاهل!؟

الرئيس الراحل نفسه لم يكن يعره اهتماما أو يشغل باله كثيرا، فبين و بين علي ما يسأله عن أخبار الوزارة ثم يطلب منه الاستعداد، لأنه سوف يزور الموقع الفلاني أو التشكيل العسكري العلاني مع ضيف أجنبي، وسوف يكلمك أمين الرئاسة في التفاصيل، أو يتذكر الرئيس ذات ندرة أن لديه وزيرا للحرب حين يلتقي به في ممر نحو احتفال أو خطبة فيبتهنق في وجهه ويصافحه بحرارة ويسأله عن أخباره، ثم لاشيء، ينساه تماما بعدها، لم يستدعه أبدا ليسأله في الموضوع الذي يشغله، أو يخبره بما يعتزم القيام به، أو يشكوله مرعوسيه ورجاله و كل مرة يتردد اسمه في الخروج من الوزارة يخشي أن يخرج من الوزارة فعلا، وفي كل مرة لا يتردد اسمه في الخروج من الوزارة يخشي أيضا أن يخرج من الوزارة.

فلم يكن يشعر بالأمان، ربما فقط أيام مازاد عليه المرض واشتد وكان لابد من إجراء عملية تلو الأخرى حتي وصل إلي

العاجل، أما باقي الوزراء فقد كان يتلقى مكالمات مقتضبة بين الحين والآخر قضاء للمجاملة تتنطق بثقل أداء الواجب أو باقات ورد من هذا المسئول أو ذاك أو برقيات رسمية من جهات عليا وقد احتج البعض من أنه لم يؤد الواجب لأنه لم يعرف، حيث إن خبر مرض وزير الحرب خبر سري لا تنشره الصحف ولا تتبادل الوكالات، أما اليوم فالكل حضور في حبور حوله يسمع قصائد من لغو الساسة فبدأ زرع الألوهية ينزرع داخله، تسقيه فيضانات الكلمات التي ينقلها التلفزيون علي الهواء.

شب ممثل حزب المعارضة الرئيسي ليقول:

- نحن هنا اليوم، الوطن كله والبلاد بطولها وعرضها، من كافة التيارات السياسية علي شتي مشاربها ومنابعها، جننا لهدف واحد، جننا كرجل واحد لرجل واحد، جننا إليك أيها الفارس الشجاع القائد النبيل البطل المغوار السيف البتار، نور علي أحبائك، وعلي أعدائك نار، جننا نبايحك، كما بايع الأنصار رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه تحت الشجرة، نأخذ عليك العهد ونعدك بالازدحام أفواجا وأمواجا علي صناديق الاستفتاء، نكتب نعم ليس لك.. بل لنا، حيث إنك منا وبنا ولنا، لن نطلب منك شيئا مما يتحلق به المتحذلقون عن شروط لانتخابك أو مبايعتك، بل سنقول نحن نربأ علي أن نشترط علي من نحب شيئا، ثم نحن واثقون من رجاحة عقلك ورفعة رشذك ونقاء سريرتك ونفاذ بصيرتك ومن ثم لن نطلب حتي تجيبنا، معاذ الله ولكن سوف ننتظر حتي تمنحنا فما عرفناك إلا أبا

تغيير أربعة شرايين مسدودة في القلب، ساعتها أحس بالأمان، فالرئيس لم يستبعد وزيرا مريضا من وزارته حتي يموت بمرضه، فقد سبق وكان هناك ثلاثة وزراء في العناية المركزة بل استدعي مرضهم للتقيل أن ينقلوا تباعا وعلي مدي شهر إلي الخارج لاستكمال العلاج وبقيت مناصبهم قائمة رغم أن تغييرا وزاريا لحق بوجودهم في الخارج للعلاج وبينما كان الوزراء الثلاثة أنفسهم - وخاصة أن المسألة تحولت إلي نكتة جارحة ومهازل سياسية - يستعدون عمليا لترك الوزارة ولم أشياءهم، إلا أن الرئيس أصر عليهم ووقف بجوارهم في مرضهم وقال أكثر من مرة أمام أكثر من شخص:

- يعني لو أخرجت الوزير المريض من وزارته، مفيش حد ح يسأل عنه أو عليه، والوزارة سوف تتوقف عن متابعة أخباره، ولما يموت ح يبغي وزير سابق مات، لكن أنا سأقف بجانبه وسأجعله يستمر وزيرا لغاية ما يموت بكرامته، وينزل خبر وفاته في الصفحة الأولى، أما لو كان قد ترك الوزارة فكان سوف يرتمي خبره في صفحة داخلية أو صفحة الوفيات.

المفاجأة أن الوزراء الثلاثة عاشوا واستمروا في وزاراتهم وكانوا يوشكون أن يقبلوا يد الرئيس حينما كانوا يقابلونه في أي اجتماع أو احتفال لذا فقد كان من بواعث ألمي وراحة بالي أنه مرض، حيث يعني ذلك المرض بقاء أبديا في الوزارة حتي يموت، لكن في أثناء مرضه وعلاجه بالخارج، لم يحدث الرئيس سوي مرة واحدة وأتني علي شجاعته وتمني له الشفاء

كريمًا، وابن اخ كريم. كان قلب وزير الحرب يرفرف من السعادة مع رنين هذه الكلمات.. التي فهمها كلها علي عكس ما يسمع كثيرا في بعض المؤتمرات من كلام مستغلق لبعض المتقنين لا يفهمه - ورغرت عيناه بامتلاء الدمع وكاد يبكي سعادة مما أعياه وأجهد قلبه فتحسس كعادته مساحة الجرح، طولا وعرضا، ومشى بأصابعه علي مكان الخيط وكفه دائرة علي صدره موضع القلب.. مكان الجرح و كان لابد أن يتكلم فتكلم:

- هذه في الحقيقة المرة الأولى التي أسمع فيها لهذا السياسي المخضرم والأستاذ الكبير الذي يمثل واحدا من أهم أحزابنا السياسية ولا أريد أن أقول الأحزاب المعارضة، لأنه ليس عندي حزب حكومي أو حزب سلطة وحزب معارضة.. لأ.. كلنا وطنيون نخدم بلدنا والحزب اللي في الحكم النهاردة ممكن بكره يبقي في المعارضة (أحس وهو يتكلم أنه متعب لكن إدراكه أن الجملتين السابقتين ستكونان عناوين عريضة في صحف الغد جعله يتحامل علي نفسه)، أنا أقدر هذا الكلام العظيم وأتمني أن أكون عند حسن ظن المواطنين جميعا.. وأنا ما زلت أنتظر كلمتهم في صناديق الاقتراع كي نواصل الجهاد من أجل رفعة هذا الوطن.

اندهش وزير الإعلام، فوزير الحرب يقلده في طريقة كلماته وفي كلماته شعر بالفخر أن تصريحاته عقب النشرات وفي نهاية اجتماعات مجلس الوزراء قد تركت بصمة في عقل

وزير الحرب الذي سيصبح بعد أيام رئيسا للبلاد، فإذا هو يتكلم بنفس طريقته في التأكيد علي الأحرف الأخيرة ورفع الصوت مع أي كلمة عن الوطن، وأكل الكل في الكلام بحيث لا يترك أحدا ليزيد عليه.. كان انتعاش وزير الإعلام خرافيا بهذه النتيجة التي وصل إليها.. إنه مدرسة صار مدرسة وأحد أنجب تلاميذها بعد عشرين عاما من وزارة الإعلام هو الرئيس الجديد نفسه.

امتأ الصالون عن آخره بالسياسيين وضباط التشريفه ومصورى التليفزيون وعشرات الصحفيين ومئات من المياه الغازية والمعدنية وباقات الورد الدائرية المنتصبة علي أعواد من الخيزران، والأضواء تبلع المكان كله. قام أحدهم وتحنح وطلب الكلمة، لم يتعرف عليه وزير الحرب فسأل همسا وزير الإعلام الواقف خلفه:

- من هذا الرجل؟

همس وزير الإعلام:

- أمين عام حزب اليسار يا سيادة الرئيس.

قال وزير الحرب بصوت عال كأنه يعرفه فعلا:

- أنا متشوق أسمع رأيك يا دكتور نتمني أن نحظي بثقتك.

رد الأمين اليساري متحمسا ومبتسما ومذاعبا:

- لو سيادتكم مش ح تحظي بثقتي.. مين بقي إيلي ممكن

يحظي.

ابتسموا جميعا وضحكوا ثم صفقوا وانتشرت في المكان روح بهجة وقهقهة وواصل الرجل في لهجة متبسطة مع وزير الحرب كأنه صاحبه منذ زمن.

- لأ.. دا أنا عايز أقولك حاجة بقي لازم نحطها حلقة في ودننا من النهاردة ورايح.. أنك تحطي بثقة ورضا كل طوائف الشعب وتيارات الشعب وطبقات الشعب.

تصفيق حاد من الجميع وبكي الآن وزير الحرب فعلا.. الدموع التي احتجزها منذ ساعات لم يقدر علي مقاومتها، فبكي فالتهب المكان بالحماس فجأة وانهمرت عدسات الكاميرات علي وجهه تصور لقطات دموعه وعلي حماس الأمين اليساري الذي علا صوته وجلجل في المكان كله.

- يا سيادة الرئيس إحنا نتنخبك كلنا... وأنت ريسنا كلنا محدش له فيك أكثر من حد ثاني، عشان كده عايز أقول للشعب كله إن المهمة صعبة وشاقة وحال البلد يصعب علي الكافر، لكن عايز أقول للشعب وللعالم كله إنك قد المسؤولية وقدود وإنك ح ترجع لهذه الأمة كرامتها وعزتها وعظمتها وكبرياءها، لم يمنع وزير الإعلام نفسه من خنق مشاعره الكارهة للأمين اليساري من أعماقه فهو الوحيد الذي ينافق أحسن منه في البلد وتمتم في سره.

- يرجع للأمة كرامتها وعزتها وعظمتها وكبرياءها بأمانة إيه يا ابن القحبة.

أمام فيض الحماس والاندفاع نحو مبايعته أراد القلب المجهد أن يرتاح فقال وزير الحرب:

- لا أعرف ماذا أقول أمام هذه المشاعر الفياضة الصادقة التي تغمرني بالفضل، والتي تضع في عنقي أمانة وعلي كاهلي مسؤولية أتمني أن أؤديها علي خير وجه، وأنا أتعهد لكم ألا أتخذ قرارا قبل العودة فيه إلي الشعب، وما أريد أن أؤكد عليه أنني لست باحثا عن منصب أو جاه ولكن قبلت هذه المسؤولية لأن شعبي شرفني بترشيحي لها، ولأنني فلاح تعلمت في قريتي أن الكفن مالهش جيوب، فإنني أري أن مدة واحدة كفاية قوي في الرئاسة وسوف أعتزل وأبتعد تاركا للأجيال الجديدة التي أراها أمامي، (تجاهل أنه لا يوجد بني آدم من هذه الأحزاب أقل من ٦٠ سنة) مهمة رئاسة هذا البلد بعد أن نمضي بسفينتها إلي بر الأمان بإذن الله.

كان النسـر الأمريـكي طاغيا ومتوحشا وهو معلق علي هذا القدر من الارتفاع وبهذا الحجم الهائل علي جدار السفارة الأمريكية، حينما تصعد درجات السلم وتنتظر فوقك، تحس أن النسـر سوف يضع مخالفه في أحشائك، أو سيرفعك بجناحيه إلي حيث أنيابه، رأسه بانحناءاته المفترسة و بشموخ الغابات وقوس أنفه يسلب أعداءه ما تبقي من ريش شجاعتهم.

ريتا نهـرت يوسف لأنه حـدق في النسـر طويلا وهما يصعدان السلالم في هذا المغيب الشرق أوسطي الكابي والكئيب، كانت قد اتصلت بمسئول المخابرات الأمريكية وطلبت منه تأجيل الموعد إلي السادسة لأنهما لم يناما منذ الأمس، وافق بعد أن أكد لها أن طائرته سوف تقلع إلي نيويورك في العاشرة مساء وأنه ليس في الوقت متسع لتأجيل آخر، كتبت ريتا عدة ملاحظات في مفكرتها، ووضعت ملف الأمن الوطني علي الكوميدينو بجوار سريرها، لكنها سرعان ما قلقت فوضعتها تحت وسادتها، وأغلقت عينيها ونامت، نامت إلي حد أن يوسف استيقظ وانشغل عليها فجاءها إلي الغرفة وطرق بابها، فتحت

وهي نصف منومة فوجدته، دخل واستأذنته أن تأخذ حماماً سريعاً وأن يطلب هو فنجان قهوة علي ما تخرج كان وجهها الصاحي من النوم صبوحة رغم ما فيه من بلل وبلادة المنام، وكان حماسها يدغدغ هذه النوم ووخمه، كما كانت ترتدي «تي شيرت» أبيض محكماً علي خصرها فأبرز ثدييها بتشكيل الكمثرى، وبانت نحافتها مع لف البنطلون علي مؤخرتها والتصاقه بساقها، أما يوسف فكان قد ارتدي ملابسه الكاملة علي نحو من يستعد لملاقاة حماه، خرجت من الحمام وقد ارتدت البرنس الأبيض وبللت شعرها دفعات الماء المنزقة، داعبته.

- حاسب من تأملي فقد لا تملك نفسك من المقاومة.  
ضحك وقال:

- تأكدي أنك في أمان كامل فكوني سعيدة بذلك.

ابتسمت - ومن قال إن هذا يدعو للسعادة؟

ضحكت وهي ترتدي جلبابها خلف ضلفة الدولاب.

- التحرش الجنسي يصيب المرأة بالصدمة، لكن التجاهل الجنسي يصيب المرأة بالاكئاب.

رد عليها وهو يرشف فنجان القهوة علي مهل:

- التحرش الجنسي يصيب الرجل بثلاث سنوات سجنًا ولكن التجاهل الجنسي يضمن له أن ينام علي سريره في منزله ليلاً.

أغلقت ضلفة الباب فظهرت بجلبابها الشعبي المطرز بنقوش ورسوم من موروث هذه البلاد، وقالت له وهي تسرح شعرها علي عجل:

- أيهمك السرير أم من معك في السرير؟

رد وهو يقدم لها فنجانها من القوة.

- يهمني الدولاب.

ثم استحثها للرحيل.

- ياللا لدينا موعد في السفارة بعد ربع ساعة من الآن.

نظرت له وهي تخطف رشقات من فنجان القهوة، ثم تبعده عن فمها وهي تشعر بالمفاجأة.

- من قال لك إن الموعد أصبح السادسة مساء.

ابتسم حتي امتلأت شفتاه بالهزل.

- أنست.. لقد اتصلت بي قبل أن تنامي.. تلاقيك فاكراه

حلم.

دفعاً الباب الزجاجي الذي أدي إلي باب آخر انفتح فجأة

علي رجل في الأربعين من عمره، بقميص مخطط ورابطة

عنق محكمة علي عنقه وبنطلون أسود واسع وعملي.

- أهلاً يا دكاترة.

قالها بإنجليزية فصيحة، أدخلهما إلي غرفة المكتب وأغلق

الباب وراءهما وبدأ في إعداد قهوة أمريكية يصبها لثلاثتهم

بدأت ريتا تدخن فأمسك بسيجارتها وهي تشعلها وأطفأها وقال

لها:

- التدخين هنا ممنوع يا دكتورة ريتا.

ثم فتح جهاز كمبيوتر شخصي صغيراً علي المكتب الذي يجلس عليه وضغط علي زر ثم آخر ثم ثالث فظهرت أمامه عدة سطور طبعها بسرعة وأخرج نسختين لريتا ويوسف، تصفحا السطور، كانت عبارة عن جدول أعمال الجلسة. بدأ يتكلم.

- سوف أتحدث في نقاط.

أول نقطة أننا نري أهمية أن نولي انتباهنا لحراسة الرئيس ليلة اغتياله، لهذا أعدنا لكم ملفات لكل ضابط منهم، لاحظوا أنهم جميعا تلقوا تدريبات في الولايات المتحدة ومن هنا فكل المعلومات المتوفرة لديكم في هذه التقارير كاملة ودقيقة، صحيح أنها لم تجدنا في شيء حتي الآن.. لكن في الوكالة رأوا أهمية إمدادكم بها.

ثم أخرج عددا من الملفات وأعطاهما للدكتورة ريتا التي بادرت به بالسؤال:

- لماذا لم تعطنا ديسك الكمبيوتر أفضل؟

أجاب بثقة، قلنا نوفر الوقت.

وأضاف لكن عموما الديسك موجود تحت أمرك، ثم هناك ديسك آخر هو بمثابة النقطة الثانية التي أريد أن أتحدث فيها وهي الكاميرات التي صورت ليلة الاغتيال، ممرات وطرق وساحات القصر الرئاسي وهي كثيرة جدا فيما عدا - طبعا -

جناح غرفة نومه الذي استثناء من المراقبة وكل أحداث تلك الليلة التي تم تصويرها موجودة علي هذا الديسك.

قدم لها الديسك الذي قدمته ليوسف الذي اندهش من تسليمها الديسك له، فهو لا يعرف في الكمبيوتر شيئا حتي الآن ويبدو من أهم رجال الأمية العلمية في العالم القانوني.

قطع رجل المخابرات الأمريكية أي حوار داخلي في نفس أحدهما حين قال:

- النقطة الثالثة هي تقرير الطب الشرعي الذي كشف على الجثة، لقد رفضنا نحن أيضا اعتماد تقرير لطبيب واحد مهما بلغت كفاءته، لكن تم الدفن علي عجل ومن المستحيل عمليا إعادة التشريح الآن.

قالت ريتا:

- لماذا؟

رد.

- الحكومة هنا اعتبرت هذا الطلب ضربا من المستحيل وأنها لن تعامل جثة رئيسها علي هذا النحو، وأنه إذا بلغ أحد أن الجثة خرجت من قبرها لانهارت الحكومة.

ريتا ضحكت ساخرة وردت:

- وإذا بلغ أحد أن الرئيس تم قتله في غرفة نومه ألن تتهار الحكومة أيضا؟

رفع الضابط كتفيه غير مبال بالملاحظة التي وجهتها ريتا واعتبرها ملاحظة موجهة لغير ذي صفة.



تدخل يوسف في الحوار بعد أن زجرته ريتا بعينيهما علي صمته وشوحت ببيدها له أن يتدخل في الحوار، قال يوسف:  
- أريد فقط أن أسأل هل توصلت المخابرات الأمريكية في الأيام العشرة الماضية لأي نتيجة أو استنتاج؟

قال الرجل:

- الإجابة لا.

ابتسم يوسف وقال:

- السؤال إذن وكيف تطلب منا أن نصل نحن إلي نتيجة أو استنتاج؟!

ابتسم الضابط وتراجع بظهره للوراء.

- أنا لا أطلب منكم أي شيء.

ردت ريتا بعنف، كادت تطيح بجهاز الكمبيوتر في وجه الرجل.

- إذن لماذا أتيت بنا إلي هنا فرجة؟!

أجاب الضابط:

- بشكل رسمي أنا مطالب بالكلام عما تكلمت عنه فقط، أما بشكل ودي وشخصي فلا بد أن تعرفا أن الإدارة الأمريكية سوف يتم سؤالها اليوم أو غدا، في الحاضر أو المستقبل عن دورها في هذا الاغتيال سواء من الكونجرس أو الصحافة أو إدارة جديدة ويجب أن تحتاط للأمر، فاختارت لجنة مستقلة كي تبرئ ذمتها من أي تقصير أو أي إخفاء لأي شيء في القضية ثم من قال إنكما لن تصلا لأي نتائج أو استنتاجات لماذا كل هذا التواضع؟

شخطت فيه ريتا.

- نحن لسنا هنا كي تجاملنا.. عموما سوف ندرس ملفاتكم وملف الجهاز الوطني هنا وانتظروا منا تحديد موعد للاستفسارات والأسئلة وربما أيضا طلبات جديدة، وإلي هنا نحن شاكرون تعبك.

وقال وهما يقفان:

- علي الرحب والسعة.

اتجها ناحية الباب حتي أوقفتهما كلماته.

- بالمناسبة ما هي حكاية الخنجر التي شغلت بها الناس هنا يا دكتورة؟

التفتت صارخة:

- آه.. إذن كله فاتح علي بعضه.

وقف وهو يوجه كلامه إلي دكتور يوسف رضوان.

- يا دكتور هل تعتقد أن خنجرا متحفيا وأثريا إلي هذه الدرجة معلق في جرابه علي جدار منذ عام أو يزيد يمكن أن يكون حادا وطازجا كل هذا الوقت حتي يسبب كل هذا العمق في جراحه وفتحه الغائر لبطن وصدر الرئيس.

أجاب يوسف في اقتضاب.

- ومن قال إن السكين الصدئة لا تقتل.

ثم أطرق برأسه وهو يأخذ ريتا في يده نحو الخارج.

- عموما سوف نري كل شيء ونحاول أن نعرف.

كل من في المدينة عرف أنها طائثرته، منذ سنوات أسس أحدهم هذه المدينة لسكني الأثرياء والأغنياء، كان شرط من ينضم إلي عقود الأملاك والملاك ألا يدخلها من هم دون الطبقة، من هم دون الغني والنفوذ والأصل، إنه مكان للمكانة، كان هذا سبيل الولوج إليه والسكني فيه، أن تكون من أصحاب الملايين وأن يرشحك للسكن فيه صاحباً ملايين آخراً، وبعد البدايات الأولى للمشروع صار علامة علي أبناء الطبقة ومالكي مقاليد زمام المال والسياسة في عموم البلاد، وصار الانتماء إليه علامة في بطاقة هوية وإضافة في رفعة علوية، وبدأت الأسطح تستعد لاستقبال الطائرات الصغيرة بعد السماح بملكيتها في البلاد والطيران بها للسادة، كما تم بناء سور يحيط بالمدينة ويحكم إغلاقها أمام المتطفلين والعابرين وخاصة أن ذبوع اسمها وبروق سكانها لفت إليها الأعين ولف حولها الأذرع، كان السور عالياً (وهل الأسوار أسوار إلا إذا علت) باللون الأبيض الذي يتم غسله كل أسبوع بواسطة شركة نظافة متخصصة، وفي بقاع مختارة من السور تقبع أبراج مراقبة

مزودة بأجهزة استشعار عن بعد وكاميرات بعيدة المدى وبنادق لإطلاق الرصاص الدخاني والمخدر، وبوابات السور آلية ذات شفرات سرية وكروت ممغنطة، الشوارع تتعامد وتحمل أرقاماً وأحرف ووجوه السكان.

اقترح إطلاق أسماء مفكرين وفنانين علي شوارع المدينة قوبل برفض جذري عميق وملتاع بالعصبية وقال أحد مؤسسيها: إنها مدينة لا ترتبط بوطن ولا رموز وطن، بل للعالم كله أقرب وإنها مفتوحة لكل من يملك بطاقة هوية ذات شفرة تفتح البوابة كأننا من كان.. الشرط الحازم الحاجز أن يكون في غني من فيها ونفوذ من بها.

البيوت لا تعلو الطابقين، وبرسم واحد وبشكل مثبت، الشرفات واسعة ممتدة بعرض الطابق كله ونقوشها من رسم فرعوني فيه سموق وعزة، والأشجار موزعة في الجوانب وفي الواجهات وخضرة مفروشة وبساتين وورد في أحواض مستطيلة (قليل إن فيها كل أنواع ورود العالم وزهوره وإن شركة هولندية ذات جذر مديد في هذا المجال هي التي صممت الأحواض وزرعتها ورعتها بالتعليمات والمشرفين المنتظمين) باستثناء النفس الفرعوني في بعض النقوش، إلا أن المكان كان يوحي بالمثل في حضرة مدينة أمريكية ذات نسخ متكررة في بعض ضواحي عواصم العالم في هذه الآونة من التاريخ، ولكن ذلك لم يمنع أن تكون التماثيل الأصلية الموزعة في ميادين المدينة من صنع فنانين فرنسيين اشتغلوا خصيصاً لها ولم

يضع أي مسئول عن المدينة أي شروط لموضوعات التماثيل، بل صارت معرضاً مباحاً غير متاح لجنون المثاليين الفرنسيين الذين وجدوا طلة غنية علي جنون الفن غير المكبوح.

وكان من سكان هذه المدينة أصحاب قبضة المال في البلاد، ورغم أن ابن رئيس البلاد لم يكن مالكا رسمياً لأي من تلك البيوت في المدينة، إلا أن الجميع كان يعرف أن له بيتاً باسم زوجته لكن دواعي إخفاء السفور وشيء من الستر وراء عدم الإفصاح عن وجوده، ولكنه كثيراً ما كان يري متمشياً في شوارع المدينة أو جالساً في مقهى من مقاهيها مع أحد رجال الأعمال أو مع مليونير بارز في عالم الدولة والسلطة، وكان الكل يعرف مميزات طائرته من صوت مروحتها إلي مكان هبوطها، وإلي وجه طيارها، من ثم فلم يندهش أحد حين أدركوا أن ابن الرئيس اليوم في المدينة، وأنه في صحبة شلة من ذوي السلطان المالي والاقتصادي المدوي في البلاد، كانوا في منزل «ن» الذي حرص علي أن يلم أجنحة طائرهم الأسطوري من رجالات المال بعد وفاة الرئيس حتي يستدفنوا ببعض ويتقوا بذواتهم وجماعتهم ويتباحثوا مسيراً يسيرونه ومصيراً يخططونه: «كان «ن» سيد قبيلتهم وأغناهم وأصغرهم سناً، ولما اشتد حوار فيه مط وخلط عن ابن الرئيس في أول عهده بهم وبمالهم ومآلهم، قالوا إنه لأفضل له ولا مكانة ولا ميزة إلا كونه ابن الرئيس، فماذا يكون بغير أبيه؟!«

ابتسم «ن» وشد أوتار حناجرهم حين قال:

- وما نحن إلا أبناء آبائنا، أكنّا نظن - ومعظمنا في الخامسة والثلاثين إلى الخامسة والأربعين من عمره - أنه يمكن أن نرتفع ونرقي ونعلو وننمو في المال والجاه والشركات والبورصات والبرلمانات والوزارات إلا بما فعله آبائنا المليونيرات من أموال صعدنا فوقها وقصور بنينا عليها ونفوذ قبضنا عليه وسلطان ارتبطنا به، وأن مجموع ما أسسه الآباء أكثر مما أسسه الأبناء حتي الآن، نعم نحن نضيف روح العصر ونضاعف تلال المال ونجري بخيول السرعة ونصعد الطلعة في طلقة، لكن لا تنسوا مقابر آبائكم أو مقاعدهم في اعتزالهم الآن في يخوت لهم أو منتجعات سويسرية!

ولهذا فإن ابن الرئيس سوف يدخل معنا وعلينا، صحيح أن والده لم يقدم له مالا ولكنه قدم له مفتاح كل أبواب المال: السلطة.. سيدخل بوابتنا لكن إلي أي مسافة سيمضي وإلي أي مساحة سيجتاز وإلي أي مدي ستتعب أكتافنا من حمله؟! هذا هو ما يستحق أن نسأله!! لكن في حينه.. ولكل شيء ميقات وأجل في عالم السلطة والمال وكلما زادت حمولة الحصان قل احتماله وزاد احتمال ضياع الحصان والحمولة.

وعندما دعا «ن» لهذا المساء، لم يتأخر أي من رجال الدائرة، كانوا يشعرون في مجلسهم، من صناعاتهم الشتي، من شركاتهم المختلفة، من بورصاتهم المتعددة، من أنشطتهم المتضاربة، من اختلافاتهم الشخصية والنسائية، إنهم هنا.. في هذا المجلس حيث يطلون من زجاج الطابق الأول لبيت «ن»

علي جنتهم التي زرعوها، إنهم يحكمون هذه البلاد.. وإنهم أمراء هذا الزمان، ولما كانت أعمارهم تسمح بنشوة جذوة المني المنفلت ذروة في الاشتهااء، كانت اللذة تبلل ببيلها مشاعرهم العلية.

كان «ن» مصمما علي ألا يترك ابن الرئيس نسيرة لحم في فك التوتّر والتوجس، وحين اتصل بهم وأكد عليهم ألا يشعروا الرجل بخيفة أو أن موت والده سوف يحوله إلي رقم خارج قسمة الحساب وأن اجتماعهم الليلة لا شأن له بغير هذه الطمأننة، وخاصة أن هناك مازالت حسابات معلقة وعقود مبرمة وأوراق مختومة و خزائن مغلقة، فلما دخل ابن الرئيس أشعروه أنه في بيته، وأن قلوبهم أكف راحة له، يعزونه ويقوونه ويدعمونه ويعضدونه، كان بعضهم يشرب كحولا، لكن آخرين كانوا متدينين إلي حد عدم اقترابهم منه بعد الحج، ورغم أن أفضل حكاياتهم - جميعا جاءوا من الحج أو نصاري - كان عن النساء، إلا أن الليلة - علي حسب ما قال أحدهم لابن الرئيس - لا كلام عن النساء، الليلة لك. لاشك أن كدرا كان معلقا بكل ملامح ابن الرئيس وأن جرحا مغموسا بالملح مغروسا بالرمح في صدره كان يئن به وكان أنينه يرن في أذانهم يحاولون أن يخففوا من فداحته.

- كونك ابن الرئيس السابق شيء سيضعك دوما علي قائمة الاهتمامات، ستظهر في التلفزيون تصافح الرئيس الجديد وهو يزور قبر والدك في ذكرى وفاته، ستكون في استقبال

الملوك والرؤساء الذين سيكون برنامج زيارتهم للعاصمة يشمل الفاتحة علي قبر الوالد، ستتضمن من الكلام مع الوزراء في أي لحظة مستخدما اسمك حتي لو تغيرت وجوههم وأسماءهم. أضاف ثان وهو يتأمل حقيقة أنه لا أحد منهم يرتدي بذلته كاملة وأن معظمهم بقمصان رياضية.

- لا تنس أنك أحد أعمدة الاقتصاد في البلد الآن، وأن حجم معاملتك المالية ضخم ويتضخم وأنك نافذ في كل أفرع وأراخبيل المال هنا، فلا قوة لأحد يمكنها أن تزحك.. أما إذا كان نفوذ ابن الرئيس وسلطة الوزارة هو ما ستفقدته فإن نفوذ المال يعوضها ثم إنه لا يبقى إلا وجهه.

قال ثالث وهو يدرك الآن أنهم لم يحبوا ابن الرئيس أبداً، لم يستطيعوا كلامه ولم تتحرك قلوبهم نحو عاطفة الميل إليه أو خفق المودة نحوه، وأنهم لم يضحكوا علي دعاياته إلا مجاملة ولم يتبسطوا معه إلا رغبة في عدل موازين القوة، حيث بدت في حينها تعاني خلاا واختلالا ثم أخذ يتأمل وجوههم ليكتشف فجأة أنه لا أحد فيهم أسمر البشرة سوي ابن الرئيس.

- أريد أن أسألك: هل أنت مطمئن إلي عقود الوزارة وإلي مناقصاتها ومزاداتها، لا تنس أنك كنت تملك أعلي مخصصات مالية لوزارة الشباب منذ عهدا الطويل، وأن الملايين التي صرفت لابد لها من مسارب ومجار.

كاد يزوي سيجارة بين أصابعه حين قال ابن الرئيس متوترا عاريا من ضبط مشاعره:

- هذا ما أخشاه أن يصمتوا شهرا أو حتي سنة، ثم يبدأون في فتح دفاتر الوزارة، أعرف أنهم كلهم ملطوطون، وميزانيات الوزارة خربة مثل غيرها من الوزارات، لكن ساعتها من يسمع ومن يفهم و يبقى الموضوع كله معمول حسابه كي يدخلوني السجن تحت دعوي تطهير الحكومة ومحاربة الفساد وأنه لا أحد أكبر من القانون وهذا الكلام الخراء الذي يظهر في بدايات كل حكم.

ابتسم «ح» ابن شقيق الرئيس السابق، حيث عاني والده من هذه «الخراء» في بدايات عهد والد المتوتر المتوجس الجالس أمامهم الآن، نظروا جميعا إلي «ح» منتظرين تعليقه، الأمر الذي أدركه ابن الرئيس فقطع جملته هو الآخر فقال «ح»:

- الحقيقة هذه أمور إعلامية يبقى مقصوداً منها الفرقة والدعاية فقط. لقد كان الرئيس والدكم يتصل بوالدي كل يوم، يشد من أزره ويقول له ولا يهملك ما يفعله هؤلاء الملاعين، وكانت نار أبي تبرد وحاله يرق ويشف ويقول إن الرئيس طمأنه وإنه لن يحدث شيء أبداً.

وفي ليلة دعاه والدكم إلي العشاء في قصره، أليس هذا منتهي الأمان وبالغ الاطمئنان؟ وكان أبي يرتدي أزهي ملابسه وأجمل وأغلي ما عنده، كان سعيدا أن الرئيس لم يخن صديقه شقيق أبي الرئيس السابق ولم يخن العيش والملح، وكانت أمي غاضبة نافرة من فرحه وتقول له إذا كان الرئيس هذا غير راض عن الحملات الصحفية ضدك والملاحقات القضائية لك

ومطارادات الضرائب وأجهزة رقابة المال العام فلماذا تستمر هذه الحملات إنه يضحك عليك!

لكن أبي كان صادقا تماما لصدق الرئيس وذهب للعشاء عنده وكانت ليلة طويلة مبهجة لأبي كثيرا، عاد ليكذب أمي طويلا ويحكي لها أن الرئيس صالحه وباركه وأعلن أنه لن يتخلي عنه أبدا وأنه سيؤمن المال لعياله ولن يسمح لأحد بتجريدته من ثروته ومصانعه وشركاته وأن أمواله في الخارج لن يمسسها ضابط أو رقيب ولن يكشف عنها صحفي أو نائب وزاد فعاد كلام الرئيس أن الحملات ضد شقيق الرئيس السابق مقصود منها الرئيس الحالي، وأنه لن يتركه لأنياب المعارضة التي تريد أن تنال منه ومن سلفه، ونام أبي قريير العين حتي صبحونا جميعا علي صوت أمي تطرد النوم من أعيننا، أن نصحو مبكرين، ماذا يا أم؟ لقد صدر قرار بالتحفظ علي أموال أبي! فيما بعد فهمت - لما كبرت- أن أمي أحست بطعنة موجهة لأبي، فقد جري هذا بعد ساعات من لقائه بالرئيس، لكنني فهمت - لما كبرت- أن قرار التحفظ كان هشا وتافها وكان مخصصا لهامش من المال والشركات، وكان مؤقتا، وكان ضبابيا، وقد هللت له الصحافة علي أنه نصر علي الفساد، بينما هو كان مجرد وصمة عار لعهد من أجل تدشين عهد جديد، كان أشبه بدم البقرة المذبوحة تيمنا قبل افتتاح محل جديد، في شارع تجاري، أراد والدكم الرئيس أن يطلق أبواق دعايته لصالحه في نفس الوقت لا يؤدي أبي في كثير من ثروته، لقد

دغدغ سمعته صحيح، لكن أمواله وثرواته وشركاته وأسهمه لم يمسها أحد، بل وعاد لنا ماكان متحفظا عليه، وتركه يعمل باسمي وباسم أشقائي حتي كبرت وتوليت المهمة عنه، وكان أبي موزعا في مشاعره بين الإحساس أن والدك ضحي به وبين فضل والدك عليه حيث ترك له ماله لأولاده وثرواته لبناته. ولم نشعر في يوم من الأيام أننا فقراء أو أعوزتنا الحاجة لأحد. وبعدها بسنوات بدأ والدكم يسمح لأبي بالحضور معنا لاستقباله أثناء زيارته ضريح عمي الرئيس الأسبق في ذكرى وفاته، وحرص والدي علي نشر صورته مع والدك الرئيس متعانقين ووزعها علي جميع مكاتب شركاته وكانت أوامره لي دائما أن أترك ما في يدي سواء في أوروبا أو أمريكا وأكون حاضرا في مقدمة الصف الذي يصافح الرئيس أمام قبر عمي وكان والدي يؤكد أن وجودي مع الرئيس في مقدمة النشرات وصدر أولي الصفحات أكثر ضمانا لنا في أعمالنا وتجارتنا وثروتنا، وهو الذي طلب مني أمرا شاخطا أن أبحث عنك بمجرد ما سمع عن دخولك عالم الأموال والأعمال وقال لي هات ابن الرئيس معنا وأشركه في شركاتنا وأسس معه مؤسسات جديدة سيقوي بك وستقوي به ولعلك تتذكر عندما زارنا في قصرنا بإسبانيا كيف كان حفيا بك، محبا لك حريصا عليك وعلي رضائك.

كان ابن الرئيس مثل ذرة الفشار وهو يستمتع لهذه الكلمات، لم يكن يعرف هل يفرح وتتبسط أساريره أم يغتم ويلتم علي

نفسه؟ لكنه ما صدق أن سمع أنفاس «ح» بعد أن توقفت كلماته،  
أن قال:

- لكن الوضع الآن أكثر مما كان قبلا.. والرجال  
الموجودون بعد والدي ليسوا مثل والدي في حكمته ولعبه علي  
كل الحبال (....)، ثم إنني أمثل تحديا لهم أكثر مما كان يمثل  
والدك، عفوا، إنه لم يكن في سيرك السياسة بل في ملعب  
المال، ولكنني في حلبة الأسود والنمور، قد لا أفلت من مقلب  
إذا نجحت في الإفلات من ناب، لذلك أفكر في السفر أن أهج  
من البلد الآن.. أعيش في أمريكا، إن لدي جواز سفر أمريكا  
وستتم معاملتي علي أنني مواطن أمريكي.

ضحك «ن» حتي أزعجه هو نفسه ضحكه فختم وقال:

- لا تنس أننا جميعا نحمل جوازات سفر أمريكية  
وبريطانية، جواز السفر الأمريكي حماية لثروتنا لكن ليس  
حماية لحياتنا.

- هل تعني قتلي؟

- لا أظن أن الأمور ستصل أبدا لهذه الدرجة، فالرجال  
هنا عاقلون وأنا أعرفهم جميعا علي مستوي شخصي، لقد كانوا  
يحبون والدك ومخلصين له، لكن لديهم إحساسا أنهم أولي  
بالسلطة منك، فقد تعبوا مع والدك وشقوا لأجلك.

انزعج ابن الرئيس فانفجر.

- لا تنس أن والدي هو الذي صنعهم جميعا، ماذا كانوا  
هم؟ كانوا ولا حاجة، لم نكن نعرف أن أحدهم سياسي ماهر أو

وزير فذ، هو الذي صنعهم من لاشيء، أتى بهم من الصفوف  
الخلفية ووضعهم في مقدمة الجميع فلانقل لي إنهم خدموه  
ووقفوا جنبه ومش عارف إيه..

- لا تغضب.

قالها «ن» وهو يعنيها، فاضطرب ابن الرئيس ونظر حوله  
كأنه يبحث عن كاميرا تصور أو تسجيلات تسجل، فأطفا «ن»  
ناره.

- اطمئن.. لقد فحصت شركة أمن خاصة المنزل قبل  
اجتماعنا وهو آمن، لكنني أنصحك فعلا أن تكون أهدأ في مثل  
هذه الأيام وخاصة أن الحكاية ليست صغيرة ولا داعي أن  
تستفزهم أكثر مما هم مستفزون.

ذعر ابن الرئيس وسأل متقطعا:

- ومن قال إنهم مستفزون ولماذا؟ وما الجديد؟

جذب «ن» ملفا من مكان خلفه وفتحه وبدأ يتكلم.

- هذا الملف بدأ إرساله بالإنترنت لعشرات السياسيين  
ورجال الأعمال والوزراء في البلاد، بفحصه والبحث عن كنهه  
ومصدره ثبت أنه قادم من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا  
أقصى ما وصلت له الأجهزة هنا عن مصدره، لكنه يضم مائة  
صفحة كاملة بعنوان «ثروات ابن الرئيس».

ارتج ابن الرئيس لما سمع هذا الكلام بينما تصفحت عيونه  
وجوه الجالسين في دائرة أمامه، السجارية، الأدخنة، الكئوس،  
النظرات القاسية، العيون الثابتة، الشفاه المدلاة، الأيدي المرسلة

بحرية، السيقان الموضوعة فوق السيقان، الشورت الذي يرتديه أحدهم، الجلاباب الفاخر الذي يلبسه آخر، إن ملياراتهم تجلس علي أكتافهم.. أكمل «ن».

- الملف يحتوي علي كل صغيرة وكبيرة عن ثروتك والأخطر كل أسهم لك في شركاتنا ومصانعنا، بالسنت وبالدولار، بمنتهي الدقة، حصر يشبه الحصار لنا كلنا، لم ينس الملف أتفه الأشياء حتي صالات البلياردو وقاعات السينما، حصتك من الأرباح علي مدي السنوات الخمس الأخيرة والتي دفعتها لك شركاتنا، كل علي حدة، الأخطر أن أسهمك لم تكن في كثير من الشركات باسمك، لكن المدهش أنهم كتبوا الأسماء الحقيقية التي تمتلك، من أول طقم السكرتارية لغاية السائق، لغاية أولاد خالاتك، لغاية موظفيك كله.. كله، إنه تقرير أشبه بالمعجزة من المستحيل أن تستطيع أنت بنفسك أو حتي أهم محاسبيك كتابته بهذا الكمال وتلك البراعة، إن هذا الملف موزع بين أيدي الناس منذ شهر تقريبا وأصبح من الصعب إخفاؤه مثل انتفاخ بطن امرأة حامل ثم جاء بعد ذلك خبر وفاة والدك ليصمت وقع الملف، لكن نحن لسنا في حاجة إلي أن يعود للظهور فعودته غير مضمونة العواقب علي الإطلاق.. إن عودة هذا الملف للظهور لن تنقذك منها حتي عودة والدك من القبر.

رنين جرس التليفون المحمول أفرع ابن الرئيس كأنه صفارة إنذار مدسوسة في أرنبة أذنه، كان رنين الجرس لـ«ن» رد فهمس وردد كلاما وترحيبا ثم أغلق التليفون.

- علينا أن نتكتم علي أحاسيسك وعليك أن تكف عن الشعور بأن أحدا يغدر بك، ثم إن البلد كله يتحدث عن أحضانك مع وزير الحرب أمام مقبرة أبيك، هذا جميل للغاية، استمر، ثم سافر لأي بلد لو أردت لكن بعد الانتخابات، أساسا نحن نقضي في عواصم أوروبا أكثر مما نقضي هنا، لكن لا بد للأمر أن يظهر بشكل طبيعي وقبل أن يأتي مدير الرئاسة إلينا الآن. التفث ابن الرئيس.

- وده إيه اللي جابه؟!

رد «ن»:

- إنه صديق لك ولنا جميعا.. وهو قادم لما عرف أنك هنا يريد أن يراك ويأخذ بيدك..

سكت ونظر لابن الرئيس الذي عاد فأحس طوق النظرات يلتف حول عنقه منهم جميعا.. واصل «ن»:

- عموما وقبل أن يأتي مدير الرئاسة أريد أن أقول لك إنه لا بد من تهدئة خلال المرحلة القادمة سواء في معاملاتنا معا أو إجراءات الدفع المالي.. نهذا قليلا.

وصلت الرسالة الآن لابن الرئيس، الحلفاء وقعوا علي عقد بيعك. نشره القلق لكنه حاول أن يتماسك وينتظر قدوم مدير الرئاسة أهو فخ يبيخ سمومه الناقعة في وجهه، أم أن اشتباك



المصالح عارم في تلك الغرفة، جارف لكل ما يقف أمامها من عواطف تفتح نوافذها لهبوب عواصف، أم طفح لتلك البئر الممتلئة حتي حافتها بالحدق والحسد والضغائن والإحن، قدوم مدير الرئاسة مداس آخر، نعل جديد، يضغط علي لحم قلبه يفعضه بالمرّة في تلك الأيام التي يتراقص فيها جسده عاريا معلقا علي حبال مشدودة إلي الأرض، في أية لحظة عابرة مارقة مسروقة من الزمن يمكن أن ترتفع الحبال عن الأرض، أو تهبط الأرض عن الحبال، فتصير مشنقة.

دخل مدير الرئاسة..

طويلا كما ينبغي لضابط كان حارسا للشرف، وممثلنا ومنفوخا كما يليق بموظف ترقى نفوذه في أجواء تعبد النفوذ، نهض الجمع في استقباله، لم تكن سعادة استقبال مسئول بل راحة استقبال حليف، لم تكن حفاوة أيد وأحضان وضغطات علي الظهر وضمانات للكف، بل كانت توقعيات علي معاهدة تضامن وتكاتف، سواء توقعيات مجددة علي معاهدة قديمة، أم توقعيات طازجة علي معاهدة جديدة، كان «ن» هو الذي أشار لمدير الرئاسة علي ابن الرئيس فاندفع مدير الرئاسة - كأنه لم يكن يراه.. كأنه لم يكن يعرف أنه سوف يراه - نحوه يحتضنه ويغمض عينيه تأثرا كمن يحجز الدمع في المقلتين ويضمه بقوة وحرارة وقال له برقة وحنية:

- إزيك يا حبيبي.

سمع ابن الرئيس كلمة يا حبيبي تلك واعتبر أنها تحول الجلسة إلي غرفة الدمي في روضة الأطفال، وكان سر سريرته أنه يتعجب أن الموضوع وصل لغاية يا حبيبي بمثل هذه السرعة، إن زما ينقضي أمامه، الأفعال كلها صارت ماضية وأن ما يشغله من هنا ورايح هي تلك الأفعال المضارعة، الضباع الضواري هي التي «تضارعه» إذن الضراعة وهشاشة الرضع «تضارعه» كذلك كان يواصل مدير الرئاسة تراتيله الخاصة.

- إن والده رحمه الله أوصاني به كثيرا، قال لي إنه ابنك مثلما هو ابني تماما، والذي يعرف علاقتي بالرئيس الراحل.. (توقف وتأسى وتتهد وقال ياه بقي الرئيس الراحل.. وحاول أن يداري دمعة، أو يداري مكان دمعة كان من المفروض أن تكون موجودة فلم توجد) ثم عاد فقال:

- كان في أول عهده ابنه هذا الرجل الجميل، ابني، صغيرا مراهما فإذا أراد أن يشغل بأمور الحكم وشئون السياسة وشجون الدولة طلب مني أن أكون والدا لابنه في تلك الأيام.. آه والله العظيم كان يقول لي.. أنت من دلوقتي أبوه وليس أنا.

ثم ربت علي كتف ابن الرئيس مرة أخرى وسكت ليضع خطوطا بصمته تحت كلماته التي انتهت.

حين كان «ن» يسأله عن آخر الأخبار، كان مدير الرئاسة يحمل سيجاره الكوبي من جيب سترته ويضعه علي المائدة الصغيرة أمامه، وسلسلة المفاتيح يلقي بها من يده والتليفون

المحمول يضعه في نفس المكان والولاعة.. وبحركة بدت مفاجئة وغير متوقعة، جذب من تحت إبطه مسدسا غليظا فضي اللون فقبض القبضة وألقاه علي المائدة أمامه كأنه إعلان عن نوع جديد من المسدسات أو نوع جديد من السلطة ثم راح يتحدث.

- تخيل الرجل رئيس المحكمة العليا ما صدق أنه يبقي رئيسا مؤقتا يا أخي سبحان الله! جاء اليوم واتصل بي وقال تعالي أريك، خير يا سيادة المستشار أصلي مشغول قليلا، قال لي: فيه إيه.. مشغول في إيه!؟

قلت بس هذا الرجل لن يأتي بها إلي بر، قلت لنفسي أروح له أحسن وربنا يجيب العواقب سليمة، أصل وزير الحرب لا يطيقه وكما تعرف هناك تعليمات بتجاهله لأننا نعرفه جيدا فيه حاجة في دماغه، المهم رحت للرجل.

- أيوه يا سيادة المستشار أمرك.. أوامر.. نحن جميعا رهن إشارتك.

قام الرجل مزعق في كأنه حلة برستول خلصت غليان  
- أيوه هذا الكلام الفارغ هو كل ما أسمع منكم كلما كلمت أحدا، لكن أنتم عاملين عصابة علي.

- يا افندم العفو لاتقل ذلك.

صرخ بعزم مافيه.

- أنا أقول اللي أنا عايز أقوله.. لا أحد يتحكم في، ثم دخل في الموضوع الذي يريدني فيه وسط هذا الانفعال.

- الآن.. أنا رئيس الجمهورية، ما معني ذلك؟  
صمت وترك الأمر لمفهوميتي، طبعا كان مستحيل أعرف ماذا يريد بالضبط فخرست أنا الآخر مما أشعل ثورته.

- اسمع القصر الرئاسي.. اسمه إيه.. اسمه القصر الرئاسي، يعني ببيعش فيه ويزاول منه كل رئيس يتولي مقاليد الحكم في هذه البلاد أمور حكمه ومهام منصبه ومسئوليات عمله، ولكن أنتم تتفرجون علي منذ أن حلفت اليمين، لماذا لم تأت لي يا أستاذ وتقول لي اتفضل القصر بيتك ومطرحك؟ هل تعرف يا أستاذ أنني يمكن أن أرفدك الآن؟

قلت له بمنتهي الهدوء رغم أن الدم كان يغلي في عروقي.  
- ياريت ترفدني يا سيادة المستشار كي أرتاح من هذه المسئوليات وأذهب لأقعد في بيتي في العزبة أفلح الأرض وأزرع الفدانين بتوع المرحوم أبويا.  
ويبدو أن كلامي هذا أثاره أكثر مما كنت أعتقد، فخبط ورزع في كل شيء أمامه وصرخ.

- أنت بتتحداني.. كما فعل وزير الإعلام.. هناك مؤامرة لتولي مهام الحكم وإذا لم توضع أخباري في صدر نشرات الأخبار في التلفزيون.. اعتبروني منسحبا من هذه اللعبة.

احتريت هل أتعامل معه علي أنه مجنون يثير جنوني أم علي أنه عاقل يثير غضبي حاولت أن أمشي علي الحبل.

- يا سيادة المستشار نحن نكن لك كل احترام وتقدير، لكن لابد أن تعرف سيادتك أن هذا الوضع مؤقت وأن الشعب اختار

مرشحته للرئاسة فعلا وأن الأمر عبارة عن أسابيع قليلة للغاية ويتولي هو مقاليد الحكم فلماذا نفعل أزمات في مراحل مؤقتة؟ هذا وتراجعت أواجه ولكنه قال:

-- ومن أدراك أن الشعب اختاره؟ ما أنتم الذين اخترتموه ياخوي ثم ما أعرفه أن الدستور دستور والقانون قانون ولا بد من تنفيذه حتي لو كانت أوضاعا مؤقتة أو مراحل عابرة.

- يعني أعمل إيه؟

- عايز القصر.

قلت له بمنتهي البراءة:

- إذا كان ولا بد.. يبقى تكلم سيادتك وزير الحرب وإذا أمرني بفتح القصر لك سأطيعه فوراً.

فعاد إلي جنونه الحانق.

- أنا أكلم عسكري كي آخذ منه إذنا بحق دستوري.

اسمع أنا لن أكلم أحدا وأرجو أن تبلغ وزير حرك هذا أنه لو لم يتم احترام منصبى ورئاستى للجمهورية سوف أسافر لأولادي في كندا تاركا الجمل بما حمل ومن بكره.

أخذت كلامه في جنبى ومضيت، اتصلت وأنا في الطريق إلي هنا بوزير الحرب الذي قال لي إن الرئيس المؤقت عصبي وبمجرد ما يهدأ سوف يدرك أن الأمور أكبر من التي يتوقعها، فطلبت منه أن يتكرم بالاتصال بالمستشار في منزله يهدئ من روعه ويطيب من خاطره، وقبل ما أنزل من العربية جاءني

تليفون من سيادة وزير الحرب وصوته مليء بالتوتر والانزعاج.

- مالك يا سيادة الرئيس.

(ابن الرئيس هو الوحيد الذي توقف عند هذه العبارة..)  
قال لي أنا اتصلت بالرجل.. وتحدثت معه في الأول بهدوء ورقة وكان ودودا ولطيفا معي للغاية، ثم قلت له وإن كنت تريد حراسة خاصة أو تشريفة لائحة فإنني سوف أرسل لك أكثر من دبابنة تقف حول بيتك وسرية جنود من سرايا الحرس الجمهوري، فإذا به بعد ما نطقت هذه الكلمات يتشنج ويتهته ويصرخ.

- أنت عايز تحدد إقامتي.. أنت عايز تسجني.. أنت عايز تقتلني.

الحقيقة أنني انفجرت فيه وقلت له:

- أنت مين أنت كي أعمل لك حسابا.. أنت راجل مجنون وأغلقت السماعة وأنا دمي فائر وسكري زائد وقلبي مجهد، فهدأت من خاطر وزير الحرب وقلت له يا سيادة الرئيس: المهام ثقيلة والمسئوليات كثيرة، حكاية المستشار هذه حكاية لطيفة وتضحك.. ولكن ماذا عن الحكايات السخيفة الثقيلة التي سوف تأتي مع مقاليد الحكم؟.. المهم هدأت الرجل وأغلقت التليفون وها أنا أمامكم.

تبادلوا الضحك والمشروعات والآراء والمعلومات وبات مكشوفاً أن علاقتهم أكثر قرباً وأشد وثوقاً من أن يفك عراها

أحد، وكان مدير الرئاسة رمحا قوية عديدة في أيديهم، يشيرون بها إلي أحد فيجزع، ويغمزونها في صدر آخر فيقنع، ويغرسونها في بطن ثالث فيفزع.

بينما جلس ابن الرئيس يشفط دهنون دلالة الغابر، لمح مدير الرئاسة و«ن» يتهامسان ثم قدم «ن» بطاقة صغيرة من تلك التي يوضع فيها اسم المرء وتليفونه ويقدم للناس علي سبيل التعارف والتواصل والتواصي.. أمسك مدير الرئاسة بالبطاقة هاشا باشا لكن لارتجافة ما سقطت من يده وخبطت في حافة المائدة فطارت قسقطت تحت أقدام ابن الرئيس كان ظهرها مكتوبا عليه رقما بالإنجليزية بخبرته عرف أنها أرقام حساب بنكي، الأرقام بأحرف صغيرة زرقاء مكتوبة بخط اليد، وجوارها مكتوب «باسم كريمة».

ارتبك وتوتر «ن» تماما لكنه حاول أن يقلل من أهمية سقوط البطاقة تحت أقدام ابن الرئيس، أمسك بها وقدمها لمدير الرئاسة الذي اشتعل وجهه ألوان لوحة تجريدية، وبحركة مسرحية مزق مدير الرئاسة البطاقة مرتبكا ومهزوزا وقال:

- أنت ناسي إن رقم تليفونك الخاص معي منذ زمن طويل، مشي ناحية باب الخروج في ركبته «ن» يودعه. غابا خارج البيت أكثر مما يلزم أمر الوداع، بين لحظة وأخري كان ابن الرئيس يلمح ظلها في الخارج دون أن يتبين وجوههما أو إيماءات جسدهما. حينما عاد «ن» صرخ في الحاضرين مدهوشا، يرمي عليهم بالدهشة.

- شفتم ماذا حصل؟ لقد اتصلوا الآن بمدير الرئاسة من المطار يخبرونه بأن الرئيس المؤقت وصل المطار وفي طريقه للطائرة المتوجهة إلي مونتريال - لقد كان واضحا أنه اختار توقيت تهديده بعناية- رد عليه ابن الرئيس:

- وماذا سيفعلون معه، معقولة رئيس جمهورية يهرب ولا يحضر الانتخابات وإعلان النتيجة وانتقال السلطة؟

.. في المطار حيث طائرة ضخمة تعج بالمسافرين تستعد للإقلاع في الرحلة الثالثة لها مباشرة إلي مونتريال بكندا، و في زحام وضع الحقائق علي الأرفق والبحث عن رقم المقاعد، والاستفهامات للمضيفات وبكاء الأطفال المبذني بمجرد ركوب الطائرة، والركاب الذين بدأوا قراءة الصحف أو الكتب، والهمسات للتعارف بين راكب وجاره، ومتابعة وجه مضيئة جميلة.. إذا بعربات عسكرية مزودة بالأسلحة الدائرية الآلية تحيط بالطائرة من كل جانب، تجري علي مضمار المطار، تعبر الأسفلت والإشارات البارزة، تحت جسد الطائرة الجهم الباسق، وأضواء كاشفة حارقة النور تفتح زجاج نافذة كابينة القيادة، وأقدام عسكرية بأحذيتها الثقيلة بسيفان الأزياء المموهة تعدو علي الجسر الكهربائي الذي يربط صالات انتظار الإقلاع بطائرة السفر، تقتحم القوات باب الطائرة ممسكة بالمدافع الرشاشة بسنن السنكي البارقة، يمر بين كتل الجنود المتراسة شخص يرتدي بذلة مدنية كاملة وحوله خمسة ضباط ثقيلو الرتب علي أكتافهم.. يمرقون إلي مقعد الدرجة الأولى الذي يجلس فيه الرئيس المؤقت للبلاد.

تلبسها فجأة هاجس أنهما مراقبان، فاتصلت ريتا بيوسف تستدعيه وتصرخ فيه بلهجة لاشك في أنها آمرة أن يحضر لها في بهو الفندق، فلما استجاب كلفه ذلك إقامة ليلة كاملة في العثور علي عنوان شبه سري لشقة صديق لها مدرس بالجامعة الأمريكية اتصلت به ريتا فعرفت أنه في إجازته بالولايات المتحدة طلبت منه أن تستخدم شقته أثناء تلك الإجازة، وافق داعيا لها بالتوفيق مع عشيقها، تركته في وهمه، تلقت منه العنوان ودلها علي وجود مفتاح الشقة في مكان خاص في بابها، أخذته ريتا ودارت ولفت معه علي عنوان كان يدرك وهو ابن البلد أنه عنوان مقصود منه إفشال العثور علي المكان، لكنها أصرت وأكدت أن الفندق غير آمن وأنه يستحسن استخدامه في التضييل حيث إنه مغطي بوسائل تنصت وأجهزة التقاط وأن كل ما يقولانه في السر يظهر علناً لدي كل الأجهزة العاملة في القضية من مكان لآخر، ومن بواب لثان، ومن شارع لشارع، صعدوا العمارات خطأ، وركبوا المصاعد اختلاطاً، وحاولوا طرق أبواب نهرهما أصحابها كانت تقوده

ولا تترك له فرصة للتمرد مهما بدت سانحة، وحين ضجت بالتعب وهدها التضييل المكشوف في العنوان، وأوشكت أن تستسلم للعودة، إذا بهما في الشقة أخيراً.

رمت نفسها علي أول كنبه وقالت إن أمامهما عشر ساعات فقط من الاختفاء بعدها يمكن أن يظهرها في الفندق حتي لا ينشغل عليهما أحد فيسعوا وراءهما، وافقها متخذاً حال الجندي المطيع رغم انفجار مرارته بالتبرم، جلس يرقب تفاصيل الشقة التي كانت متربة ولكنها تتم عن أناقة وذوق رغم غياب أثاث كثير واتساع الفراغات في المكان، وتبعثر الكتب، جهاز الأسطوانات قديم حتي يبدو أنه أثري، والعود المرتكن علي الحائط والتماثيل الصغيرة الملونة لأصحاب الحرف في البلد مصفوفة علي رف رخامي في إبداع.. مروحة سقف بادية القدم ورسوم أطفال مبروزة داخل أطر خشبية ممسوحة النقوش، ما شد نظراته اغتراباً هو علم الولايات المتحدة المكون في زاوية ما علي صاري معدني قصير، وهناك في عمق الممر الممتد في الشقة تتدلي قبة مثل تلك التي يرتديها العم سام في الرسوم التقليدية الفجة وعصاه كذلك معلقة من خيط يتدلي من علي السقف، ابتلع ملاحظاته ناظراً لمروحة السقف وقد بدأت تعمل بعد أن ضغطت علي زرّها ريتا فكان مع دورانها صرير ما تجزع له نفسه حتي تعتاد عليه.. قالت ريتا:

- نبدأ بالمعلومات أم بالتحليل؟

فتحت حقيبتها فامتلاً المكان تحت الكنبه بعشرات الأوراق التي تبعثرت واندلقت من الحقيبة، في غير حساب وبلا تحسب. رد علي سؤالها:

- لقد قرأ كلانا الملفات لنخلط إذن المعلومات بالتحليل.

دخنت سيجارتها الأولى، لكن المدهش أنها أخرجت قاروصة من السجائر وضعتها أمامها كمن يضع سلاحاً في وضع الاستعداد، تأهب أن يتكلم فتهيب أن يبادرها فتغضب فسكت حتي تبدأ هي فبدأت:

- نبدأ بحكاية الخنجر التي تحولت إلي حدوة شعبية في أجهزة المخابرات.. ثبت لنا الآتي:

أ- الخنجر المستخدم في الجريمة هو الخنجر الذي تم إهداؤه للرئيس وكان يعلقه علي حائط غرفة نومه.

ب- الخنجر بقي في جثة الرئيس حتي استخرجه مسئولو الأمن الوطني حين فحصوا الجثة.

ج- خبراء المخابرات الأمريكية يقولون إن الخنجر قديم وفي حالة لا تسمح له بالقتل بهذا العمق وبتلك الطريقة، من هنا فهم يطرحون وجود سلاح آخر للجريمة لكن لا يعرفون ما هو. التفتت له وقالت:

- بالمناسبة هل شاهدت الأفلام التي صورتها كاميرات الأمن الداخلي للقصر الرئاسي؟

رد يوسف:

- لا لم أشاهدها، إنها معك علي ديسك وليس لدي كمبيوتر في الفندق.

أومات برأسها.

- صحيح- صحيح.. سوف نشاهدها معاً الآن  
تدخل هو قائلاً:

- وبالمناسبة أيضاً هل قرأت تقرير الطب الشرعي؟  
قالت وهي تنتظر في الورق دونما أن ترفع رأسها له  
- آه.. تافه ومختصر.

مساحة صمت لم يعبرها أحد، لم يعرها يوسف اهتماماً، أما  
ريتا فقد كانت تنتظر أن يحدث شيء خارجها.. نظرت له في  
استغراب.

- لماذا لا تتكلم يا يوسف؟

- أبداً.. لقد عرضت معلوماتنا عن الخنجر، ثم لم تفسري  
شيئاً أو تدلي برأي.

خلعت نظارتها وواجهته بنظراتها.

- وافرض يا أخي ليس عندي تحليل.. هل نسكت ولا

نشتغل؟

قل أنت رأيك؟

- آه إذن ليس لديك رأي.

تنفست غضباً.

- جري إليه يا يوسف، عارفة أنك تريد أن تقول إنني  
عاجزة عن حل شيء.. حد قالك إنني أجاثا كريستي.

رد في برود:

- إذن فهمت وعرفت هذا هو المطلوب منا ألا نصل  
لشيء، إنهم يعرفون أننا لسنا خبراء جريمة.  
بادرته.

- لكننا خبراء حقيقة.

صمت فأكملت:

- لماذا لا تهتم يا يوسف، أليس المقتول رئيسك؟  
تراجع يوسف برأسه وتقدم بكلماته.  
- هل تقصدين أنني لست حزيناً علي مقتله؟  
- نعم.

تتهد يوسف وقال لها في هدوء:

- هل أفهم هذا باعتباره استجواباً؟

علي غير المتوقع ردت هادئة:

- أنت مازلت سيئ الظن بي.. لكن عموماً دعني أقول لك  
إنني أميل للإعجاب بك، وأفهم استسلامك لغضبي ولقيادتي  
رجولة وحكمة ليس فيها ضعف ولا هوان.

كانت قد جلست علي السجادة المفروشة في الصالة،  
واستندت بظهرها علي الكنبه ومدت ساقها للأمام وفوقها  
أوراق ملفوفة وكان يوسف قد اكتشف وجود مقعد هزاز بجواره  
فلم يجلس عليه، اكتفي بأن يهزه فيتحرك فيتابع حركة المقعد  
في تأمل، قرر أن يقطع عليها الطريق في هذا الحوار ودخل في  
تحليله فوراً بهدوء يصل إلي حد البرود.

- عندما أنوي أن أدخل غرفة نوم الرئيس لأقتله، معني ذلك أنني أعرف كيف سأدخل إلي غرفته حتي سريره؟ وأنني أعرف أنه يمكنني الخروج؟ ثم لا يجب أن أنسي شيئاً هاما وهو بأي شيء سأقتله، سأخفقه مثلاً، أم سأضربه بالرصاص؟ أم سأطعنه بالخنجر؟ لكل من هذه الطرق وسيلتها ومن المستحيل مهما بلغ غبائي وبلاهتي - وهذا أمر مستبعد حيث إنه من الصعب أن يصل غبي إلي موضع يسهل معه دخول غرفة الرئيس- فلن أترك للصدفة اختيار وسيلة القتل!

غاصت ريتا في كلام يوسف ثم أطفأت سيجارتها (وكانت قد وصلت للسيجارة الرابعة تقريبا).

- أو ربما كنت أدخل غرفة نوم الرئيس وليس في نيتي أن أقتله.. النية ظهرت عندما دخلت ورأيت بعد مناقشة حادة، ومواجهة غريبة!

أوماً يوسف بإعجاب.

- كلام رائع يا دكتورة ريتا.. نخلص من هذا إلي أن القاتل يمكنه دخول غرفة نوم الرئيس وهذا يحصر دائرة المتهمين داخل القصر الرئاسي.. هذا واحد.

إن القاتل إما أنه كان ينوي قتل الرئيس ومن ثم لم يجهز نفسه بسلاح للجريمة لأنه كان يعرف أن السلاح قد وفره عليه الرئيس، إنه بالداخل معلق علي الحائط، إنه الخنجر الذي يعرف القاتل أنه معلق هناك.. إذن فالقاتل دخل غرفة نوم الرئيس من

قبل وهذا يحصر دائرة المتهمين داخل القصر الرئاسي في الذين يمكنهم دخول غرفة نوم الرئيس.. هذان اثنان.

أعود إلي تقرير الطب الشرعي وما قلته عنه صحيح تماماً. إنه تافه ومختصر، لكنه يطرح سؤالاً مهماً.

- صرخت ريتا.

- عرفته.

ابتسم يوسف وحثها علي الكلام بإيماءة من رأسه، فقالت:

- إذا كان الرئيس نائماً فجاء شخص ليقته، فإنه لن يظل نائماً سوف يصحو مفزوعاً فماذا سيفعل؟

القاتل يضع يده علي فمه وبالأحري يطعنه في صدره، الرئيس يقاوم يضربه بيديه ينشب أظافره في رقبته يحاول أن يضرب الجرس بجواره، يحاول أن يعض كف القاتل، يخبط برجليه يهز السرير ويرفع ساقيه محاولاً ضرب القاتل.

إذن أدرك يوسف أن لماحيثها لامة.. ردد معها:

- إذن الرئيس لابد أن يقاوم القاتل.

ردت عليه كالصدي:

- ولا توجد أي آثار لهذه المقاومة لا في تقرير الطب الشرعي ولا في أقوال كل من شاهدوا جثة الرئيس ومسرح الجريمة.

صرخ يوسف مصفقاً:

- بالضبط.

ارتجت تماماً وكأنها فتحت مغارة علي بابا



- ثم إذا كان الرئيس قد قرر عدم تصوير جناحه وغرفة نومه بأجهزة المراقبة فإنه بالتأكيد كان حريصا علي أجهزة إنذار تكشف الغرباء. إذن القاتل إما كان يعرف أماكن هذه الأجهزة؟ أو أنه استطاع أن يعطلها.. أو..  
أكمل لها يوسف جملتها الناقصة.

- أو أنها اشتغلت فعلا ودقت أجهزة إنذار لكن أحدا.. همست.

- لم يسمعها.

- أو لم يكن مطلوبا أن يسمعها..

رددت.

- سمعها وسكت

انتفضت

- نحن إذن أمام مؤامرة

قال لها بثبات وإيمان:

- مؤامرة ضد حاكم ظالم غاصب مكروه مجمد علي عرشه أكثر من ثلاثين عاما.. من سيهتم إذن.. من سيطلب ثأره.. إن الناس ستفرح بموته، كما أنها ستجزع خوفا مما قد يحدث من فوضى بعد موته، عندما يتعود الناس علي سماع كلب مسعور ينبج طول الليل فيحاولون إقناع أنفسهم أن نباحه ليس إزعاجا أو تهديدا ولكنه يحرس المنطقة من اللصوص.  
أكملت ريتا

- وحين يغيب هذا النباح بعد سنوات طويلة تعودوا فيها عليه يبدأون فعلا القلق خشية أن يأتي اللصوص.

قام يوسف وقال:

- هنا.. تأتي أطراف المؤامرة لتحل في المكان الخالي فورا.

أحرقت السجارة الثامنة أصابعها.

- كلاب جديدة تتبح مكان الكلاب القديمة.

رفعت رأسها له كرجل مطافئ مهود في لحظات فحص

آثار الحريق لمعرفة سر اشتعاله.

- هل تعرف أن أوراق الحرس الجمهوري تكشف أن

خمسة من حرس تلك الليلة من أبناء الوزراء سواء حاليين أو

سابقين وأولاد مسئولين؟

بدأت في فر الأوراق وتلاوة الأسماء.

- ابن وزير الاقتصاد، وابن وزير العدل، وابن وزيرة

الشئون، وابن نائب رئيس وزراء سابق ورئيس مجلس إدارة

بنك حالي وابن مندوب البلد في الأمم المتحدة؟

توقف يوسف عند هذه الأسماء و أمعن في ملامح وجهها

المنكسرة.

- ماذا يعني هذا؟

- الفساد والواسطة.

- دعك من هذا.. أنا أسأل ماذا يعني للجريمة؟

رجعت برأسها للوراء واكتشفت السر.

- آه.. هذا سر الإفراج عنهم بسرعة ولم يستغرق التحفظ عليهم كثيراً من الوقت كما هو مفروض في مثل هذه الحالات الخطيرة ثم عادت فقالت:  
- هل لهم ضلع في الجريمة أم أنهم مجرد ضباب لإخفاء الأثر؟

رفع كتفيه وضرب المقعد الهزاز بقدميه.

- الله أعلم.

باغتته بالسؤال:

- يوسف.. لماذا لم تتكلم؟ لم تعارض أبداً؟ لم ترفض أبداً؟  
لماذا أنت - مثل غيرك - مستسلم، متقنون خائفون في هذا الوطن؟

زم شفثيه وتجددت جبهته وانحنى عيناه كمن ينحني ظهره..

همست - آسفة.

وضع كفيه في جيبه بنطلونه وجلس - أخيراً - علي المقعد الهزاز: أمسك سيجارتها التي لا تزال علي اشتعالها لم تسحب منها نفساً بعد فوضعها بين إصبعيه ثم بين شفثيه، دخن وحين أشعلت لنفسها سيجارة أخرى كان يتكلم ببطء وبحزن.

- جدي رضوان كان رجلاً جميلاً رقيقاً خجولاً وعجوزاً ونحيفاً وقصيراً، مصلياً وقارئاً للقرآن.. كان هذا هو الحضن الجميل الذي يتلقاني حين ذهابي في الصيف إلي بلدة والدي في الجنوب، لم أكن أعرف وقتها أن جدي كان قد خرج من السجن

وأنا مازلت في العام السادس من عمري كان قيادة بارزة في حركة الإخوان المسلمين، بل كان عضواً في مكتب الإرشاد وهو أعلي المراتب التنظيمية في هذه الجماعة، مكث في السجن ١٦ عاماً وخرج، بدا لكل معتزلاً وإن كان قد تحرك في العمل السياسي في فترة مصالحة مع الحكومة ربما أهمته أنها تريد للجماعة أن تعود وله أن يعمل، وحين كنت صبياً دون أن أكون يافعاً، رأيت ذات صيف مئات الجنود بأسلحتهم وهراواتهم وعشرات السيارات البوليسية كلهم يندفعون ناحية منزل جدي ويدخلون ويكسرون كل شيء أمامهم وسط الصراخ والنعيق والنحيب من نساء البيت، ومع صيحاتهم المتكبرة المتجبرة يأخذونه، يرفعونه من تحت إبطيه، تعلقته به صارخاً باكياً فما كان من أحدهم إلا أن صفعني علي وجهي ورمي بي إلي أحد الجنود الغلاظ الذي رفعني عن الأرض وألقي بي في صندوق سيارة الاعتقال مع جدي، والمذهل المذل أنهم اقتادوه إلي مقر مديرية الأمن هناك وأنا معه، وفي قلب مكتب أحد كبارهم أخذوا يضربون جدي أمامي ويصفعونه علي قفاه ويعرون جسده حتي انكشاف العورة وبعد ساعات من الضرب والركل والسب الإهانة، جاءت جملة أحدهم لتشطرنني شطرين، لنفجر قلبي شطايًا زجاج يخر لها جسدي كله دماً للأبد.. قال الرجل وهو يمسك بعضو جدي:

- تحب نخليك ت... حفيدك.. ولا نخلي حفيدك ي...

قدامنا؟

لم يحدث لا هذا ولا ذاك.. لكن ما حدث أكثر لعنة من التهديد نفسه، أفرجوا عن جدي ثاني يوم، كانت مجرد رسالة له وللجماعة، ورغم أن الـ ١٦ عاما من الاعتقال والتعذيب لم تفقد جدي ابتسامته لكن الساعات التي قضاها أمامي مهانا معذبا مهذور الروح والكرامة أفقدته النطق.

هل تعرفين ماذا حدث؟

كان جدي ينظر إليّ ثم كأنه لم يرني.. هل سمعت أبداً عن أحد يفقد حاسة البصر حين ينظر لشخص واحد فقط.. كان هذا جدي حين كان ينظر إليّ - لحفيده - مات جدي بعدها بعامين ولم تقلح معه عقاقير ولا أدوية ولا علاج ومات شيء مني لم يصح أبداً.

أرهقتها اعترافات يوسف، كانت تبكي في صمت وضراعة لكن سيل فيضانه كان لا يزال يحمل حجارته وصخوره المدخرة في خزانات القلب عميقة العور.

قال يوسف:

- المأساة الملهاة أن جدي لأمي كان واحداً من أبرز قيادات الحزب الشيوعي، وما جمع إلا ما وفق، كان يدخل سجنًا ليخرج إلي سجن، ومازلت أذكر يوم دفن جدي رضوان، إذا بجدي الزعيم الشيوعي العظيم يقف باكياً ملتهب الدموع فوق قبر جدي الإخواني يخطب في الناس حتي هرب بعض الناس من الجنازة ومن دفن الجثمان خوفاً علي أنفسهم كان يخطب فيهم عن عظمة الفقيد وقوة إيمانه وصلابة أفكاره

وصمود روحه وكبرياء رسالته، وأخذ يعدد فضائله وشماله ويلقي الآيات الكريمة من القرآن فتهتّر معها القلوب ويرثيه بالشعر العربي القديم فترتجف الأفئدة.

هذا الجد نفسه بعد خمس سنوات كان ينضم للحزب الحاكم ويخطب في عظمة الرئيس، ذلك الرئيس المقتول، ويؤلف في مدائحه الكتب والمقالات وكان وكنت أتمني أن يفقد كلانا حاسة البصر حين نظر كل منا إلي الآخر، ومن يومها قررت أن أهجر السياسة تماماً.. أن أبعد عنها حتي الغرق في اللامبالاة، في العدمية، في العيب، كنت كلما نجحت وتفوقت في القانون، زاد قسمي ألا أعمل بالسياسة وكلما كنت أتعرض لإغراءات أو تهديدات بماضي أجدادي كنت ألوذ بالسلبية، كان جدي يزورني في المنام وأراني أعتدي عليه فأقوم مفزوعاً وأنوي أن أعمل لهذا النذير وأن أدافع عنه وعن غيره من المظالم، فإذا بجدي يزورني في المنام وأراه يعتدي عليّ فأقوم مفزوعاً وأنوي أن أعمل لهذا النذير أما المصيبة التي كادت تؤدي بحياتي البدنية والعلمية يوم جن جدي الشيوعي فوقف في مؤتمر عام للقوي السياسية احتشد لإعلان تأييد الرئيس في دورته الرابعة حينذاك، فإذا به يخطب خطبة يسجلها التاريخ بحروف من نور ضد الرئيس وحكمه وظلمه، بينما كان الكل مذهولاً مبهوراً إذا به يخطب عن جدي الإخواني ويذكر الفقيد «الذي يبيعه الإخوان الآن حين يجلسون بجانبني لتأييد الرئيس» وينشد أشعاراً ويغني غناءً مبجوحاً لعجوز يلعن فيه الظلم والقمع وكانوا يشدون

ويضربونه ويجرونه علي الأرض وهو يقاوم بعمره الذي تجاوز السبعين ويصرخ في الجالسين.

- يا خونة، يا جبنا، يا منافقين، يا كلاب.

وحين وصلت به الشرطة خارج القاعة.. كان قد مات.. وكان قد تطهر بدمه من ذنبه إلي الأبد.

تخيلي أنت ما حدث بعدها.. فصلوني من الجامعة، وألغوا تدريس مؤلفاتي وسحبوا كتيبي من الأسواق والمكتبات ونبذني زملائي، وهجرني تلاميذي وتخيلي أنت ما حدث بعدها.. كتبت التماسا واعتذارا وقعناه أنا وأمي للرئيس حتي يعفو عنا، أما الذي غفر لنا ذنب جدي أن أُمي رفضت أن تتسلم جثمانه وعدت أنا إلي الجامعة والحياة بثمن بخس للغاية أن جدي قد تم دفنه في مقابر الصدقة وظلت مقبرته في مدافن عائلته فارغة موحشة، غمرني اكتئاب وحزن، وازددت انغزالا واعتزالا، كنت أري دوما مشهد الأب الذي قتل ابنه لأنه إرهابي حسبما زعمت الحكومة، وكيف استقبله الرئيس فرحاً مبتهجاً والتقطت لهما الصور والرجل يمسك بالبندقية التي قتل بها ابنه، كتبت الصحف واحتفت الإذاعات ومحطات التليفزيون بالرجل، وكانوا يلتقون به في كل برنامج يمطرونه بالأسئلة عن كراهيته لابنه عن كفره ببنوته، كنت أشعر، جلادين في قرون الإمبراطوريات الأوائل يجلدون بأسواطهم الرجل في ميدان عام هام يتدافع الناس لرؤية الضحية بين منقبض الصدر أو متحمس للمشاهدة كنت ألمح في عيون الرجل هزيمة وانكسارا وضياعا وتوهانا،

عيونه زائغة، وشفاهه مرتعشة، وبدنه متخدل، وكانوا لا يرحمونه وهو يتلقي أسئلتهم ومسامير تطلب جسده، ورصاص يشق صدره ولما هدأت الضجة وانسحبت عنه العيون كان يظهر لي في كل لحظة كأني هو، كأنه أنا، أحيانا كان يبدو هو جدي أو أبو أنا جدي أو يبدو جدي هو، ولما امتلكني تماما قررت أن أذهب إليه تسترت بالليل وسافرت متخفيا تقريبا ووصلت إلي قريته النائية، كان كل شيء عنه قد تم ابتذاله في التليفزيون فبات معروفا وبات مفضوحا كل ما له صلة إليه من اسمه وعنوانه حتي جيرانه وأقاربه في بلدته، ومن ثم كان الوصول إليه سهلاً لكن الكلام معه كان مستحيلا، كان بيته مثل كل البيوت لكن كانت له رائحة حزينة حتي تعفن فيها الحزن ولما وصلت إلي داره واستقبلتني زوجته المكشوفة وعيونها ملأى بالتوجس والتخوف سألتني:

- حضرتك حكومة؟

فقلت لها لا، لم تصدقني لكنني حاولت أن أكسب تعاطفها فقلت:

- لقد جئت لأطمئن عليه وعلي صحته.

تبلمت السيدة بالدموع وقالت:

- لو كنت حكومة تبقي لازم تعرف إنه سافر عند «أخوه» علي البحر..

كان الأمر غامضا عليّ تماما فأعدت لها ضبط الحديث.

- أنت زوجته.. أليس كذلك؟.. (هزت رأسها أنا نعم)..  
هل زاره أحد من الحكومة بعد ما عاد من العاصمة؟ (هزت  
رأسها أنا لا).. إذن لماذا تشكين أنني من الحكومة؟.. أنا أراه  
غلبانا ومظلوما وعابز أصبره وأطمئن عليه.

فتحت الباب وأذنت لي بالدخول مشيت أمامي وأنا وراءها  
في ممرات متقاطعة مظلمة وهي تمسك بمصباح من الجاز،  
يدها تدل نفسها وتدلني علي طريقه عند غرفة ذات باب خشبي  
كبير وجههم وقفت وفتحت الباب دخلت وراءها فإذا بالرجل راقد  
بلا حراك علي السرير متأملاً في السقف ألقيت عليه السلام  
والتحية فلم يرد واقتربت لأسلم عليه فلم ينتبه تأملته لحظة  
انخطف فيها قلبي وانسرفت فيها روعي لقد أدركت أنه ميت..  
هل كانت السيدة تعرف هل كانت تفهم أنه مات؟ لا أعرف فقط  
سألتها منذ متي وهو علي هذه الحال قالت:

- معرفش من ساعة ما جه من عند الحكومة والتليفزيون،  
لا أكل ولا شرب وقال لي أنا تعبنا قوي دخل ينام ومن ساعتها  
لم يتحرك ولم يرد عليّ قبل بس ما ينام قال لي لو حد سأل  
عليّ من الحكومة قولني له إنه سافر عند أخوه علي البحر..

كانت ريتا منهارة من البكاء تتماسك حيناً ثم تعود فتتخبط  
في زخم الدموع اللاطم، تنهض من حزنها لتتعثّر في بكاء  
ونحيب آخر، كانت تتلقي كل كلمة قالها وحكاها يوسف علي  
أنها قطعة لهب تصب في شريان قلبها حريقاً، كانت ملهوفة  
عليه وآسفة علي حكمها المتطرف علي سلوكه وفي أحايين من

الحكاية كانت ترتعش كل أعضائها وترتجف شفتاها.. قام  
يوسف فأمسك بمناديل من ورق وأخذ يجفف دموعها ويربت  
علي كتفها ويمسح علي شعرها وقد تحول بياضها إلي كتلة من  
حمرة مضرجة حرارة لهيبة.. قال لها مبتسماً:

- أسأل الآن نفسي وأسألك هل اختارتني الحكومة هنا من  
أجل هذا الذي تعرفه عن تاريخ عائلتي، أدركت أنني أكره  
الرئيس وأن قلبي زغرد عندما عرفت أنه مات وأن ثأري  
تقضي عندما عرفت أنه مات مقتولاً. إنهم يقولون لأنفسهم لن  
يعمل هذا الأستاذ أبداً علي محاكمة قاتل الرئيس بل ربما يعطيه  
وساماً.. هل ضحكوا علي الأمريكان بحكاية تفوقي الدولي  
وشهرتي العلمية في العالم وموسوعات القانون التي تضم اسمي  
وصورتي وسيرتي.. ربما.. مسحت مخاطها وقالت له في  
صوت متهدج مبجوح:

- لأنك تكرهه لا بد أن تعرف من قتله.. إنهم لا يعرفونك  
جيداً.. إنك عادل تحب العدل وتعمل له وتموت من أجله، أليس  
كذلك.. أنا أريد عدلك قبل ذكائك.. علمك قبل مشاعرك.. روح  
أجدادك قبل حزن حفيدهم.

أمسكت بكفه بحرارة حاول أن يفلت

- لقد تأخرنا.. يجب أن نذهب إلي الفندق

هزت رأسها رافضة.

- لن أذهب إلي الفندق أنا أريد أن أنام هنا.. وفي  
حضنك.. قامت ففردت ذراعيها وضمت رأسه إلي صدرها

وأخذت تقبل بعيونها الدامعة وشفتيها المبللتين وجهه وعينييه ورأسه.

بدأ بكاء يوسف دموعا سائبة منسالة في صمت ثم زعرت وكشرت ثم بدأ صوته يتحسرج يختنق ثم بات بكأوه نحيباً مهتزاً ومرتجا ومتواصلاً كأنه لن يضحك بعدها أبداً.

في الصباح أيقظته من النوم عابثة بالأوراق في وجهه، تضرب بها أنفه، صحا، نظر لها وهي تبسّم مستندة بمرفقها عند أعلي الوسادة فوق رأسه فيري جزءاً من إبطها وبطن ذراعها الواضح ووجها الصبوح المغسول من الدموع ابتسمت وقالت:

- هل تحفلون عندكم بعيد ميلادكم؟

استغلق عليه السؤال في البداية لكن عندما نفّض النوم من مقلتيه فهم.

- حسب من هو هذا الشخص.. طبقته الاجتماعية.. اهتمام أسرته لماذا تسألين؟

أمسكت بورقة من ملف الحرس الشخصي وقالت:

- لأن ليلة اغتيال الرئيس كانت يوم عيد ميلاد أحد ضباط الحرس المكلفين بحراسته ليلتها.

رفع كتفيه استخفاً.

- إذن لم يحتفل بعيد ميلاده.. ربما بكر به يوماً أو أجله يوماً ولم يحتفل إطلاقاً.

هزت رأسها.

- ممكن طبعاً.. ممكن جداً.

عندما أوشكا علي الانتهاء من ارتداء ملابسها ضحكت فجأة وقالت:

- لن أقول لأحد إنك تقريباً لا تعرف ما هو الجنس؟

خذلته ضحكته فقد بان مرتبكاً أضافت هي:

- هل يمكن أن يظن أحد أن أقصي ما فعلناه ليلة أمس هو البكاء كل في حزن الآخر.

ضحك وهو يقول:

- أليس هذا هو الجنس؟! عموماً عندنا هذا اسمه جنس.

ضحكت معه وقهقهت وحين همّا بالانصراف رجعت

بسرعة تشد ورقة من ملف وتضرب رقما في هاتف.. رد

الهاتف بعد فترة وسمعها يوسف تقول:

- منزل حضرة الضابط سعد سالم؟

- أيوه يا افندم.

- المدام موجودة؟

- أنا المدام.

- أهلاً بك يا مدام.. الحقيقة نحن شركة بريد وعندنا

رسالة.. إنها متأخرة للغاية، عذراً فقد أهمل موظف الشركة

عندنا وتم عقابه فعلاً.

- ما هي الرسالة؟

- إنها تورتة مكتوب عليها عيد ميلاد سعيد يا سعد..

ومكتوب عليها التاريخ مع كارت توصية للشركة بتوصيل

التورته في لحظة الاحتفال بعيد الميلاد، ألم يكن في اليوم  
الفلاني (وحددت ريتا ليلة اغتيال الرئيس)؟ قالت زوجة  
الضابط:

- نعم.. فعلاً.. لكن غريبة لم يذكر لنا أحد من أصحابنا  
موضوع هذه التورته رغم أنهم هم الذين دبروا الحفلة وأعدوها  
فجأة.

ثم لماذا طلب صاحب الهدية من شركة بريد إرسالها،  
وليس من محل أطعمة عيد الميلاد؟

- في الحقيقة لا أعرف.. لكن عموماً سوف نستبدل  
التورته بأخري بنفس المواصفات لكن طازجة ونرسلها إليكم  
وتبقي مناسبة للاحتفال بعيد ميلاده مرة أخرى، قالتها في شيء  
من المداعبة والإيحاء بليلة زوجية أخرى، ردت الزوجة:

- يا ستي متشكرين.. لكن سعد نفسه مسافر.

- في رحلة؟

- لا.. في شغل.

- طيب ما هي فرصة نبعثها له في الشغل.. آه.. نسيت  
إنه ضابط.. أكيد هذا المكان منطقة عسكرية.

باحث الزوجة فوراً

- لا.. ماخلاص.. استقال وترك حياة الضباط ويعمل منذ  
أسبوعين مديراً لقرية سياحية.

نظرت ريتا إلي يوسف بنظرات توحى عن نفسها أنها  
امرأة قديسة.

- ممكن أعرف اسم القرية؟

لما عرفت.. وضعت التليفون فوراً ونظرت ليوسف مثبتة  
نظراتها في عينيه وانتظرت منه أن يتكلم.

- احتفل بعيد ميلاده الغبي.. وهو في حراسة رئيس  
الجمهورية؟

- أو لم يذهب إلي حراسة الرئيس أساساً ليلتها؟

- إذن كيف ظهر اسمه في كشف حراس هذه الليلة؟

قالت ريتا وهي مستثارة تماماً من الاكتشاف:

- هل تعتقد أننا وجدنا القاتل؟

رد يوسف وهو ممتلئ إحساساً بالخطورة:

- أعتقد أن هذا الصباح منيل بستين نيلة.

أفزعتهم ثورته، فقد قام فجأة من علي المقعد الذي يتصدر  
مائدة الاجتماعات في مبني مجلس الوزراء وهو منفعل لا يفتعل  
العصبية والثورة، بل كان صادقا للغاية في توتره وارتجافه  
تكهرب الجو تماما، شعروا جميعا أن تحت مؤخراتهم مقاعد  
للمصق الكهربائي، صرخ فيهم بعزم ما فيه من حيل مهدود.

- هو أنا أقل من أي واحد قعد مطرحي.

كانت الإجابة مؤكدة بالنفي فخرجت من أفواه كثيرين منهم.

- لا.. طبعاً..

تبادل رئيس الوزراء نظرات مشدودة مع وزير الداخلية  
لكن رجل الأعمال «ن» شاء أن يخفف غلواء الجو (عندما  
تحدث ثلاثة مليارات دولار علي لسان أحدهم فإنها ولاشك  
تخفف غلواء الجو).. قال «ن»:

- أعرف أن وجودي هنا مع بعض أصدقائي من رجال

الأعمال وجود شرفي لا يؤثر في أي من قراراتكم.. لكنني  
أتدخل هنا باعتباري مواطنا يحضر اجتماعا عالي المستوى..



فإذا كان لي أن أتحدث مندوبا أو ممثلا عن المواطنين فأذنوا لي بالكلام.. (ثم ضحك) أو خلونا أصحاب أحسن.

هدأ وزير الحرب وجلس.. ربما من التعب.

- والمواطنون مش ح يلاقوا أفضل ولا أحسن منك مندوبا عنهم ثم أنا يا أخ «ن» باعتبار رجال الأعمال في البلد جزءا من الحكم، جزءا أصيلا من سلطة اتخاذ القرار، هو البلد كله عايز إيه، عايز رفاهية رخاء عمل، فلوس، طيب كل هذا سوف يأتي من أين؟ أليس من شركاتكم ومصانعكم وأعمالكم.. أنت هنا لا تقل عن أي وزير في المجموعة الوزارية الخاصة واسأل رئيس الوزراء ألم أطلب أنا حضوركم معنا؟ أو ما رئيس الوزراء:

- نعم طبعاً.. طبعاً.. وحددكم بالاسم.

نظر وزير الحرب لرجل الأعمال وزملائه.

- شفتم.. إذن تكلموا بكل حرية واعتبروا أنفسكم مسئولين معنا عن هذا البلد.

قال «ن»:

- أشكر لسيادتك هذا الكرم الكبير.. وأحب أن أتدخل فقط لأقول إننا جميعا نحب هذا البلد ونتمنى مصلحته ونعمل علي تقدمه كل في موقعه، يعني اللي بياخد مرتب خمسمائة جنيه في الشهر واللي مشغل ثلاثة أو أربعة مليارات جنيه في البلد.. كلنا واحد في الوطنية وكلنا بنعمل علي قد طاقتنا وموهبتنا.. لذلك أنا لا أجد خلافا في وجهات النظر التي عرضت الآن، فالذي

يريد أن تخرج نتيجة الاستفتاء القادمة بنسبة ٨٥% موافقة يسعي أيضا إلي إظهار البلد في صورة الذي يستعد لنقلة جديدة في حياته والذي يريد أن يعرف رئيسه الجديد حتي يأمن له تماما.

عاد وزير الحرب لثورته لكن هذه المرة علي درجة أقل وبلهجة أخف وظل جالسا علي مقعده.

- يعني يرضيك إن كل رئيس انتخب قبلي في كل مدد الرئاسة كانت النسبة ٩٩,٩% موافقة وتأتي عندي فتصبح ٨٥% مرة واحدة هذا معناه إيه أكثر من إن الناس لا تريدني ولا تثق فيّ أو لا تعيرني أهمية.

قال «ن»:

- يا ريس أنا لم أقل ذلك.. أنا قلت إن وزير الداخلية لما قال إن نسبة ٨٥% كنسبة أول استفتاء نسبة معقولة، كان ينطلق من حسن نية وفهم للأمور بشكل له احترامه.

هتف به وزير الحرب:

- لأ.. لأ.. دعك من رأي وزير الداخلية، أنا عارف إنه يقصد كل خير، لكن تفكيره السياسي علي قده.. قل لي إنت رأيك هل تريد نسبة الاستفتاء ٩٩,٩% أم ٨٥%.. ها.. قل لي إنت رأيك الآن.. بوضوح وبصراحة.

رد «ن» فوراً:

- طبعاً أتمنى النسبة التي يثق الشعب فيها برئيسه، والتي تعطي رسالة للجميع أن الرئيس الجديد يحظى بشعبية

وجماهيرية تجعله يتخذ القرارات التي يراها بمنتهى القوة والشجاعة والحزم.

ارتفعت دقات قلب وزير الحرب وقال:

- يعني نسبة كام؟

قال «ن»:

- ٩٩,٩٩% نسبة مطمئنة ومعقولة.

تحسس وزير الحرب قلبه الذي كاد ينفث في انتظار الإجابة ونظر إلي رئيس الوزراء الذي هتف:

- والله يا سيادة الرئيس أنا أراها نسبة معقولة وجيدة جداً، لكن ليست هي النسبة المهمة؟

- إزاي؟

- طبعاً فيه نسبة أهم لا أحد يأخذ باله منها رغم أنها المقياس الحقيقي لرضا الشعب عن الرئيس والإيمان به والسير وراءه والثقة فيه.

صرخ وزير الحرب:

- ما هي هذه النسبة.. قلها وجعت قلبي.

انتفض رئيس الوزراء بالحكمة التي تحشو عقله

- نسبة المشاركين يا أفندم.. كم واحد ذهب لصناديق

الاقتراع وصوت في الاستفتاء.. أصل ممكن تبقي نسبة الموافقة

علي انتخابكم رئيساً للجمهورية ٩٩,٩% فعلاً، لكن نسبة

المشاركة والتصويت مثلاً ٦٠% أو ٥٠% وهذه نسبة تقول إن

الإقبال كان ضعيفاً وأن الرئيس ليس محل جماهيرية أو ثقة.

أوماً وزير الحرب وهز رأسه وتحسس قلبه.

- صحيح.. هذه فكرة وجيهة لم تكن في بالي.

ثم نهر وزير الداخلية بنظراته الحادة الموجهة.

- هل كانت في بالك يا سيادة الوزير؟

قال وزير الداخلية وهو يشعر أن اليوم لن يفوت:

- أنا هنا يا أفندم لتلقي الأوامر.. وكل ما تتفقون عليه

سأنفذه وستجد إرادة الشعب متطابقة تماماً مع رغبة سيادتكم.

أعجبه كلام وزير الداخلية فنظر إلي وزير الإعلام وسأله:

- النسبة الأخيرة في استفتاء رئيس الجمهورية.. ماذا

كانت؟

قلّب وزير الإعلام أوراقاً أمامه، لكنه لم يتكلم.. فهو لا

يتذكر ولم يستعد لمثل هذا السؤال، فاستجدت نظراته بوزير

الداخلية وقال:

- علي ما أذكر كانت ٨٦% يا سيادة الوزير.. أليس

كذلك؟

وزير الداخلية أدرك أن وزير الإعلام يضرب رقماً

والسلام.

قال خشية أن يعرف وزير الحرب حقيقة الرقم فيما بعد

فيطلع دينه.

- علي وجه الدقة كانت ٩٣,٦% لكن أريد أن أنوه أنه كان

الاستفتاء الخامس وكانت الناس تعرف أن الرئيس ناجح ناجح

وكانت مطمئنة إلي النتيجة ولم تكن متحمسة للذهاب إلي

صناديق الاقتراع، حيث بات الأمر علي مدي ٣٥ عاما شيئا عاديا وروتينيا لكن في مثل هذا الاستفتاء الجديد هناك أحداث جديدة ووجوه مختلفة والناس حريصة على أن تدلي بصوتها للمرحلة القادمة.

آمن وزير الحرب بما قاله وزير الداخلية تماما فتدخل رجل الأعمال «ر».

- أظن أن الناس بكل طوائفها وشرائعها وثقافتها سوف تخرج لتدلي برأيها في هذا الاستفتاء التاريخي لذلك لابد أن تكون نسبة المشاركة نسبة تاريخية وأنا أقترح أن تكون ٩٩% هي أيضا.

أحس وزير الحرب أن الرقم جميل لكن فيه بعض المبالغة فنظر إلي وزير الداخلية الذي خاف أن يبدد فرح وزير الحرب بالرقم فقال:

- قوي.. قوي ممكن جدا.

لكن وزير الإعلام تدخل بصوت يبدو عاقلاً:

- لكن لابد أن نحسب نسبة أصوات الموتى والمسافرين للخارج والمجندين وهذه وحدها أكثر من ١% كثيرا.

وزير الحرب كان رشيدا حين قال:

- صحيح.. لا نريد للنسبة أن تعلق إلي درجة تفقد معها مصداقيتها.

تفكر يا وزير الداخلية النسبة التاريخية التي يريدتها السيد «ر» ممكن تكون كام؟!

قال وزير الداخلية:

- حتي تجمع بين المصادقية ودليل الشعبية أفكر نسبة إقبال تصل إلي ٩٧% تبقى نسبة كويسة جدا وأعتقد أن سيادتكم لو وافقت فإن الشعب لن يخذلك أبدا وسيصل إلي هذه النسبة بسهولة.. بسرعة وبحماس سأل وزير الحرب:

- ما رأيك يا سيد «ر» هل هذا يحقق وجهة نظرك؟

قال «ح»:

- جدا يا سيادة الرئيس.. إنها نسبة تاريخية ومطلوبة.

هنا قال وزير الإعلام:

- طيب طالما اتفقنا علي أن نسبة المؤيدين والموافقين ستصل إلي ٩٩,٩% ونسبة التصويت والإقبال سوف تكون ٩٧%.. بقي أن نعرف عددا مهما للغاية وهو عدد من سيقول لا.

رد رئيس الوزراء بمبالغة في الرفض.

- وهل لابد أن يكون هناك من يقول لا؟

فقال وزير الحرب بسرعة وحماس بالغين:

- طبعا- إن هذا دليل حرية وديمقراطية ولابد أن نحرص عليه ونعلم الناس أننا لا نخشي من كلمة «لا» أبدا فليس لدينا ما نخاف عليه أو نخشي منه ولذلك من الضروري جدا أن يكون هناك عدد لا بأس به يقول لا.

أدلي وزير الداخلية بدلوه حتي يغترف اعترافا من الرئيس الجديد بجدارته.

- النسبة لابد أن تكون محسوبة جيد، فمن المفروض أن تكون ٠,٠١% لنسبة المشاركين في الاستفتاء.. وهي مسألة معقدة قليلا لكن وزير الإعلام لم يترك لوزير الداخلية فرصة للتباهي بخبرته فقال:

- نحن من الممكن أن نحدد رقم الذين قالوا لا.. والباقي من النسبة نعملها الأصوات الباطلة.

صرخ «ن»:

- صحيح- برافو يا سيادة الوزير.. هذه فكرة مدهشة، ثم أراد ألا يخسر وزير الداخلية أيضا فقال:

- وأكد سيادة وزير الداخلية بخبرته وحنكته يعرف ما هو الرقم الطبيعي للذين يمكن أن يقولوا لا في الاستفتاء القادم بعد غد؟

وزير الداخلية تقبل المجاملة قبولاً حسناً وقال:

- طبعاً هم قلة ولاشك.. لكن تحديد عددها في أيدينا كلنا ومهما كانت خبرتي فإن إحساسكم بالشعب وبنبضه سيكون أدق قطعاً.

كان الجميع يهرب من البدء بتحديد رقم وأدرك وزير الحرب ذلك لكنه أراد أن يبدأ أحدهم وليس هو، حيث يخشى أن يكون مبالغاً في النقصان أو الزيادة.. أخيراً تحرك رئيس الوزراء لقطع الملل والتوتر معاً وقال:

- لنعتمد أيضاً علي عدد الذين قالوا لا في آخر استفتاء.

قال وزير الداخلية:

- كانوا ٧٨٢ شخصاً

قال وزير الإعلام:

- كثير.

- وقال وزير الحرب:

- تفكر!

وقال «ن»:

- نقول ٤١٢ مثلاً.

قال وزير الإعلام:

- ليكن الرقم أكثر تعبيراً عن الحقيقة فيصبح مثلاً ٣١٨ شخصاً قالوا لا.

قال وزير الداخلية:

- أنا كان تصوري نسبة أقل من ذلك يعني في حدود من

٢٨٠ إلى ٣٠٠ شخص.

قال وزير الحرب:

- نقول ٢٨٠ كويس

قال رئيس الوزراء:

- لأ فيه مبالغة.. نقول ٢٣٠ كويس.

تدخل «ر»:

- طيب أنا ح أقول رقماً أرجو أن توافقوني جميعاً علي

واقعيته وصحته.

قال وزير الحرب:

- قل.

فقال:

- ٢١٧ شخصا قالوا لا.

فهب الجميع: موافقون.

- علي بركة الله.

٢٤

لم يصدق أن إغفاءة مثل هذه بسرعتها وضمورها سوف تخايله بحلم فج في مباشرته وانفضاح ما يفضي إليه من رمز! رأي نفسه في صحراء وقد ارتدي مع عشرات الأشخاص ملابس معدنية من تلك الملابس الجلدية السمكية والفضية، وقناعاً من الزجاج أمام وجهه وعلي رأسه غطاء يشبه غطاء رواد الفضاء، يمشي بحذاء أسود طويل يصل حتي ركبته في رمال، ممسكا بعصا كشف الألغام، يبحثون عن ألغام في تلك الصحراء، كل تلك المجموعة المصاحبة له، وبينما يتلفت فإذا بلغم ينفجر في أحدهم، يطير في السماء بفعل لهب صاعد بركاني المذهب، ثم تبدأ الألغام في الانفجار واحدا تلو الآخر، تقذف بشخص في كرة نار، ثم ثالث ثم رابع يطير، ويدفع الهواء وإذا بريتا تخلع القناع الزجاجي الذي يغطي وجهها وتبتسم له، فتسيل زخات من المطر علي رءوسهم، ثم يبدأ كل منهما في الجري في كل الاتجاهات كالمجانين تحت المطر، مثل قطط فاجأتها المياه الزخمة، أو أطفال يخرجون من خيمة للعب تحت الماء الضنين وتتوالي الانفجارات كأنما العالم كله

يشتل حولهما.. استيقظ من الإغفاءة مدركاً أنه لو من أولياء الله الصالحين فهذه بشارة الموت وغرة النهاية فلما فتح عينيه رأي ريتا تدير جهاز الكمبيوتر وقد ركنت السيارة المستأجرة علي جانب الطريق السريع.

نظر إليها ففهمت زيف النظرة فقالت:

- حلم سخيـف أليس كذلك؟

تنهد ولم يعد يبهره ذكاؤها.

- كذلك.. لكنه مباشر وفج كأنما ألفه شخص.

ثم حكي لها ما الحلم فابتسمت وأرجعت ذلك إلي ثلاثة أشياء، الأول صوفيته، والثاني أنه رأي برنامجا وثائقيا في التليفزيون قبل أن ينـام عن الألغام، والثالث أنه في الطريق - معها- إلي منطقة كانت أرضا ملغمة في حروب خاضتها البلاد مع عدو لها.

سألها: ماذا تفعلين ولماذا أوقفت السيارة؟

- ردت عليه: أبدا قلت أرتاح.. لا أريد الظهور في استراحات الطريق المكشوفة وأحببت أن نعيد مشاهدة صور القصر الرئاسي ليلة الاغتيال مرة أخرى.

- قلتي مرة رابعة.. خامسة..

كانا في الطريق إلي القرية السياحية تبعد ٤٠٠ كيلو متر عن العاصمة استأجرا سيارة تصلح لصحراء الطريق الطويل ولم يخبرا أحدا كما لم يستأذنا أحدا في الذهاب إلي سعد سالم حيث يعمل الآن وبعد فترة قصيرة (حتى الشك) من تركه خدمة

الحراسة الرئاسية.. لم يتصلا به حتي تتم المفاجأة وإن حفظا ملفه بالكامل، كانا علي يقين زرعه الحـدس والتـمني أن يكون هو مفتاح اللغز فإذا لم يكن قاتلا فليكن شريكا فليكن شاهدا، بعد ركوبهما السيارة مباشرة اتصلا برئيس الحرس من تليفون يوسف المحمول يتأكدان منه مرة أخرى.. ومتعجلة من ثقته في أقواله حيث أكد أن الاستجوابات شملت الجميع بمن فيهم سعد سالم.

- سعد سالم يا افندم.

- طبعا كان موجودا ليلة الاغتيال وكان لابد من استجوابه.

- وأين هو الآن؟

- بعد أن تم تسريح كل الضباط لاشيء أعرف عنهم.

دعك وجهه وارتي نظارته وشرب من ترمس القهوة فنجانا صغيرا وأخذ يتأمل انشغال ريتا العاتي في متابعة خطوات الحرس علي الممرات داخل القصر تعيد تشغيلها بالبطي، الداخلون والخارجون من بوابات الجناح الرئاسي، الحراس الجالسون علي المقاعد الجلدية وفي أيديهم أسلاك معلقة للاتصال اللاسلكي وعلي أحزمتهم مسدسات متأهبة.. ضربت كتف يوسف فجأة وهتفت فيه:

- انظر أليس هذا هو وجه سعد سالم؟

تفحصه بعيونه المكدودة، تأمل شبكات الخيوط المتعارضة والمتلاقية التي تكون صورة ملامحه علي شاشة الكمبيوتر، كانت زاوية وجهه ولم يظهر سوي بجزء من كتفه وجانب من

جبهته وأنفه وخذه الأيمن، أخذت تعيد له الحركة حتي يتأكد يوسف فلم يتأكد، فآز عجبها تشككه.

- هو نفس الصورة.. إنه سعد سالم.  
قال لها:

- وما الذي يعنيه ذلك، إن الساعة كما هو واضح علي شريط الصورة الخامسة صباحاً، إذن لم يترك موقعه وكان موجوداً بالفعل ليلة الاغتيال، ولم يذهب لعيد ميلاد ولا غيره، القصة كلها تبقى ساعتها كتلة ضخمة من غزل البنات، لا معني لها ولا دلالة فيها.

صدقته في منطقته وصدقته نفسها في أنه سعد سالم، فجمعت التناقض في صرة بطنها موجعة وسكتت، لكن يوسف الذي بادر الآن وأشار إلي صورة أخرى ملأت شاشة الكمبيوتر كانت لحوض السباحة وقد ظهر علي حافته بعض الفنيين ومهندس الصيانة (عرفوا أنه المنوط به الإشراف اليومي علي حوض السباحة استعداداً لساعة سباحة الرئيس الصباحية).

قالت ريتا:

- ما الذي شذك هذه المرة في مشهد حوض السباحة؟  
أشار بمقدمة قلم في يده إلي شخص بدا واضحاً الآن في الصورة مع مهندس الصيانة المسئول، كان شخصاً يحمل ملامح أجنبية من الشعر الأشقر والوجه الأبيض الغطيس والجسد الرياضي ذي المسحة العسكرية.

قال يوسف:

- من هذا؟

قالت ريتا:

- لا أعرف.

- إذن فكرينا نسأل عن شخصيته وما الذي آتي به إلي هذا المكان في هذا التوقيت؟

أومأت برأسها علامة الموافقة وهي تغلق الكمبيوتر وتضعه في حقيبتها وتصلح من وضع مقعد القيادة وتبدأ في تشغيل السيارة، طلب منها أن تدير غناء لأم كلثوم لكنها رفضت.

- لقد شغلنا أم كلثوم بما فيه الكفاية.. تأمل الطريق وأنت صامت وفكر ماذا سنقول لسعد سالم؟  
قال يوسف:

- أنا لن أقول شيئاً.. ولا أريد شيئاً..

ثم في مزج من التوتر والمداعبة الهازلة أخذ يدور ويلف في مقعده وينزل برأسه كمن يبحث عن شيء يعبث بكفه تحت المقعد خلف مسنده حتي استغربت حركاته فسألته:

- عم تبحث يا يوسف؟

- قال لها

عن جزمة؟

- ليه؟

- كي أضرب نفسي بها.

ضحكت: وفر علي نفسك البحث عن حذاء فهناك العشرات الآن الذين ينوون ضربك.

حين وصلنا إلي القرية السياحية كان المكان مزدحماً وصاخباً ومرحاً كأن البلد لا يعيش حالة حداد رسمية، اكتشفاً معاً أن الحداد رسمي فعلاً، لا أحد يبكي الميت ولا أحد يخشى أن يحدث أسوأ مما حدث، أغلب السياح من البلد نفسه، ولكن ملابسهم البهيجة وملامحهم المسترضية وأطفالهم المرحي تعطي الانطباع أن بينهم وبين البلد علاقة سياحية فعلاً، كان الإحساس بالاعتراب يأكل قلب يوسف، لكن ريتا انغمست فوراً في البحث عن سعد سالم حيث أخبرهما موظف الاستقبال أنه سيكون في انتظارهما في مكتبه بالكوخ الرابع في الساحة الخلفية. انخرست وسط حشائش وأشجار زينة تكون شبكة محكمة تحول - كالسور - بين المرء والعبور، وكان يوسف غافلاً عن المكان، ينغمر برأسه تحت موج نفسه.

لحظة وهبت ريتا مذعورة حيث وجدت أمامها سعد سالم (إن لم تكن قد أخطأت ملامحه) فوجئ هو بذعرها المباغت فاعتذر.

- أنا أسف جداً.. ألسنت أنت دكتورة ريتا مكربي؟

قالت وهي تضع يدها علي قلبها كي توقف هزته المهجوسة:

- نعم.. حضرتك سعد سالم؟

أوماً برأسه أن نعم فعرفته بيوسف رضوان.. دعاهما لدخول الكوخ حيث ظهر من الداخل مكتب بسيط وإن كان محشواً بزيينات من مصنوعات ومصوغات المنطقة، سألهما:

- خير.. هل هناك من خدمة أقدمها لكما؟

قالت ريتا بصراحة وبسرعة من يلاحق أرنباً في غابة:

- نعم.. نحن اللذين نحقق في جريمة اغتيال الرئيس.

علي عكس ما توقعت أن تدوي قنبلتها في أنفه تلقى التعريف هادئاً حتي البرود دون أدني مفاجأة فأشعلها استقرازا.

- أنت تعرف أننا قادمان.. أو تعرف أصلاً مهمتنا؟

ظهر شبح ابتسامة علي شفتيه.

- يا دكتورة لا يوجد شيء خفي في وسط مثل الذي جنبت

أنا منه.. ثم إن زوجتي أخبرتني بحكاية التورته إياها فعرفت

أنها حيلة وإن بدت نسائية للغاية إلا أنها تعني أنكما وصلتما إلي

ما كان يجب ألا يصل إليه أحد.

أقلقت يوسف لهجة سعد الصريحة والتي لا تخلو من طيف

الواقحة..

قالت ريتا وهي تشعر أن موقعها المهاجم قد تقهقر لخط

منتصف الملعب فقاتلت من أجل ألا تتراجع إلي منطقة مرماها

أمام محترف مثل سعد سالم.

- لدينا أسئلة مباشرة ولا أقول اتهامات نريد أن نسمع

رأيك فيها بشكل غير رسمي.

بادرها سعد:



- هل تريدان يا دكتورة لفاً ودوراناً أم الحقيقة من الأول دون إزعاج مشترك؟  
قالت ريتا:

- الحقيقة ولكن دون صياغة ضباط محترفين.

ضحك سعد - أظنك قرأت ملفاتنا جميعاً، وعرفت أن معظمنا وسائط وأولاد مسئولين وأن موضوع الحراسة كان تشريفاً وأمرأً هيناً خفيفاً لم يؤخذ أبداً مأخذ الجد.. كنا منظرًا علي الفاضي ونحن نعلم أننا لن نحمي الرجل في شيء لو حاول أحد اغتياله.. بصراحة كان الجميع قد فقد الأمل في أن يحاول اغتياله أحد وخاصة بعد محاولة جنيئة الحيوانات التي ليس لها نظير.

أحس يوسف صدقاً مخلوطاً بشيطنة في كلمات سعد، لكنه أدرك أنه لا سبيل إلا التسليم بأن يسمعه دون تجارب مراعاة في استنطاقه تحاولها ريتا، فتدخل:

- اتفضل يا أستاذ سعد.

نظر سعد إلي ريتا:

- موافقة يا دكتورة.

قالت وقد شعرت بخيبة أمل مسبقة.

- اتفضل يا سيدي

بدأ سعد يتكلم:

- أنا سعد سالم ابن سفير البلاد في الأمم المتحدة الذي توفي العام قبل الماضي وخدمت مع الرئيس في حراسته منذ

خمس سنوات كاملة وقد كانت آخر أيام خدمتي محدداً لها اليوم الذي أصبح تالياً لاغتياله وليس صحيحاً أنه تم تسريحه، بل أنا كنت قد استقلت من الخدمة، حيث عملت هنا، وأنا بالمناسبة أحد الشركاء في هذه القرية ولست موظفاً بها فقط، أما عن عملية اغتيال الرئيس فقد كنت في الخدمة فعلاً، وكان عيد ميلادي أيضاً، ونحن عائلة برجوازية لا تفوت فرصة الاحتفال بعيد ميلاد أحد أبنائها، لكن طبعاً - نظراً لظروف انشغال أي منا - يمكن أن نؤجل الحفل، فليس بالضرورة أن يكون الاحتفال نفسه يوم عيد الميلاد، لكن يومها في حدود الثامنة مساءً فوجئت برئيس الحرس وقد أخبره زملائي بأن اليوم عيد ميلادي يمنحني بقية الساعات المتبقية علي نهاية خدمتي راحة وإجازة وزيادة منه في الكرم شارك زملائي في الاتصال بمحل حلويات شهير وأرسلوا التورته إلي البيت ولما وصل لزوجتي ذلك دعت بعض أصدقائها المقربين والذين صادف عدم ارتباطهم يومها بشيء إلي حفل عيد ميلاد سريع لي، ولكن في حدود الواحدة صباحاً وحين أوشكت أن استكمل احتفال عيد ميلادي في سرير الزوجية وجدت رئيسي يستدعيني للحضور إلي القصر، أرسل لي السيارة العسكرية وأسرعت بالعودة، فشرح لي أنه كان متفقاً مع الشيخ رزق بركة علي أخذ ساعاتي ولكنه بعد ساعتين ثلاث زهق واختفى، فقرر أن يعيدني هو إلي الخدمة، فنظرت ريتا إلي يوسف مبهورة فرأته مبهوراً ينظر إلي سعد الذي قرأ اندهاشهما.

- الشيخ رزق.. طبعا هذه المرة هي الأولى التي تسمعون فيها عنه، فالكل يحاول تجاهل وجوده حيث يمثل لهم عاراً أمنياً من المستحيل تصديق حسن النية وبلاهة المقصد من وراء وجوده.

في الأصل الشيخ رزق بركة اسمه عبدالرازق بركات، وهو ضابط فذ في تفوقه العلمي والرياضي والبدني والعسكري، كان تقريباُ أستاذنا ومثلنا الأعلى ونموذجنا الأكثر نجاحا وانضباطاً، ليس ابن مسئول كبير حالي أو سابق، ولكنه كان أول دفعة كلية الحرب، وحاصل علي الدكتوراه في العلوم العسكرية في زمن قياسي، بدأت قصته بعد الالتحاق بالخدمة كحارس للرئيس حينما سافر إلي بعثة تدريبية ستة أشهر في الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك تغير تماما حتي صار الشيخ رزق، فقد صدمت ريفيته وانضباطه وأخلاقياته بحضارة الغرب في أقصى صورها وضوحا وأكثر جوانبها الفاضحة فضحا، لاحظوا أنه كان هنا ثورا في ساقية فعلا، لا حياة إلا في الثكنات العسكرية وفي علوم الكتب. المهم أحدثت هذه الصدمة لديه هزة نفسية غريبة، فبينما انبهر الأمريكيان بقدراته وإمكانياته وتعاملوا معه كأسطورة شرقية إلي الحد الذي عرضوا عليه الجنسية والخدمة في أجهزتهم لكنه، رفض تماما وقيل إنهم استضافوه في فرقة مكثفة خاصة لمدة شهر في المخابرات الأمريكية لكن كان هذا مجرد كلام لم يتأكد لأحد منا، لكن في نفس الوقت كان عبدالرازق يرتاد مساجد المسلمين

في أمريكا أكثر من أي زميل له، ثم سرعان ما ارتبط بعلاقة ودية عميقة وغريبة مع شيخ أحد المساجد هناك، وانخرط معه في جلسات صوفية وسهرات دينية ولقاءات لا أول لها ولا آخر. ولأن تفوقه كان عاملا يغفل معه أي ملاحظة لدي مراقبيه، عاد من البعثة بأعلي درجات الرضا من الأمريكيان وبحالة تصوف متطرفة، فبدأ يصلي أثناء الخدمة ويدعونا للصلاة، ويقف طول خدمته في الراححة والجاية إذا لم يقل قرأنا بصوت عال فإنه يلقي مواعظ عن الموت والجنة والحساب والنار.. لكن قصته زادت في غرابتها حينما قال للرئيس قبل ذهابه إلي جنينة الحيوانات، لا تذهب إلي هناك.. فهناك يكمن الخطر، لكن الرئيس لم يسمع كلامه وتقريبا نوي أن يفصله، لكن حدث ما حدث في جنينة الحيوانات، حيث تعرض الرئيس لمحاولة اغتيال، فصار من يومها عبدالرازق بركات الشيخ رزق بركة، وبدأ يدخل علي الرئيس غرفة نومه يقرأ فيها قرآنا ويتلو شعائر لا نفهمها، وصار هو الوحيد الذي يمكن أن ينصح الرئيس، بما يريد وكان متخصصا في تفسير أحلام الرئيس وكان طبعا يأتي في أي موعد للحراسة ويمشي في أي موعد لهذا كان يوم عيد ميلادي طبيعياً للغاية أن يدعه رئيس الحراس يحل مكاني بعد أن وصل، لكنه بعد أكثر من ساعتين زهق فمشي فخشي رئيسي أن يحاسبه أحد علي نقص العدد فقرر استدعائي مرة أخرى.. واختفي الشيخ رزق من يومها ربما حتي الآن.

صرخت ريتا:

- إذن هو الذي قتل الرئيس.. لقد دخل غرفته ليلتها وانصرف قبل نهاية خدمته واختفي.

قامت من مكانها مفزوعة ومضطربة ومستثارة تماماً:

- كيف تركوه يفلت بفعلته؟!.. كيف لم يظهر ذلك في أي ملف لأي جهاز؟.. هذه مؤامرة.

كان يوسف يشعر أن ثمة شيئاً غامضاً كاسحاً في كل ما يسمعه، وأحس تماماً كما يشعر أحدنا وماء البحر يدخل فمه، لكن الوحيد الذي كان متماسكاً وصلباً هو سعد سالم الذي تقب نظره وجه يوسف طالبا منه أن يهدئ الدكتوراة ريتا.. فلم يستجب يوسف ولعله لم يفهم فصرخ سعد:

- اهدئي من فضلك يا دكتوراة «الشيخ رزق لا قتل ولا نيلة».. بدليل أن الرئيس خرج من غرفته بعد رحيل الشيخ رزق وسألني أنا واثنين من زملائنا:  
- آمال الشيخ رزق راح فين؟!

٢٥

عندما أخبره مدير جهاز الأمن الوطني اقتحمه فيروس يخرب موتور السياسي داخله فخرج عن شعوره وتمتم:

- يعني نخلص من رئيس لم يكن أحد يعتقد أنه سيموت أبداً ليأتي رئيس نعتقد كل يوم أنه سيموت صباح الغد.

ثم عاد هو لشعوره مخافة ألا يعود شعوره إليه.. لكن كلمات وزير الإعلام الفالنتة خربشت في أذن مدير الجهاز الذي أدرك أن الموضوع لا بد له من ستارة غموض كثيفة ومحجوبة.. طلب من وزير الإعلام أن يأتي بسرعة إلي المستشفى العسكري لوضع ضوابط كابحة حيث يمكن لكل صواميل النظام أن تنفك الآن.

كانت ليلة مراوغة وتعلبية الهوي بدأت بانشرائح وزير الحرب ورضاه وصفاء ذهنه وتوقد مشاعره ومداعباته لضباطه ومسامراته مع مسئوليه واستقبال وفود متأخرة في ساعة متأخرة من الليل في مكتبه الذي ألحق به غرفة منامه ومعيشتة منذ قرار ترشيحه رئيساً وحين مضى الوفد إلي حال سبيله، طلب وزير الحرب كوباً من النعناع وأشعل سيجاره الكوبي

الفخيم الذي لا يشعله إلا في لحظات انتشاء نادرة وعزيزة وعاد بمقعده إلي الخلف واهتز به ودار قليلاً ثم لف دورة كاملة فأعطي ظهره لمن يدخل وهجع بيده علي مسند المقعد العالي.. دخان السيجار يحوم حول رأسه في دائرة لا تكتمل ولا تستقر أبداً، دخل ضابطه، بكوب النعناع وحيا وزيره الذي استغرقه تفكيره في غيمة وعي عن ضابطه، وضع الضابط كوب النعناع ومضي خارجاً لكن حشرجة خفيفة خفيضة استوقفته فتمهل في سيره وعدل وجهته وعكس اتجاهه ومشى نحو الوزير الذي لم يكن بادياً منه سوي ظهره. كفه اليسري بارز منها سيجار يتبختر دخانه في دعة من تركه ينطفئ، همس ثم علا صوته:

- سيادة الرئيس.. سيادة الرئيس.

ثم تجراً فاقتحم الفضاء المحيط بوزير الحرب فإذا بوجه الضابط يمتقع وتكاد ملامحه تدوي علي وجهه.. أسرع مندفعاً نحو زر الإنذار العاتي فضغط عليه فانطلقت فهود من مكانها تبحث عن المصيبة التي انحدرت عليها.. كان مكتب وزير الحرب قد امتلأ تكديساً بالضباط الساهرين اليقظي.. وكان كبير ضباطهم يطلب سيارة إسعاف فائقة التجهيز لنقل وزير الحرب إلي المستشفى العسكري.

وصل وزير الإعلام حيث كان ينتظره مدير الجهاز الوطني ووفقاً مع عدد من كبار قادة وزير الحرب أمام النافذة الزجاجية المطلية علي غرفة العناية المركزة التي ينام فيها وزير الحرب، وقد هدا تنفسه الآن، وانتظمت دقات قلبه، وبرح

الخطر مكانه وبدأ يستعيد وعيه بانتظام لكن ابتلال تفكيره بالعجز واعتلال عقله عن اتخاذ قرار جعله يستشعر في استسلامه للرقود سلاماً من غزو أفكار سوء لا قبل لصحته بها في تلك الساعة النحسة.. كان يعرف - لعله لم يعد يعرف سوي ذلك - أنه بعد ساعات قليلة سوف تفتح أبواب لجان الاستفتاء لتعميده رئيساً للبلاد.

وهو هنا قعيد أسلاك في فمه وعند رسغيه ومحاليل موضوعة في عروقه، ورداء بلا كنه، أبيض، مفتوح الظهر، مربوطة فتحاته بأربطة مثل فيونكات البنات الصغيرات، بينما عري ظهره ومؤخرته وساقيه مفضوح في ذلك الرداء، فأري رئيس يقبل منصبه في عري الختان هذا.. أحس وجع قلبه يضرب في وجع كبريائه وكان يظن أن شرايينه الجديدة سوف تصمد أكثر مما هو بائن.

قال وزير الإعلام هامساً:

- والحل الآن.. اللجان بعد ساعات.. ثم لابد من تصويره وهو يدلي بصوته في لجنته الانتخابية حيث تنتظره كل وكالات الأنباء.

لاحقه مدير الجهاز بالهمس ذاته.

- وأظن أنه لابد من إدلائه بتصريحات للصحفيين بعد

خروجه من اللجنة.

أوماً برأسه.

- قطعاً.. فضلا عن أنه لابد أيضا أن يمر علي أكثر من لجنة انتخابية مختارة بعناية كي يحاور المواطنين، ويبدو في منظر الساعي إلي أن يحوز أصواتهم، وقد أعدنا فرقا للموسيقي وأطفالا بالأعلام وبنات بالورد وعددا من الوزراء لانتظاره في كل لجنة مختارة للتصوير.

قال مدير الجهاز:

- يارب لم نفرغ من مصيبة حتي تأتي غيرها.  
ثم استدار ونادي علي أحد معاونيه وأملاه بعض الأوامر ثم التفت لما انصرف معاونيه وطلب من كبير قادة وزارة الحرب استدعاء مدير المستشفى وخبراء القلب لديه ولو استلزم الأمر إحضارهم بالدبابات، لكن كبير القادة قال له بحزم:  
- كلهم هنا.. لم نترك واحداً في بيته منذ عرفنا بحال الرئيس.

ابتسم وزير الإعلام في سره فقد صادفته الدبابات في كل رقعة يعبر إليها في العاصمة حتي إن الدبابات كانت تتجول في إشارات المرور شأن السيارات العادية ولا ينسي المشهد الذي صورته أحد مصوري وكالات الأنباء مما اضطر إلي منع الصحف التي نشرت الصور من دخول البلاد. كانت الصورة عبارة عن دبابة واقفة في إشارة مرور وبجوار عربة كارو يجرها حمار عجوز وعلي مقدمة العربة يجلس عربجي حاله أكثر سوءا من حمارة، لقد كان الجنود يجلسون علي الأرصفة من ميدان لآخر، يحتسون الشاي، ويجوبون الطرق، ويدخلون

ويخرجون من المباني واختفي ضباط المرور وعسكر الداخلية واقتحم أزيز مراوح الهليكوبتر سماءات وفضاءات كثيرة طيلة الأيام الماضية، وقد اتخذت أوامر بإقلاع طائرات حربية علي مستوي منخفض فوق سماء البلاد وخاصة في العاصمة، وقد لعبت أعداد من الطائرات ألعاباً بهلوانية في السماء بألوان وأطياف كانت فرجة فرحة للمواطنين.. كان المطلوب ألا يكون الأمر كله استعراضا للقوة لبث الرهبة بقدر ما كان مرغوبا أحيانا أن يكون عرضا للحب والمودة التي تربط البنادق بالفنادق، المدافع بالجوامع.

بعد لحظات بدأ اجتماع خفي حفي بقضية تمكين قيام الرئيس بأداء مسئوليات ومهام يوم الاستفتاء دون أن يظهر في حالة إجهاد وتعب، أو دون إعلان اعتلال صحته أو تسرب هذه الشائعات كالعادة.

أحد الأطباء الخبراء أعلن صعوبة المغامرة والموافقة علي قيام الرئيس بأي مجهود يجده ويؤزم من حالته التي تحتاج إلي راحة لا تقل عن أسبوع لا يقوم فيها بأي من متطلبات منصبه، وأن يتعد عن أي توتر عصبي أو نفسي.

تبادل مدير الجهاز مع كبير القادة مع وزير الإعلام نظرات اتهام هذا الطبيب بالجنون قال مدير الجهاز:

- لنكن واضحين ومحددتين، نحن هنا من أجل خلق إمكانية لا غني عنها ولا بديل لها في ظهور الرئيس غداً، غدا إيه بعد ساعتين ثلاث أمام لجنة الاستفتاء وأن يزور أيضا أكثر من

لجنة في جو احتفالي.. هذا كلام لامناقشة فيه، المناقشة في كيفية عمل ذلك.. فأرجو أن تتجاوزوا معنا نقطة إظهار الخطر وتدخل في الموضوع.

عاد نفس الطبيب للكلام واستبان الآن مدير الجهاز ملامحه كان أحد علامات الطب في البلاد وأستاذاً كبيراً له مراكز لطب الحالات الحرجة باسمه في مستشفيات كثيرة.. قال بثقة تغيط:  
- أظن أن هناك شخصيات تحمل نفس شبه الرئيس وملامحه.. يمكنها أن تقوم بمهمة الظهور أمام الكاميرات مع بعض الحيل الصغيرة وتدع الرجل في راحته القلبية.

تعامل مدير الجهاز مع هذا الاقتراح باستخفاف فقال:  
- لاكثر يا دكتور من مشاهدة الأفلام البوليسية بعد مواعيد العيادة.

قال الطبيب بشجاعة عدم معرفة من المتحدث أمامه:  
- إذن علينا أن نعترف أن الأفلام البوليسية أكثر تقدماً من أجهزتنا الوطنية.

اشتعل توتر في سقف الحجرة، خفف منه وزير الإعلام حين قال:

- طيب نسمع آراء بعض الإخوة معنا من الأطباء.

قال مدير المستشفى:

- في الحقيقة الوضع طبياً يختلف عن الوضع سياسياً تماماً ولازم نعرف الآن من سيدير هذه الأزمة.. الطب أم السياسة؟ تدخل كبير قادة وزارة الحرب حازماً:

- السياسة

وتدخل وزير الإعلام ملطفاً:

- بمساعدة الطب طبعا ودون أن نستطيع الاستغناء عنه أبداً.

وثب الصمت علي المكان في انتظار من يحسم الأمر وينتقل إلي الحل. انبري أصغر أطباء المستشفى العسكري الموجودين بالمكان.. قال مستغلاً فراغاً من الصمت سمح له بالولوج إلي آذان الواقفين:

- إذن الحل في سيارة إسعاف فائقة التجهيز. يعني الموجودة لدينا مع تزويدها بأجهزة طبية تجعل منها في مستوى العناية المركزة، ثم وجود فريق طبي كامل في السيارة وفي نفس التوقيت هناك سيارة أخرى مفتوحة علي سيارة الإسعاف بحيث ينتقل منها كرسي متحرك حاملاً الرئيس حيث يرتدي ملابسه في السيارة الأخرى التي ينزل منها أمام الناس والمصورين.

كان أول من تفاعل مع الاقتراح مدير الجهاز الذي استفسر.

- طيب وهل معقول يبقى فيه سيارة إسعاف في موكب رئيس؟!

رد الطبيب الشاب:

- لا.. ليس معقولاً.. لذلك يجب ركوب الإسعاف داخل شاحنة عسكرية وجودها في موكب الرئيس مع

هذه الظروف التي نحيها أمر أكثر عادية من ظهور عربية إسعاف.

أضاف وزير الإعلام:

- حل رائع.. لكن ماذا عن الرئيس نفسه؟

رد الطبيب الشاب وكأن لديه حلا لكل شيء.. يشغل مخه في انتعاش وألق.

- أظن أن الرئيس مقاتل، بمجرد معرفته خطورة الوضع سوف يتقوي ويتحمل علي نفسه، وبقي عليكم الإسراع بكل خطوات التصويت والتصريحات حتي لانتقل عليه.

وجد مدير المستشفى نفسه في حالة من لابد له أن يتدخل، فالأضواء كلها سرقها طبيب شاب طموح وخياله متربي علي ألعاب الكمبيوتر.

- في هذه الحالة أقترح أن يكون هناك عدد ضخم من الجماهير يهتف ويعلو صوته ليغطي علي ضعف صوت الرئيس ويقاطعه بما يسمح له بالنقاط أنفاسه..

قال الطبيب الشاب كأنه يصر علي القفز من الطائرة بلا مظلة.

- ويستحسن أن يراجع السيد وزير الإعلام بنفسه صورة الرئيس علي الشاشة وفي الصور الصحفية التي سيتم التقاطها حتي لاتتم عن أي تعب أو إجهاد ولمزيد من الحيلة والاستعداد من الضروري وجود سيارة إسعاف أخرى متوفرة بذات المواصفات للطوارئ أو الأمور غير المتوقعة.

قرر مدير الجهاز أن يركب فوق ثور الأحداث الهائج ويحاول أن يروضه فتمثل كل مهام وظيفته وبدأ في التلقين.

- أمامنا من ثلاث إلي أربع ساعات لاتخاذ كل هذه الإجراءات والاحتياطات، سيكون طبيبنا الشاب هو حلقة الوصل بين الفريق الطبي والفريق الأمني، سيتم اختيار الفريق الطبي بمعرفة السيد اللواء مدير المستشفى، سنعتبر ما يجري في هذه الحجرة سرا من أسرار الأمن الوطني وأن أي تسريب لما يجري إذاعة لأسرار عليا، ومن ثم يخضع الذي سربها أو أذاعها أو أشار لها أو أكدها للإجراءات القانونية التي يتم اتخاذها ضد الجواسيس من خونة الوطن، وإذا انتهى اليوم علي سلام فلا أريد لأي منكم أن يحدث الآخر في هذا الموضوع، وبطبيعة الحال التعامل مع السيد الرئيس وكأن الأمر لم يحدث أساسا.

حين بدأ الجمع في الانفكاك والانفضاض بدأ الطبيب الشهير يتكلم كأنه يحاور نفسه وبعد بدايات الكلمات أفاق الضابط والمسؤولون والأطباء علي ما يقوله:

- حسنا أنتم تريدون له أن يصوت اليوم في لجان الانتخابات كي يفوز بمنصب قد لاتسعه صحته علي أن يري نفسه فيه، وأنتم تعجلون بذلك اليوم، فليس هناك أمل في إقناعكم الآن.. لكن دعوني أتحدث معه لعلني أقنعه أن يختار حياته ويفضلها علي منصبه.

نهرة مدير الجهاز بعيونه ثم بصوته.

- الأمر لا يتحمل هذا الخرف.  
لكن كبير قادة وزارة الحرب أطرق للطبيب والتفت  
لزملائه ثم قال:

- أمامك عشر دقائق يا دكتور.  
دخل الطبيب متوجساً ومهموماً إلي العناية المركزة حيث  
تلاحقه العيون المزدحمة والمتكالبه من وراء الزجاج، بينما  
وزير الحرب يضمّر تحت أجهزة التنفس وتحقق نظراته في  
السقف باحثاً عن منفذ للسماء، تتوالي أمامه سموات زرقاء  
بنجومها البهية في صحراء المواقع العسكرية، أو غيطان قريته  
البعيدة، وسموات البلاد الغربية التي سافر إليها.. والسحب  
تطل عليها الطائرة التي يركبها، سحب من اللون الأبيض  
المنفوش والرمادية الملفوفة وزرقة السماء المخبأة، والأرض  
المحجوبة، كان يشعر أنه يجلس في مقعد في طائرة تحلق فوق  
أطنان من القطن وغزل البنات وقطع الإسفنج وفلين الكراتين،  
كانت روحه مسحوبة وإرادته مع ما تبقى من هزال جسده حين  
همس الطبيب الذي أدرك ملامحه المقتربة منه بوضوح.

- كيف أنت الآن يا سيدي؟

رد الوزير بتماسك

- الحمد لله.. بخير

في هدوء حكيم قال الطبيب:

- الإخوة في الخارج يريدون أن يأخذوا سيادتك إلي لجان  
الانتخابات وهم يستعدون بسيارات إسعاف مجهزة وفائقة القدرة

والتكنولوجيا، ليكن اعتبارها مستشفى مصغراً أو غرفة عناية  
مركزة صغيرة.

رد بوهن.. عظيم

قال الطبيب:

- لكنني بوصفي الطبيب المعالج لا أري الأمر عظيماً،  
والموضوع فيه خطورة علي صحتك وعلي حياتك.

- الأعمار بيد الله يا دكتور.

- صحيح الأعمار بيد الله، لكن منعك من الإجهاد والتوتر  
وقتل نفسك بيدي أنا.. وببيدك.

رفع الوزير من صوته وأشاع حيوية مصنوعة علي  
كلامه.

- أنا جندي وسأدخل المعركة

تنبه الطبيب إلي أنه يصرخ غضباً فهدأ وهو يواصل  
كلامه.

- معركة إيه.. كلنا نعرف أن ما يريدونك له الآن مجرد  
استكمال الصورة، إنهم يعملون حسابات كثيرة إلا حساب موتك  
أو حياتك، ثم إن الانتخابات معروفة نتيجتها سلفاً يا سيادة  
الرئيس.. نحن من هذه البلاد ونفهم.. هذا الكلام يخيل علي  
الأطباء الأمريكيان أو الأوروبيين علي شاشة التلفزيون وستعلن  
النتائج وستفوز بالرئاسة ولن يستطيع أي شخص خارج هذه  
الغرفة أن يمنعك.

ضحك الوزير.



- هل تعتقد أنني أريد أن أخرج وأكمل التمثيلية حتي لاينصرف الناس من الانتخابات؟ إن هذا هزل يا دكتور، أنا أريد أن أخرج حتي أثبت دعائم سلطتي، لو لم أخرج اليوم لنهش في جسدي الجميع، وطمع في رئاستي القريب والبعيد والعسكري والمدني.

إنني لست زعيماً ولا تاريخ لي فاتركني أصنع حاضراً ومستقبلاً، ثم كيف أفرط في ملك منحني الله إياه.. لقد اختارني الله لهذه المهمة لحكمة هو يعلمها وأنا أنفذها. ثم هل تعرف معني أن يكون مقعد السلطة الذي نمت تحت حوافره طيلة عمرك تحت أمرك؟ هل تعرف معني النفوذ والسلطان؟ هل تدرك معني أن يكون أبناؤك أبناء للرئيس وفخامة وغلاوة وعظمة وألوهية هذا العرش، ربما لا يكون أي منا جديراً به، لكن ليس هناك أحد أجدر مني به، سأقوم من سريري يا طبيبي، لأنني لو لم أقم منه اليوم فلن أقوم منه أبداً، كما أنني لا أضمن ولا أطمئن إذا ما تراجعت ماذا سيفعل بي من يأتي بديلاً عني! دعني يا دكتور إن صحتي بمب وسأظل أحكم هذا البلد حتي يشيب أولادك.. ومن المحتمل أن أسجنك مدي الحياة حتي لاتذيع ما قلته لك الآن..

ابتسم دون أن يعرف هو ولا الدكتور هل يهزل حين ذكر السجن، أم أنه جاد فيه!  
خرج الطبيب من الغرفة ناظراً إليهم جميعاً ثم أمعن تأمله في الطبيب الشاب وقال مخاطباً إياه:

- إنك لست موهوباً في الطب فقط يا بني، بل موهوب في السياسة تماماً ومن الصعب جداً أن تجمع بين مهنة أساسها علاج الناس ومهنة أساسها خداع الناس، من اليوم ابحث لك عن أستاذ غيري أو مهنة غير الطب، ثم تحول إلي مدير الجهاز وأوماً برأسه.

- إنه ينتظر بالداخل ومستعد للخروج معكم.

في المساء.. كان كل شيء قد تم إنجازه علي خير وجه، وبدا وزير الحرب متألق الوجه، باشا وهو يدلي بصوته الانتخابي، وشاهد الناس كل ما يجب أن يشاهدوه بنفس الطريقة التي تم التخطيط كي يشاهدوه عليها وفيما عدا أن وزير الحرب كاد يسقط مرتين مغشياً عليه، في ذهابه وإيابه للجان الانتخابات، وفيما عدا أنه وضع تحت جهاز التنفس في نهاية الليل حوالي ست ساعات.. فلا شيء عكر خطة الطبيب الشاب وظل الرئيس حياً.

وصل دكتور يوسف مع ريتا إلي الحي الأثري القديم،  
لبتسم لها وقال:  
إن عمر بيت واحد هنا أطول عمرا من تاريخ الولايات  
المتحدة.

ردت في برود:  
- إنها قسمة عادلة إذن، الماضي لكم والحاضر لأمريكا  
ماذا إذن عن المستقبل.. من يملكه؟  
قال يوسف وهو يتحاشي الاصطدام بالعابرين في الأزقة  
الضيقة.

- أفضل ما يفعله المستقبل ألا يأتي.. فالحقيقة أن أفضل ما  
فعله الماضي أنه مضي.

أمسكت بيده حتي لايفلتا من بعضهما في قلب فوج سياحي  
قادم نحوهما يشق تقاربهما.. عبر الفوج فتنهدت ريتا لما رأت  
الزحام خف والأضواء الكهربائية تبرز من البيوت والحوانيت..  
قالت:

- أليست قلقا بشأن فقدان أي اتصال بأي مسئول سواء هنا أو هناك.. أكاد أشعر أنهم نسونا ونسوا مهمتنا.

ابن تيمية يوسف

- إننا مشغولون بدفن الميت وهم مشغولون بتوزيع الإرث، فالأمر طبيعي لا غرابة فيه.. ثم قلت لك إنهم غير مهتمين أساسا.

قالت ريتا بحماس بالغ:

- أحسن.. حتي تنزل الحقيقة فوق دماغهم كالصاعقة، إن ظهور الشيخ رزق سوف يفك طلاسم هذه القضية ولاشك.

قال يوسف ببرود يفوق بروده السابق:

- أتعشم.. وأشك.

ردت عليه ريتا وهي تعلق نظراتها علي قباب مساجد وبوابات جوامع.

- أما العشم فتشكر عليه.. أما الشك فليس بجديد عليك.

ثم وقفت أمام بوابة مسجد.

- أتعرف أن هذه البوابة هي نفسها بوابة كنيسة تم نزعها منا في العصر الإسلامي ووضعوها في مدخل هذا المسجد.

هز يوسف رأسه موافقا وأضاف:

- حدث مثل هذا كثيرا جدا، وحدث نفسه في الأندلس لما سقطت الدولة الإسلامية، الجوامع تحولت إلي كنائس بقدره قادر.

وافقته ريتا.

- إنها طبائع الاستكبار وليست طبائع الأديان.

كان سعد سالم قد قال لهما علي أن يبقي الأمر سرا إن جهرا به نفاه وإن أكدها فلن يحصد شر ذلك إلاهما وربما بأرواحهما، إن الشيخ رزق في تكية ما في حي إمام المسلمين، ولأن هناك عشرات التكايا التي يحتلها الصوفيون حين استقرت شوكتهم بانضمام زعامات تائبة من ذوي التاريخ المسلح في العنف الديني، لم يعد مسموحا لأي من الحكومات أن تقتحم التكايا التي اكتظت بالمريدين من كل جنس وصنف، وأن مظاهراتهم الدينية حتي مسجد الإمام وتجمعاتهم في مولد النبي صلي الله عليه وسلم وفي الليلة الأولى من شهر رمضان وليلة اللقندر قد تجاوزت مليوني من البشر في مناسبة من المناسبات وأنهم يرسلون رضاهم عن الرئيس والحكومة في كل تجمع ويدعون لهما بالبقاء والصلاح، وقد شاهد أحدهم مرة الشيخ رزق في مرواحه وغداته لهذه التكايا وأنه اتخذ شيخا هناك إماما له وأميرا بايعه مع مريديه، وأنهم يعتكفون ليالي طوالا لا يأكلون فيها إلا التمر والحليب ويخلطون تلاوتهم وتراتيلهم بالحزن والنحيب، وقد شبت معارك شتي بينهم وبين أنصار السنة، وأخري بينهم وبين فرق الشيعة، وانتصروا في المعارك بحبهم البالغ للنبي (صلي الله عليه وسلم) وزهدهم في الدنيا وما فيها.

وقد أنفق يوسف وريتا أسبوعا بالكامل يتلصصون علي سيرة الشيخ رزق في هذا الحي ودخلوا التكايا كلها حيث لا يصد

أحد أحدا إلا لو كان من الشرطة أو مثيري الشغب، وأوا التكايا التي اكتظت بالبشر مهللين ومكبرين في أردية بيضاء وأوشحة خضراء وغناء رائع بطبول ودفوف تقطع القلب من حلاوتها ورطوبة قلبها، وتري الوجوه فعلا عليها صفاء ما وورع حقيقي وسمو رباني، والأبخرة تمخر في الأسقف والوشوش باشة محلقة، والرؤوس حلقة تميل إلي اليمين وإلي اليسار، وراقصى التنورة بشعورهم النسائية الطويلة والخشنة يلفون بها رقصا وهياما وهي تضرب الجو بأجنحة من زرقة وخضرة مع أنغام منضبطة ودافقة في حسيتها، وجسدية تماما. انسابت ريتا في طقوس الاقتراب من الله ووجد يوسف راحة ما في الاحتشاد ليلي طويلة في دفء مثل هذه الحلقات والدوائر، وبات مأخوذا بالذهاب الروحاني في تحليقات جسدية مطوية علي غريزة مروضة حفية بالحياة، رغم زهدا المائل، كان شراب الشاي هو الوحيد السائد في التكايا بفناجينه الصغيرة دقيقة الحواف خشنة الملمس، ولم يكن هناك إلا عسل النحل وسيلة لتحليته بدلا من السكر، وقد امتلأت التكايا كذلك بزروع من نعناع مطلوق في كل مكان، سواء عند حلبات الغناء والدروشة، أو في مداخل التكايا، علي أسوارها العالية، حتي زرع في قلب الجداريات كالنقش الحي الأخضر علي سطوحها. مالت عليه ريتا وقد أغرقها العرق بعد احتدام راقص مدو بالتحليق إلي فراغ الروح من تمتتها وتعقدها.. قالت ريتا وهي تنهج:

- لم تسألني أبدا يا يوسف من أنا؟  
كان يوسف قد مدد ساقيه ووضع إبريقا من الشاي الأخضر في كفيه، كلما عبر شخص مد له يده بالإبريق فأخرج الآخر فنجاناه فصب فيه يوسف الشاي وعاد الإبريق إلي حضنه، قال يوسف.

- الحيرة موجودة طبعاً والسؤال من أنت لم يبرح ذهني.. لكن قلبي تتبع خطوات روحك، فلم أكن أعرف إلا ما أراه لكنني أخشي ما لم أعرفه.

في هيام باللحظة حتي انخلاع القلب وجداً قالت:

- أمن الممكن أن لقاءنا في زحام هذه الأحداث الأسطورية وفي مصادفة إلقاءنا من سفينة فضاء إلي أرض، فقدنا فيها المعرفة، وفقدنا عليها الاتصال بسفينة الفضاء. أمن الممكن أن يكون هذا مبررا للقرب لهذا الإحساس الموهوس بحنان مغمر تجاه هذا المكان.. إحساس حسي له دفق النشوة وهيجان السحر:

قال يوسف وهو يسقي رجلا شايًا:

- أنت سيدة مشتتة بالمشاعر، تستولد فيها كلما خطوات قدما تدارين بعنفك المصطنع ورجولتك المؤلفة ضعف امرأة في قلب عاصفة.

قالت ريتا:

- أوتدري يا يوسف، إنني رأيت في حياتي ما أشك أنني أتوهمه، إن جدي كان مصرياً، طبيباً مصرياً قبطياً سافر من

القاهرة إلى لندن لاستكمال دراسته العليا في الطب، وتعرف هناك علي طالبة فرنسية تدرس الفيزياء، تزوجا وبعد عامين سافرا إلى أمريكا، فإذا بالسفر يتحول إلى إقامة دائمة، انجبا هناك والدي وماتا معا في يوم واحد ولحظة واحدة ودونما حادثة ولا كارثة، ناما علي سرير واحد، وماتا عن عمر طويل من الركض في الحياة والبحث عن معني، والدي اشتغل طبيبا هو الآخر، تعرف علي فتاة سورية كانت تدرس في أمريكا، تزوجا وبعد فترة من الزواج جنث أنا.. وإذا بأبي وأمي يموتان معا بنفس طريقة الجد والجدة، لكن هذه المرة عن عمر في الأربعين، فأخذتني الأيدي وتلقفتني الأسر، فنشأت علي البحث عن هوية وعالم أنتمي إليه، وألقيت بنفسي علي أصل جدي وروح أُمي، علي الشرق، درست آثار الشرق الأوسط، زرت مصر ثلاثين مرة تقريبا، سكنت في دار السلام وإمبابة غالبا، تكلمت العربية والعامية المصرية كما تنطق بها بائعات السمك، كتبت كتباً ورسائل في السياسة عن الشرق الأوسط، خضت معارك ضد الصهيونية والتعصب والتفرقة العنصرية. تعرفت علي رجل أمريكي كان غرامي به خرافيا، كان ضابطا في الشرطة ملتزما وأميناً ومحباً لي، وحينما تم الاعتداء علي شخص أمريكي أسود وتعذيبه كان مسجوناً متهماً في جريمة ما، تعذيب الشرطة له أدي إلي قتله، إذا بالاتهام بطول زوجي مع مجموعة من الضباط، وإذا بي أعرف لأول مرة أنني تزوجت عنصريا غليظا عنيفا، فقدت المظاهرات وتقدمت

للمسيرات مطالبة بتقديره مع زملائه إلي المحكمة، وكنت حديث المجتمع الأمريكي كله بإعلامه وجنونه بالحياة الخاصة، اليمين جعل مني نموذجا للزوجة الخائنة، واليسار جعل مني شهيدة المثل العليا.. أما أنا فقد انكسر قلبي من يومها وعلا اسمي ويزغ نجمي دخلت علاقات مشوهة، وسافرت وتعبت وأرهقت وتعالجت نفسيا.. ثم لاشيء، نموذج لخليط من حضارات الشرق والغرب، العرب وأوروبا، أمريكا والعالم الثالث، البيض والصفير والسود. بالمناسبة بعد الحكم علي زوجي وطلاقي، فكل الذين دخلت معهم علاقات كانوا من السود أو ماشابه. طول الوقت في اهتمامي بالشرق الأوسط في نومي مع السود، أطارد عقدة ذنب غريب وعات.

اندلعت دقوف بأكف مترعة بالنشوة فلدغت ريتا بالجنون قامت واندفعت واندمجت في رقص محموم مع صفوف من رجال بدأوا في غمرة التفجير فاقددي الصلة بالعالم، يوسف فوجئ برجل ملتح لحية طويلة كثيفة لكنها ليست منفرة أو مشعثة ويرتدي جلبابا أبيض وشالا أخضر ويلف رأسه بعمامة بنية حولها وشاح أبيض ملفوف بعناية، هذا الرجل يمسك بيد ريتا المذهولة المأخوذة، ويقتربان منه وهو جالس بلا حركة.. همست ريتا فلم يسمعها، ابتسم الرجل بوسع فمه وبوسامة فطنة وقال:

- إنها تخبرك بأنني الشيخ رزق بركة.

قادهما إلي فناء خلفي للتكية، خرجوا إلي ممر ضيق وقصير ومسور بالحجارة إلي منزل بدرجات سلم شديدة الضيق حتي الاحتكاك والتعثّر، ثم يصعدون إلي سلالم ملتوية صخرية ذات نتوءات حادة، وصلوا إلي سطح مشرق بأضواء شعلات من النار المحاطة بأسيجة قصيرة من نحاس، ومثبتة علي أعمدة في قلب مربعات السطح، السطح نفسه بلا سور، لكن تستدير مع دورانه أشجار قصيرة متشابكة ونباتات متسلقة، جلسوا علي سجاجيد وأكلمة ذات ألوان فاقعة في زهوها كان جسد رزق لايزال علي عسكرية تفصيله، ورياضية تكوينه، يبدو أكثر نحافة داخل الجلباب الفضفاض، وكانت بشرته الخمرية تتوهج في انعكاسات حمرة النار المشتعلة وعيونه لامعة بتلك الشعلات المهتزة داخلها من استقرار نظره علي النار في طقطقتها وأكلها فحما أو خشبا.. قال بصوته الخشن الأمر:

- حسنا.. وصلتما أخيرا.

قال يوسف - نحن لم نصل - أنت الذي عثرت علينا.

ابتسم رزق - لقد أغواكم المقام في الحي وأغراكم صفاء  
التكايأ حتي كدتما تبلغان نسيانئ فقلت أذكركما بنفسئ.  
اندفعت ريتا وقد انجذبت إليه علي نحو مراهق ومفصوح.  
- كيف وجدئتأ؟

- ليس صعبا العثور علي خواجية رائعة الحسن وأفندي  
في هذا الجو، خصوصا أنتما لم تبدلا جهدا في إخفاء نفسيكما،  
كما سألتما طوب الأرض عني.

في هدوء العارف بمشقة تلمس الحقيقة:

- أنت تعرف طبعأ من نحن و لماذا جنئأ؟

رد رزق وقد انسحبت تماما كل تصوراتهما عن دروشته  
وسذاجته وجنونه المنزلق في حكايات سعد سالم.

- من أنتما بالتحديد لا أعرف.. أما لماذا جنئتما فواضح  
لأنكما اللذين حاولتما البحث عن الحقيقة فعلا فقادتكما الحقيقة  
إلي هنا.

قال يوسف:

- كنت أتوقع ملاقاء درويش مجذوب ملتاع يهذي بالكلمات  
ويخرف بالحقيقة.

تداخلت مشاعر ريتا مع حماسها.

- فوجدنا فارسا.

ابتسم رزق وقد بدا ملكا في هذا السطح الغرائبي الموحش  
مثيرا وغامضا.

- الكل قرر ألا يعرف فلماذا تصران علي ارتكاب بلاهة  
معرفة الحقيقة.. الرجل لم يكن يستأهل أن يريق أحد دمه عليه  
ولا علي حقيقة من قتله!

همست ريتا كأن صوتها يرمي بنفسه من السطح:

- هل تعتقد أن هناك خطرا علي حياتنا لأننا نحاول معرفة  
القائل؟

أضاف يوسف:

- أو لأننا عرفناه!

رد رزق في لهجة بريئة فيها رنة شفقة:

- لا أستطيع أن أقول إن هناك خطرا علي حياتكما.. لأن  
ذلك إما أن يكون معناه تحذيرا أو تهديدا.. ولا قدرة لي علي  
الاثنتين.

قالت ريتا وهي تحاول أن تطرد عنها حرارة النار  
الراقصة التي دبّت في بدنأ:

- هل تتوقع أننا سوف نوجه لك تهمة قتل الرئيس؟

ضحك فظهر الفلاح من حنجرته.

- تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه.

أمسك يوسف بعنق كلماته.

- هذا معناه اعتراف صريح بأنك قتلتة.

تحسس رزق موضع الخشونة في نتوءات كلام يوسف..

قال:

- هذا معناه اعتراف صريح مني بأن قتله ليس جريمة.

رد يوسف حازما يشم منازل محمولة تقرر فيها السيوف  
الصوارم.

- علي حد علمي كرجل قانون أن القتل لايزال جريمة وأن  
محاكمنا تقضي بإعدام القاتل أو سجنه مؤبدا.

منازلة مؤمن بقضية أمر ليس سهلا علي الإطلاق.. كان  
رزق يثبت ذلك ليوسف.. قال:

- ساعة واحدة تفصل بين أن يكون صاحب الانقلاب بطلا  
زعيم ثورة ورئيس أمة، أو يكون خائنا وعميلا وسجيناً  
ومعدوما.. ماذا يقول قانونك عن هذه الساعة يا دكتور؟

لما صمت يوسف أكمل رزق.  
- بالمناسبة هنا في التكايا أساتذة قانون مثلك وربما  
أساتذتك وأطباء وعلماء ذرة ومهندسون وفنانون.. لسنا هنا  
مجموعة من الصبية المغرر بهم أو دراويش مغمورة عقولهم  
في التفكير والنواح.. إن مدنا بالكامل تدار من تحت أرض هذه  
التكايا، عالم بكل تفاصيله غارق حتي الثمالة في البحث عن حل  
لتعقد روحه.

عادت نبرة التحدي ليوسف:

- هذه صوفية جديدة.. نقتل وتحكم هذه الأيام!

ضحك رزق ساخطا:

- أو هناك كمثري مثل كمثري زمان، إن بها بعض  
الطعم، بعض الشكل، لكنها لم تعد تلك الكمثري التي تجنيها من  
علي الشجر، هل الفراولة لها ذات الشكل والطعم القديم، حتي

الخيار يا رجل.. جينات الفواكه والخضار تغيرت، فلماذا  
تستكثر علي الأفكار أن تغير جيناتها.. إنها صوفية مهجنة، أو  
ليست صوفية علي الإطلاق وما يضيرك من الاسم.

ثم التفت إلي ريتا وقال لها برقة:

- إنك تلاقين واحدا قصيرا وأصفر وعينه ضيقة.. يطلع  
إنه شخص أمريكي.

وقطع جملته وأقحم فيها الأخرى مباشرة.

- إلا مكربي دي يا دكتورة يعني مغربي بالعربي.

صفت بيدها مستثارة تروي بئر حرمانها بحماس العذاري.

- فعلا.. كيف عرفت؟

ثم التفتت إلي يوسف.

- جدي فعلا اسمه إدوار مغربي.

ضحك رزق وقال ليوسف مشيرا لريتا:

- أهوه يا سيدي.. مسيحي من الشام اسمه مغربي ويعيش

في مصر.

تتهد يوسف وهو يري يد ريتا تنسحب من إناء قضيتهما.

- نهايته.. كيف كانت طبيعة علاقتك بالرئيس إلي الحد

الذي كنت الوحيد المتاح له دخول غرفة نومه.. وموضع ثقته؟

تراجع رزق برأسه للوراء وصرخ خالطا البلاهة علي

الشيطنة.

- حامي أنت يا دكتور قوي.



حدة يوسف في عينيه التي بدت له لأول مرة مكحلة بسواد فحيم وطازج.

- كفاية يا عبدالرازق.. لقد لعبت دور عبيط القرية بكفاءة فترة طويلة.. لتتكلم الآن عن حق وبصراحة وبلا أقنعة.

زجره رزق بنظراته وطق منها طقطقة شر.

- إذن لا تعاملني كمتهم.. ولا توجه لي أسئلة تحقيق.

ثم رق وأضاف:

- اسأل كصديق تهمة معرفة الحقيقة.

أوماً يوسف دون رد، لكن دون نفي أو رفض، فأكمل رزق:

- لقد كان من الصعب أن يري الرئيس ورجاله ورفاقه زاهداً في قلب دائرتهم.. وكان عصياً علي فهمهم أن يعترف المرء عن السلطة والنفوذ والمال والقرار فلما رأوا في هذا الرجل صرت تحفة مقتنية واكتسبت ما يكتسبه عبيط القرية كما قلت أو شيخ القرية كما أقول من مكتسبات الجراءة في الكلام حتي التطاول والتندر علي الجميع والغياب والإياب كأنها مواعيد سماوية وترتيل القرآن في أي محفل دون أي سابقة. كتم رزق ضحكة ندت - رغماً - عن جديته وذكر لهما سببها.

- أبداً.. افتركت كنا في استقبال ملكة هولندا في المطار وقد أصر الرئيس علي أن يستقبلها هناك مدعياً أنها بتكرمه قوي لما يزور هولندا، كان الموضوع أنها ملكة شابة في زهو

جمالها، وكان هو من أحرص الرجال علي ترضية نساء الحكم بدءاً من الغزل وانتهاء إلي التفریط في ثروات البلاد لو أردن منه ذلك، دعني أقول لك إن هذه الملكة زارته في الحكم مرات عديدة قبل حضورها، بل منذ توليها عرشها، وحتى زيارتها للبلاد وعودتها منه، كان إذا أتيح له أن يرتد مراقباً فإنه لا يتورع عن ذلك مغتتما أية فرصة، المهم كان يسير معها أمام حرس الشرف والعزف الوطني للسلامين يدوي، وإذا بي أري ميكروفونا أمامي لا أعرف من أين ارتمي عليّ، كان ميكروفونا مخصصاً لأية نية للزعماء أن يخطبوا أو يدلوا بتصريحات لجمع ما في ساحة المطار، فإذا بي انتع ربع قرآن من سورة طه أمام الميكروفون، وأفسد حرس الشرف وانتابت الجميع فوضى ورعدة، وأنا أرفع صوتي بعزم في طه، طه، طه والرئيس قاعد يقول لهم حد يندهله طه يا جماعة ويخلصنا.. وفين وفين لما فهم أنني أقرأ من سورة طه وإنها إحدى نوباتي المهووسة، ولم ينقذ انفلات الموقف يومها إلا تصور ملكة هولندا أن هذا غناء ديني مقصود منه تكريمها وتحيتها وأول ما أدرك الرئيس فهمها الساذج، ابتسم لي وهو يشيخ بيده.

- بركاتك يا شيخ رزق.. ادع لنا يا مولانا.

ثم مال علي بعدها ونحن في صالة كبار الزوار هامساً:

- وكان فيها إيه لو قلت ربع من سورة يوسف، حكايته مع زليخة مش كانت فرصة نشرح للملكة معاني الكلمات يا مغفل.

غرقيت ريتا في ضحك متهتك إن لم تكن غيرة بائعة أو  
نقمة ظاهرة منه عليها لربما حسبه يوسف ضحكا رقيقا.. قال  
يوسف:

- آه لقد كنت ممثلا مدهشا، لكن أليس في الأمر سذاجة  
زائدة عن اللازم، أن تخيل الحيلة عليهم جميعا من رئيس وقادة  
وضباط؟.

رد رزق:

- ربما يا دكتور لكنك تتصور في هؤلاء الناس ذكاء ليس  
فيهم إلي هذه الدرجة وتتفي عنهم بلاهة وسذاجة موجودة إلي  
هذه الدرجة، ثم من قال إنه كان تمثيلا.. إطلاقا.. كل ما في  
الأمر أنني قررت أن أقول رأيي بصراحة وأفعل ما أفكر فيه  
دون تفكير، وكانوا هم يتلقون هذه الجسارة علي أنها مس من  
الجنون يوحى بالدروشة، بالبركة، بالطيبة.

اقترب يوسف برأسه في المساحة الفاصلة بينهما.

- هل تسمح لي أن أتمتع بمثل ما كنت تتمتع به من  
جسارة وجراءة وأقول رأيي بصراحة دون مواربة؟.

بنقة بليغة رد رزق:

- أنا أري أنك قبضة ذراع يمكن أن تخطب، لكن لا يمكن  
أن تتحرك لوحدها.. أنت قفاز من يا سيد عبدالرازق؟

رزق ضحك حتي الصخب ثم قال دون أن ترجف نقطة  
فوق حرف من كلامه:

- أنا قفاز من لا قفاز له.

- أشك.
- أثبت.
- أصبر.
- حاول.
- مؤكد.
- أتعشم.
- أتمني.
- واثق.
- مؤمن.
- حماقة.
- ذكاوة.
- خيال.
- احتمال.
- ستفشل.
- ستندم.
- سنري.
- ستذهل.
- كبر دماغك.
- صغرتوا دنيتي.
- تعالي معانا.
- من وراءك.
- ورائي من أمامك.

- التفت وواجهني.

- اجري واسبقني.

- لست مجذوبا ولكنك لست شيخا.

- لست جبانا، ولكنك لست شجاعا.

- سأصل للنهاية.

- نهايتك.

- وماله.

- خسارة.

- مكسبي أن تخسروا.

- من أجل الحق.

- من يحدد الحق.

- الله.

- أسأله.

أشعراها بالإجهاد وقد تجمدت أنفاس ريتا، ولعها بغموض رزق وفستوته وروحه ورسالته وجسارته وزعامته ومشوبة بشبوب شبابه، انحازت إلي رزق حتي التماع عينيها باليقين تجاهه، حتي رغبتها حارقة وموجوعة وشبة في تشبيك ذراعها في ذراعه تعريها، فإذا فتول عضلاته وزغب شعره ولهب جلده يكتنفها في شمول النشوة مترعة بهذيان الروح المحلقة والوجد المفتقد حين واصلا حوارهما، قال يوسف:

- نرجع مرجوعنا لوجعنا.. كيف قتلته؟

وضع رزق قنبلته في جيب بنطلون يوسف حين قال:

- رحت أقتله لقيته مقتولا.

تناثرت الدهشة شظايا انغrust في جلد ثلاثتهم.. دوت الكلمات فطغي لهيبها علي مشاعل النار، علي طقطة الشرر، علي رفرقة الهواء للنار.

قال رزق:

- إليكم الحقيقة كاملة كأنها نزلت هكذا من بطن أمها.. لم تقطع حيرتها ولم يمسح بللها ولم يجفف دمها ولم تلبس فستانها. كنت قد غبت في التكية علي غير ما اعتدت أن أفعل وعلي غير ما اعتادوا أن يتحملوا، وكانت روحي قد ضاقت، وقلبي قد انخلع وهمت في هيام الحزن الوشيع، عشت أيامي مصليا دون شحذ للنفس، مرتلا قرآنا دون غموسه بالروح، أيام صدئة وخيالات غير مفوضة ونواقص هواجس ونواقض وضوء حتي جاعني شيخي، لم يكن قد حضر للبلاد منذ عام أو يزيد، هللت ورحبت وكبرت وصليت وسافرت معه وتجولت وجبت ربوع البلاد وضياح العباد والتقينا من الناس بأسود ونمور وديكة ودجاج وضباع ودببة وثعابين وسلاحف.. ولماعدنا إلي التكية بأيام وليال وقد أقرض شيخي ربي قرضا حسنا قال لي: - أنا جنّت لأن حالك تغير، وصفوك تعكر، وفي مجيئي راحتك وهناؤك، قم نكبر وفكر ودبر والرجس فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر، حان الموعد كأنه الوعيد وحل اليوم المجيد.

به منذ ساعة، كما أنه يشعر بضربات قلبه أسرع وكأنها مسموعة في الحجرة. قلت له أحضر الطبيب، قال لا وضحك ربما أنني زودتها حبتين الليلة، كان يقصد لقاء جنسيا ومن المؤكد أن هذا لم يكن صحيحا فلم يكن مع أحد تلك الليلة، لكن خيالاته في هذا المجال كانت قارصة في وجودها عندما تختلط السلطة بالنفوذ وبالإحساس بالذات والجنون بالعظمة مع خرف رجل في الثمانين.

تحدثت ريتا السلبية أخيرا.

- وكيف عرفت أنها تخاريف ربما كانت حقا!

- حقا إيه يا دكتورة.. إن الرجل توقف عن ممارسة الجنس منذ سنوات رغم كل الحقن والحيل والتكنولوجيا.. ثم مألدة الجنس جنب ما طاب من لذة السلطنة.. لكنه الغرور الذي يعمي ويصم.. دخل الحمام، فنمت تحت السرير نعم هكذا ببساطة كمن يستعد لسرقة مصوغات سيدة عجوز. خرج لم يجدني ففتح باب الغرفة وسأل عني أكثر من مرة علي مدي ساعة، كان يغفو وأنفاسه تتحسرج وتتلاحق ثم يصحو يسأل عني وقد بلله العرق ويعود إلي السرير.

كان في إعياء ولاشك غامض وملتبس سكنت وسكت في مطرحي ساعات حتي أدركت الساعة الرابعة تقريبا قمت بعد أن هدأت أنفاسه حتي اختفت تقريبا وتوقفت حركته حتي خمدت تماما، أخذت الخنجر وقد لففت يدي بمنديل أبيض من علي الحائط أحفظ مكانه وأعد له ليوم الحدث الأكبر، بالمناسبة كنت

ففهمت أنه إذن بقتل الرئيس بعد صبر جاوز المدي، فذهبت بصيوات عاشق لأداء المهمة وأنا أري في كل ركن من قصره قيحا مفتوحا وكل حارس شبحا مذبوحا، تملأ أذني أصداء أنات ضحاياهم وفقر رعاياهم.. استقبلوني كما يستقبلوني دوما مرحبين متباركين، كنت قد كلمت رئيسي أنني قادم فانتظروني، وأعدني لأداء المهمة الليلية.

- لكن زملاءك يقولون إنك خرجت قبل نهاية ليلة الخدمة وأن الرئيس خرج بعدك يسأل عنك ولم يجدك.

- فأغشيناهم فهم لا يبصرون يا دكتور.

- هل أنت النبي؟

- وما النبي؟.. أليس الرسالة، والحق، ورفع الظلم ونشر العدل.

- سأتناظر معك بما فيه كفايتي بعد انتهاء روايتك للأحداث.

- ليكن.. لقد دخلت غرفته وحكي لي حلما من أحلامه.. كان حلما يققع في الحقيقة، كان كلما أمسك في الحلم بكرة التنس رفعها في الهواء وضربها بمضربه إذا بها تنكسر كبيضة فرخة وتنفصص في يده وتدلّق السائل الأصفر علي قميصه.. ناقصة هيه بيض وققع!!

- وفسرت له الحلم كالعادة؟

- أبدا.. لم ألحق، كان ينهج علي غير عادته وعيونه زائغة إلي حد ما، فقال لي إنه سوف يدخل الحمام لإسهال غريب لحق

أفتح من جرابه وأتحسسه أحيانا وأقبله وأقرأ عليه آيات من القرآن وشيئا من الأدعية، أمسكت بالخنجر واقتربت منه فإذا هو جثة هامدة بلا نبض وبلا روح خاضع كلية ميت كما الموت تماما لا يتنفس ولا يتحرك ولا ينطق مصفر ومزرق همود وخمود وعيونه نصف مفتوحة مصبوبة في مكانها كدوائر حديد منصهر فيه سواد وفيه نار أمسكت بيده وضعت أذني علي قلبه، أخرجت لسانه رفعت ذراعه، صفعت وجهه، لاحس، لانفس.. الموت وقد حضر بكل جلاله ودلاله الذي اشتقنا إليه، كثيرا كانت في يدي قبضة الخنجر فلم أفكر كثيرا كأني أتمم مهمة بدأها غيري أو أكلل أمرا دبره غيري، طعنته طويلا وكثيرا حتي تخرج السرير بالدم، ولاذت روحي بالراحة. تركت الخنجر في صدره.

همست ريتا ملئعة.

- وخرجت؟

قال رزق

- لا.. نزلت مرة أخرى تحت السرير..

مبهوتان يتابعان قصته التي فتت عظام القضية برمتها.

- نزلت تحت السرير، وسكنت وسكت ونمت ربما ليلة وثانية وثالثة بلا حركة وبلا طعام وبلا صخب وبلا تقلب وبلا ملل وبلا خدر، دخل كثيرون بأحذية العسكر والمدنيين رفعوا وشالوا وحطوا وهدأوا وخرجوا.. وماتت الحركة تماما في

القصر، صحت من النوم في أية ساعة في أي يوم في أية ليلة لا أعرف بالتحديد.. وخرجت وعدت إلي التكية.

قال يوسف:

- أولم يرك أحدا!

عاد فأجاب - تحسبهم أيقاظا وهم رقود يا دكتور.

ثم بادره يوسف بالسؤال:

- لكن كيف مررت منهم وعبرت من البوابات دون أن يعوقك أحدا؟

رد بهدوء:

- ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

لملم يوسف شتات عقله

- يعني أنت قتلت.. لكنه كان مقتولا..

- نعم

- بالسم

- أو بغيره

- من قتله؟

لست أنا.. أنا فقط وضعت الختم الرباني علي جثته.

وحده الآن، كأنما غمام العالم كله أمطره غما حتي أغرقه  
 في نفسه البلية المبلولة بالحزن كأنما رقعة بول في ظهر طفل  
 صحا من نومه ليفاجأ أن إرادته مسحوبة وبوله أقوى منه،  
 يصارع الإنسان طول عمره بوله، من يهزم الآخر؟ في الطفولة  
 يدحرك البول لا إرادة لك فيه حتي إن جاءك صرخت وبكيت  
 ليعرف أهلك أنه يغزوك ويسيطر علي جسدك وتلقاه - غالبا -  
 بشعور من الخزي والعار أن تمكن البول منك. في شبابك  
 شعور بالقوة والغلبة عليه. في الكبر في المرض يردعك البول  
 يشعرك جبنك وقشعريرتك، ماذا لو انتصر؟ ماذا لو جاء دون  
 أن تقوي علي مقاومة تسربه؟ إنه عدو غريب منك وضدك،  
 وجوده المفاجئ الغازي مثل غيابه واختفائه، كلاهما عدو..  
 رغم أن انبثاقه يحميك من سمه، إلا أن قرارك أنت دوما أن  
 تطرد سمومك وكل ما تخشاه أن يكون قراره هو لا قرارك  
 أنت!

هل اكتشف يوسف بول الحياة علي ظهره.. سمها وزعافها  
 ناقعا واقعا في قلبه.

صرخ يوسف في الممر الضيق المعتم المفضي إلي دروب  
المدينة الخلفية.

- من يجفف بول هذه الدنيا.. من يمسح الخراء عن  
مؤخرة هذا الوطن؟

تردد صدي صرخته كأنما هي الحياة الصحراء الموحشة  
الخلاء.. يحسها يوسف فعلا صحراء - لأول مرة- بلا سماء.  
الداهية أن يكون وراء هذا الحبوط حب مجهض.. هل  
أحب ريتا؟ أم أن ريتا هي صاحبة مصباحه السحري القديم  
الذي حكته فخرج يوسف من مكنه من ظلمته من سلامه و  
تسليمه إلي العالم، إلي السعي للحقيقة الذي ينقلب سعيا إلي  
الحق.

مال أمك يا يوسف بديكتاتور مقتول.. ومتي تبكي الشعوب  
سفاحيها وظالميها؟ هذا وطن كف عن أن يبكي حكامه منذ كف  
حكامه عن أن يجففوا دمه، ما يتحرق رئيس قتل اغتيل..  
وأخر قادم قد يقتل، قد يغتال، وماله أحسن! إذا كان الناس لا  
يعرفون للنفاذ من تحت جثث حكامهم الراكبة فوق صدورهم،  
الجائمة علي أنفاسهم، سوي أن يغرسوا سكيناً في لحمهم حتي  
يتخلصوا من ثقل وجودهم.

هل هو جنون جدك.. يعود إليك في تلك اللحظة، يحوز  
علي عقلك ويملك وجدانك ويحرك وجودك.. لحظة ما صرخ  
جدك.. بعد أن سلم واستسلم كثيرا - ضد الحاكم وضد الظلم  
وضد النفاق وضد السيد وضد السادة. أهذا إرتك الغالي والمعر

المذل من جدودك، جاءت ريتا تتفخ في خشب متفحم فتوقده  
نارا ثم تمضي بكل ما تملك مما ورثته - هي كذلك - من  
ملكات النحل.

وقفت عند باب التكية وقد ارتجت وارتجفت من الموقف  
فأسرعت خطي كلماتها تضرب في كعوب كلماتها السابقة..  
قالت:

- أنا آسفة يا يوسف.. حقك علي.. أنا غلطانة وزعلانة..  
لكن أعمل إيه.. تعبانة ومهدودة من حياتي.. كارهة عيشتي  
وبلدي.. هنا أحسن لي.. سأجد حريتي في أسوار التكية..  
واحتمال في ذراعي رزق.. عارفة أنك لن تحترمني بعد الآن..  
نسيت نفسي في مكان مليء بالدخان والأبخرة وأذرع الرجال..  
لكن صدقني الإنسان بيعمل حاجات كثيرة قوي في حياته لغاية  
مايلاقي نفسه.. أول مايلاقيها يبطل يعمل أي حاجة.. يفرح  
بليقته علي الأقل شوية.. سيبني أجرب.. لا أريد أن أكذب  
عليك.. من أول ما دخلت التكية وأنا بأفكر أقعد.. قلبت حياتي  
كل ليلة قبل ما أنام أدور علي سبب أخرج منها لأجله..  
لاشيء.. لا أحد.. حتي أنت كده يا يوسف لكن أنت راجل  
عاقل.. أنا مجنونة كما تعرف.. خلاص زهقت من الأحلام التي  
صارت أوهاما.. من العلاقات التي صارت ذكريات، وتركت  
تشوهات علي روحي وعلي جسدي، الهوية صارت سرايا،  
العمر راح سدي، أما حكاية قتل الرئيس فهو يستأهل.. القاتل  
ليس بطلا والقتيل ليس شهيدا، أنت أول واحد عارف ذلك.. ثم

ما أنت شفت وعرفت بنفسك.. الكل تخلص منه.. والكل أيضا لا يريدنا أن نصل لشيء.. كما قلت.. كانوا متحمسين ساعتها ويبهزروا بينا.. وخلاص النكتة خلصت، لكن للأسف عمر اللي عايشين في النكتة ماضكوا.. عمرك سمعت إن مرة واحدة صعيدي ضحك في نكتة.

ومضت..

وتركته - كما كل الرجال الذين نعرفهم - واحد ووحيدا.

ماذا سيفعل الآن؟ سيواصل السعي من دونها؟ ولماذا؟

ومن القتلة الآخرين الذين يسعي إليهم؟

يوسف بقلب شتيت وعقل مراوغ وروح مخدولة كان الآن وحده أمام بناية من طوابق ثلاثة في حي بعيد من العاصمة، يطرق مطرقة حديد في بوابة جهمة وسط صمت سائد وهواء قوي وعاصف يثير في حي شبه خال مثل هذا، عواصفه وأثرته في خماسين كأنها تطارد يوسف أينما حل.

استغرق الأمر وقتا حتي خرج صبي صغير من الباب الداخلي وجاء حتي البوابة وسأل في فظاظة.

- من أنت؟

- دكتور يوسف رضوان.

- ما ذا تريد؟

- عندي موعد مع السيدة والدتك.

- محدش من اخواتي عايزها تكلمك.. وهي لن تقابلك.

كاد يعري قطعة من جسده تحت قميصه ويقول للصبي.

- هذه لم يضربها أحد حتي الآن بسهم أو سن سكين.  
أدأخه الموقف وحيره.. كان قد اتصل بالقصر الرئاسي وسأل عن كبير الطباخين المنوط به طبخ الأكل للرئيس وهو نفسه الذي كان موجودا ليلة الاغتيال، فقدم له إفطاره وغذاه وعشاءه، حيث لم يكن للرئيس أي زيارات خارجية يومها.  
كان يظن أن السر علي لسان هذا الرجل.. لكن اكتشف أن السر صار في بطنه.

قالوا له لقد مات.. مات بعد وفاة الرئيس بأسبوع تقريبا.

- غريبة.

رد موظف القصر.

- ولا غريبة ولا حاجة لقد جاءته أزمة في القلب مات علي إثرها في المستشفى.

أيزداد الأمر غموضا.. أم ينفجر وضوحا.

تكلم في التليفون مع زوجة الطباخ.. كان الحزن قد نهب صوتهما تماما، جاء مجرد نحنة مبهمه و غائمة.. أذنت له بالحضور للتكلم معها بخصوص زوجها ولما جاء في العنوان خرج له الصبي وأخرج له لسانه رافضا الإذعان لدعوة أمه له بالحضور.

دخل يوسف سيارته وأدار مفتاحها فدار موتورها فتحركت عجلاتها فإذا بشبح يهجم فجأة علي مقدمة السيارة، كبح مسيرها بالفرامل، ووقف مبهوتا إزاء ما يحدث. كان الشبح سيدة ممثلة الجسد، ترتدي السواد، وتلف شعرها بطرحة سوداء شفيفة



وتلبس نظارة غامقة كبيرة تلبع ملامح وجهها كلها.. اقتربت منه وخطبت علي زجاج الباب الأيمن للسيارة تعني أن افتحه ففتحته، فدخلت وهي تركب أعضائها فوق بعضها حتي تتمكن من الدخول الآمن.

جلست وقالت:

- أطلع بسرعة وحياة أبوك أحسن يشوفونا.

تردد فطبطبت علي صدرها متحايلة عليه، وضربت - خفيفا - ظهر كتفه.

- أطلع يا خويا أنا مرات الطباخ.

فطلع..

عندما جلسا في مكان قصي، بات شكلهما متنافرا مع فريق العشاق الموزع علي الموائد، بادرته السيدة:

- علي فكرة أنا ست متعلمة ومتخرجة في معهد محترم وزوجي الله يرحمه كان خريج اقتصاد وتدبير منزلي.. كان من أحسن الطباخين في البلد وياما سافر واشتغل وراح وجاء لغاية ما اختاروه طباخ الرئيس.. الناس حسدونا علي الأمل، لكن والله من يومئذ الفلوس قلت والبركة راحت، كان يقول لي هو طباخ الرئيس حاجة سهلة.. فلوس إيه دي جنب وجودي مع العز والسلطنة.. لكن الشهادة لله عمره ماجاب سيرة أكثر من كده ولا ذاع حاجة ولا حكي حكاية وكنت لما أسأله أنا ولا العيال كان يقول لنا أنتم عايزيني أروح في داهية.. أنتم متعرفوش أن فيه مخبرات ورايا وأمن بيراقبني في كل حنة..

كنت أنكتم أنا والعيال أول ما يزعمق ونعدي الموضوع ونقعد نروق في دمه عشان مايزعش يا روح قلبي.

ثم بدأت تتسال دموعها بغزارة فطرة الحب المدله، ببراءة الفقد العزيزة والعزيز.

فسألها:

- لكن ألا تتذكرين ماذا قال لك ليلة وفاة الرئيس قبل ماتسمعوا الخبر لم يقل لك ولا كلمة لم يحك لك أي شيء.. لم يتوقف عند أي ملاحظة.. ألم يقل أي شيء غير عادي تعليقا علي أي شيء؟

أجلت دموعها حيث هناك وقت طويل للتفرغ لها وقالت:

- لا والنبي ما فاكدة.. لكن هو يومئذ لم يأخذ عشاءه.

- هل كان معتادا علي العشاء في البيت!

- طبعا.. هو يغرك أنه طباخ.. دا كان المرحوم (وانهالت

بالبكاء وهي تتحدث) يقول علي طباخة أحسن من طباخ الرئيس.

- تعيشي وتفتكري.. لكن ليلتها لم يأكل.. لماذا؟

- قال إن نفسه غمة عليه زي الستات الحوامل.. وبطنه

مقلوبة، الصبح سألته أخبار بطنك إيه كان يولداه عرقه مرقه

وبينهج، قلت له العرق شفا وشرب نعناع كثير وراح الشغل..

رجع قبل ما الظهر يأذن.. تعبان زي مايكون ح يغمي عليه،

وقال لي الرئيس مات وساعتين تلاتة والبلد كلها ح تعرف..

مات إزاي يا خويا.. قال لي جاءت ساعة السر الإلهي وهو

نايم.. راجل محظوظ ربنا رحمه من سكرات الموت، علي آخر

النهار كان فرهد مننا خالص طلبنا الدكتور جاء وقال إن عنده التهاب معوي حاد لكن الحمد لله سليمة وكتب له علي أدوية وطلب يأكل شربة خضار مسلوقة بس.. ارتاح علي الدواء يومين ثلاثة، في الرابع (انفطر قلبها بكاء حتي ظن أنها سوف تلفظ قلبها علي كوب العصير أمامها) ساعة العشاء تقريبا تعب خالص نقلناه المستشفى وبعدها بساعتين ربنا رحمه برحمته.

- والدكاترة في المستشفى قالوا إيه؟

- ح يقولوا إيه.. قضاء ربنا.. هو فيه دكاترة بتأجل قضاء ربنا.

فاجأها يوسف بالسؤال:

- انتو المدافن بتاعتكم فين يا حاجة؟

ردت بسرعة ثم فكرت بعد أن ردت.

- نعم يا خويا.. ليه!

لم يجب.. دفع الحساب وأوصلها حتي قرب منزلها وهي تهبط من السيارة ببطء ومهل.. سألها:

- ليه ولادك مانعين عليك الكلام يا حاجة؟

دمعت عيونها في صمت ثم قالت:

- خايفين.. يوم ما مات المرحوم.. اتصل بنا الجدع ده

المهم اللي ماسك القصر ونبه علي وعلي العيال ميتكلموش مع حد علي وفاة الوالد..

وقفت كلمات يوسف علي أطراف أصابعها.

- لماذا؟

- أنا عارفة.. قال أصل البلد مولعة ومش ناقصين دوشة!

- إيه الدوشة دي؟

- أصل أنت مش عارف يا خويا.. ثالث يوم موت الرئيس

مات إيشي مهندس شاب كان بيشتغل في اسمه إيه ده حمام السباحة في القصر.. وبعدين مات زوجي.

غامت وماهت الصور أمام يوسف برهة حتي التقط أنفاسه

بعدها خرجت وظن أنها لن تعود.. قال لها:

- يا ساتر.

ثم أضاف.

- لكن ليه أنت صممت تكلميني مع إني لا ضابط ولا نيابة

ولا حاجة من دول.

ردت في رقة دافئة:

- مش عارفة يا خويا.. قلبي متوغوش والمرحوم جاء لي

في الحلم وسألني عنك.

- قال إيه.

- ماقلش.. سأل بس.

مضت مبتعدة في تودة وزنها وحزنها الثقيل، كان رأسها

يميل لأسفل ويدها لا تنزل عن أنفها، لم يحرك السيارة ولم

يتحرك من مقعده، دارت حمم في ذهنه حتي فوجئ بالسيدة

تقف.. تلف... تعود إليه في شيء من العجلة.. قاد السيارة

للخلف بسرعة خفيفة حتي يوفر عليها المشوار، اقترب منها،

فتح شباك نافذته، ثم عدل عن ذلك فهبط إليها فتح الباب ونزل.

وقف يوسف بسيارته أمام القصر الرئاسي، المبني الضخم الهائل في وحشة الصحراء وصوت الصمت المدوي، ريح الخماسين تطارده هذه الأيام أينما حل، نزل من السيارة فإذا بالريح تكاد تعميه، تقلع نظارته، ترفع ذيل بذلته، ويعبئ الهواء بنطلونه، يمشي بثقل وبصعوبة حتي يصل إلي القاعدة الصوتية التي تترك فيها اسمك وعنوانك حتي يفتح الأمن لك الباب التمهيدي للقصر، لم يجد أحدا كأن المكان مهجور، ضغط علي كل الأزرّة، تكلم لكل الأجهزة المثبتة في الحوائط، لاشيء سوي طعم التراب في فمه ودوي الريح مفلوت زمامها من عقال الصحراء، يضرب في أذنه، يعرف أن الكاميرات التلفزيونية تصوّره الآن وصورته تظهر علي شاشات الأمن الداخلي، لكن لا أحد يعيره اهتماما ولا يبادلّه هما، أدار رقم التليفون المحمول ردت عليه سكرتارية القصر بعد طنين الجهاز.

- أيوه.. من.. دكتور إيه.. أيوه يا افندم.. لأ.. طب ح أحولك علي مدير مكتب مدير الرئاسة.. (طنين في الحرارة.. تقطع.. شفرات رقمية.. نغمات موسيقي مكتومة).. أيوه (جاء

- خير يا حاجة عازاني.

كادت تنقطع ملامحها من البكاء المحتدم وبصوت مخنوق بذل مجهودا في فك رموزه قالت له:

- والله ما أنا عارفة أقول لك إيه.. أصل فيه حاجة غريبة بس والله العظيم أنا بأكلمك جد.. مش عارفة ح تصدقني.

- طبعا يا حاجة.

- أصل المرحوم قال لي حاجة بس مش عارفة والله قالها لي قبل ما يموت ولا بعد ما مات.

- نعم بعد ما مات.

- آه.. في الحلم.. والله ما أنا فاكرة كانت بجد وهو نايم علي السرير يا حسرة قلبي ولا في الحلم أصله بيزورني كل يوم في الحلم فمش عارفة والنبي الفرق بين أيهما حلم وأيهما حقيقة..

- ماذا قال لك؟

ترددت ثم انسحبت من لسانها.

- قال طبابخ السم...

- هل عزيزت زوجة مهندس القصر الرئاسي.. كويس..  
تعرفني الاسم والعنوان.. طيب أنا عايزك تروحي لها من  
الفجر.. اقنعيتها تخرج معك ضروري.. عارفة المكان اللي  
قعدنا فيه.. آه.. أيوه.. الساعة التاسعة صباحا.. آه ولا أحد  
يعرف.. آه هناك جديد.. ضروري جدا.. حياة أو موت.. أنا  
معتمد عليك.. الله يكرمك.. حاضر.. خلي أنت بالك من  
نفسك.. آه بإذن الله.. لأ ولا يهمك.. مين.. لا لم أقبله.. إيه..  
طيب.. عموما مش مهم.. أنا في انتظاركم.. الله يحفظك..  
وأنت من أهله.. محمد رسول الله.. أشكرك جدا.. الله يكرمك..  
بإذن الله.. مع السلامة.. سلامة.

وصل إلي الفندق، كانت رغبته حارقة في الصعود  
لإحضار ديسك الكمبيوتر، وصل للاستقبال طالبا المفتاح، رد  
الموظف بأدب بالغ.

- آسف.. يا افندم.. الغرف اتعمل تشيك بتاعها واتسدد  
حسابها واتسكنت صباح اليوم.  
- وحاجاتي.

التفت الموظف لزملائه باحثا عن إجابة فتدخل آخر.  
- الحقيقة أن الموضوع كله كان بالاتفاق مع أمن الأوتيل..  
إحنا خلصنا الورق فقط وواضح إن الإخوة اللي حاسبوا خدوا  
كل حاجة معهم.

أوما يوسف شاكرا وانطلق إلي الخارج شاعرا أن ثمة أحدا  
يطارده، تذكر ريتا فأخفي دمعة جديدة كأن المآقي لا يفرغ

الصوت كأنه خارج من الثلاجة حالا).. لأ غير موجود.. ليست  
لدينا تعليمات بحضور حضرتك للقصر.. لا أستطيع أن أقدم لك  
أسماء أحد من العاملين.. لا أعرف.. لا أعرف.. الحقيقة ليست  
لدي معلومات.. حضرتك تترك له خبرا.. لا لا أعرف.. لم  
يترك تعليمات.. لا أعرف.. بإذن الله.. معلش نقوله الاسم إيه  
تاني.. آه رضوان.. أيوه.. العفو.. الله يسلمك.

حين عودته إلي السيارة سقطت منه المحفظة.. ثم طيرها  
الريح.. لشد ما تكون الأمور هزلية في هذا المكان.. بدأت  
الريح تطلق محتويات المحفظة في البراح الصحراوي.. بذل  
جهدا أرهقه وأسقطه علي الرمل الخشن بحصوات حادة  
وشظفات الأرض، عاد للسيارة مهدودا، جلس علي مقعده.. لملم  
أشياءه في محفظته.. دمعت عيناه ثم هدأ قليلا وبلغ ريقه ثم  
نظر من الزجاج طلة ثم انهار في البكاء مثل صبي في جنازة  
أبيه.. كانت يده ترتعش وهو يبكي محموما والدموع غزيرة  
سخية فياضة، تسقط علي صورة تجمع بين جديه ومكتوب  
عليها إهداء بخطهما المشترك.. إلي حفيدنا يوسف.. لا ننسنا،  
ثم توقيع جده مكتوب تحته الإخواني وجده الآخر مكتوب تحته  
الشيوعي في مرحح الدعابات القديمة في زمن أكثر قدما مما هو  
حقيقي.

حين كان علي مشارف العاصمة كان قد اتصل بزوجته  
الطباخ التي استمهلته علي التليفون حتي تستطيع الرد عليه، قال  
لها:

- ألم يقل لك أي إشارة ذات أهمية.. أي تلميح.. لامؤاخذة  
خطرفة؟

- كان زعلان بس إنه مش ح يقدر يقعد مع الخبير  
الأجنبي اللي جه للإشراف علي حمام السباحة يومها الصبح.  
- خبير إيه.

- خبير خاص بأحواض السباحة وحاجات لها علاقة  
بتقشير المياه وتطهير الأحواض وتفصيل فنية لا أفهم فيها.  
- ولماذا جاء الخبير؟

- لا أعرف.. هو لم يطلبه، لذلك كان مفاجئاً، وكان خائف  
حد يفهم مرضه علي أنه هروب من خبير مفروض عليه  
خصوصاً أنهم شدوا مع بعض يومها.  
- اتخانقوا.

- آه.. الخبير صمم إن زوجي ينزل حمام السباحة بعد ما  
الريس مشي، وقال له لازم تهوم قبل الريس وبعده، كي تعرف  
درجة دفء المياه ونقاؤها وحاجات كده..

- وزوجك غضب منه لهذا الطلب؟  
- آه كانت أوامر وليست طلبات كما قال زوجي، أيضاً هو  
لم يكن مطمئناً لحكاية التجارب الجديدة علي المياه.  
- تجارب.

- آه قال الخبير جاب معاه مادة من الخارج لتطهير المياه  
عند درجة معينة.

- حد حضر هذا الحوار بين الخبير وزوجك.

دمعها أبداً، قرر أن يذهب إلي حي قريب عتيق، كان يحبه في  
صباه حتي الهوس.. هناك أوقف سيارته وجلس علي رصيف  
مقهى يفتح الليل كله.. طلب شايا ثم أشياء كثيرة، قضت به  
الليلة علي الرصيف متأملاً ومفكراً مهموماً ومغموماً ومثاراً  
ومفكراً وناعساً ومضطرباً، ومنتعشاً، وحاسماً، ومتردداً،  
ومهزوزاً، وواثقاً، يائساً، مندفعاً، متراجعاً، مؤمناً، زاهداً،  
ضائعاً، مبدداً، عازماً، متوكلاً، دامعاً، باسماء شاردة، وصامداً.  
جاءت متأخرة نصف ساعة وكان تأخرها قد أذاب نصف  
جسده مزقاً وأحضرت زوجة المهندس شابة في أواخر  
الثلاثينيات أنيقة وجميلة ومتماسكة وإن كان التردد والتشكك  
والريبة حقاً واضحين في عينيها.

تدخلت زوجة الطباخ في دائرة الصمت لتكسرهما.  
- أنا قلت للمدام علي كل حاجة.. أقصد يعني حضرتك  
رجل مهم وبتحقق في الموضوع.  
قالت المدام حاسمة باردة:

- خير يا دكتور.. هل تشك في شيء؟  
رد يوسف.

- هل حضرتك لاحظت أي شيء مختلف علي زوجك  
الراحل قبل وفاته؟

- الحقيقة.. حصلت له نفس الأعراض التي حكته لك  
الحاجة عن المرحوم زوجها.. لكن كانت التطورات أسرع  
والموضوع لم يأخذ وقتاً طويلاً.

- لا أعرف..

- وهذه التفاصيل كلها حكاها زوجك قبل المرض؟

- حكاها كلها علي العشاء.. لقد كان سر زوجي دائما

معي.

تأمل يوسف الزوجتين المكلومتين، غطس بنظراته في دماء قلبيهما المجروحين.

قال في هدوء وشجن وهو يعرف ماذا سيفعل هذا بهما.

- طبعا ممكن تتعاملوا مع كلامي كأنه لم يكن.. وترتاحوا وتريحوا أعصابكم لكن أنا لازم أقوله حتي لو كانت هذه هي النتيجة.. أنا أشك لدرجة كبيرة أن الوفاة في الحالتين لم تكن طبيعية.. وكما وضع أحدهم شيئا في حمام السباحة احتمال يكون أحد آخر وضع شيئا في الطعام، لأن الطباخ - بشكل أمني وعادي معا- لازم يتذوق الطعام المقدم للرئيس.. والذي وضع السم - إن كان سما- كان يعرف في الحالتين سواء مع الطباخ أم مع المهندس إنهما سوف يموتان مع الرئيس.

توقفت زوجة المهندس بنظراتها عند عيون يوسف، وباحت بسؤالها:

- ليه.. هو الرئيس مات إزاي؟

قال يوسف وهو يضرب بيده تمساحا علي وجهه.

- مات مقتولا.

٣٠

- منذ زمن لم أحضر إلي هذا المكان.

قالها الشيخ عبدالنواب بتأثر وطعم الزمن في حلقه.

رد عليه ماضي بابتسامة فيها رعدة منعشة.

- والله ولا أنا يا شيخ عبدالنواب.

كان النهر بزرقته ورقته وبقائه المحفور في قلوبهما، قد أيقظ دنيا غاطسة في النوم تحت جفونهما.. المكان هادئ، ووديع وخال في هذا الوقت من النهار القائظ، في هذه المساحة المكشوفة للريح من ذلك الكازينو التاريخي الذي أكسبه التاريخ أهمية وأكسبه النسيان فوضي وإهمالا.

- لم يكن المكان علي هذا الإهمال زمان.

قالها عبدالنواب فرد عليه ماضي مداعبا:

- يا سلام ومنذ متي يهتم الإخوان بجمال الأماكن.. من أين جاءت هذه الشاعرية؟ ضحك عبدالنواب فبان طقم أسنانه منتظما ونظيفا ومرتبًا إلي حد أنه يشي بكونه طقم أسنان لامراء.

- أهو أنت من يومك فإكر إن الشيوعيين من أمثالك هم  
الفنانون وأنصار الجمال ومفكرو الحرية.. أما نحن فشيوية  
شيوخ مخرفين من بقايا عصر معاوية بن أبي سفيان.  
- لا والله وأنت الصادق يا عبدالنواب يا خويا.. من عصر  
المنصور السفاح.

قال عبدالنواب وهو يتحسس لحيته الخفيفة البيضاء:  
- لا فائدة منك يا ماضي.. بعد كل هذا العمر.. أنت  
عمر ك كم سنة؟  
رد ماضي باختصار موجز.  
- أصغر منك.

رنت ضحكة عبدالنواب مع نحنحة كحة وسعال خفيف.  
- صحيح أصغر مني طبعاً.. لكن شوف عمري ٨١ سنة  
وصحتي تمام والحمد لله.. مش زي جماعة!  
دافع ماضي عن نفسه بضراوة جادة هازلة.  
- أنا.. أنا صحتي مالها يا خوي.. ماذا يعني شيوية سكر  
علي ضغط، علي انسداد أوعية دموية.  
قهقهه عبدالنواب:

- لأ وإيه.. وإنت الدكتور الطبيب العلامة.  
في استسلام قال ماضي:

- والله كله من المعتقلات يا عبدالنواب.  
في حسم ولوم وتهكم.

- يا سلام.. إنت بس اللي دخلت المعتقلات.. يا واد أنا  
دخلت أكثر منك يبجي بسبع سنين.. عارف يعني إيه سبع  
سنين.. في ملامة بائلة العتاب.  
- آه لكن السنين التي سافرت فيها السعودية، نخغتك  
وروقتك وعوضت أيام الشقا.

في حروف مغموسة بالشجن.  
- بقي أنت تقول كده يا ماضي.. أنت أكثر واحد تعرف  
أنه لا يوجد شيء في الوجود يعوزك ظلام ليالي السجن  
وعلامات آثار التعذيب.  
في إيمان حار.

- صح يا عبدالنواب.. صح والله يا خويا.  
عاد عبدالنواب إلي نفس الدعابة.  
- ثم سعودية إيه يا راجل يا أهبل.. أنا اشتغلت هناك  
مدرس لغة عربية، مهنتي التي أحبها ويشهد الله أنني لم أتقاض  
مليماً من حكومتهم به دعم لي أو للجماعة وأنني اختلفت مع  
الإخوة الذين رضوا برعاية سعودية لهم وقلت إنني أجمد  
عضويتي حتي نتحرر من إغراء السلطان في السعودية هناك  
كما نتحرر من إغواء السلطان هنا..

صمت وهو ينهج وتنقطع أنفاسه ثم واصل.  
- وتعال هنا يا دكتور ماضي يا بتوع الاتحاد السوفيتي  
والحزب الشيوعي والدعم المالي والتحالف مع حكومات تسجن  
وتعذب.

علي عيونهما وفنجانا القهوة يلفظان أنفاسهما الأخيرة.. قال ماضي:

- تفكر دكتور يوسف رضوان عايزنا ليه؟

هز رأسه نافيا وقال عبدالتواب:

- والله ما أنا عارف.. لكن صوته كان متضايق وليس

طيبا.

متأوها ومتألما:

- الله يرحم جدوده، كانوا أعز الناس في قلوبنا أصدقاء

عمر وأبناء بلد واحدة وحتة واحدة ومدرسة واحدة.. بس أنتم

كنتم أكبر مننا يا عبدالتواب.

زقق فيه عبدالتواب معلنا ملله منه.

- يا واد قاعد تصغر في سنك كأنك علي وش جواز.

نظر له ماضي في تحديق وجدية.

- أنت بتقول فيها، الواحد فعلا ممكن يتجوز ويعيد أيام

مجده.. هوه إحنا كنا لحقنا نتجوز في شبابنا.

دخل يوسف فانتعش قلبه وارتعش بدنه لما شاهدتهما.. من

الواضح أنهما جاءا معا قبل الموعد.. اتصل بهما بالأمس..

رجاهما أن يحضر كلاهما.. أعز أصدقاء جديهما.. وأنبل من

عرفتهم الحركة الوطنية.. كان يعرف أن له دلالة عليهما منذ

طفولتهما.. كان يعرف أنهما - كلا علي حدة- يعتبرانه حفيدهما

(الذي تمناه من الدنيا) لذلك كان يلجأ إلي حضن عقلمهما

وخبرتهما وإلي قوة ذراعين تحميانه من دوامة البحر المخادعة.

ضحك ماضي ملء فمه.

- طبعا أنت الود ودك أغضب وانترفز والسكر يزيد

عندي.. لكن بعينك يا عبدالتواب أفندي، علي إيدك أنت والحاج

زمان.. أنا كنت في المعتقلات مسجوناً ومهاناً والرفاق

الشيوعيون وزراء ورؤساء مجالس إدارة، كنت طبيباً فقيراً

علي قدي في أوسخ حنت في الريف، وهم هنا صحفيون وكتاب

في مكاتب التكيف والرفاهية.. إحنا يا عبدالتواب وش فقر إذا

كنت أنا ولا أنت..

خبط عبدالتواب كتف ماضي وسأله كمن يسأل طفلاً في

السابعة من عمره.

- أنت بتصلي يا واد يا ماضي!

أشاح ماضي بوجهه معلنا التمرد والغضب.

- يوه.. شوف برضه بيقول لي إيه..

ثم التفت له في موضع مواجهة العين بالعين.

- طيب يا عبدالتواب دا أنا وأنت كنا فرجة بين جماعتنا،

أنا الشيوعي الوحيد الذي يصوم وأنت الإخواني الوحيد الذي

يسمع أم كلثوم.

ضحك مهلاً كمن قبض علي جناحي عصفورة.

- كنت أنا وأنت كل واحد الفاسد علي طريقته في جماعته.

دمعت عيونهما من التأثر والشجن، أجسادهما مليئة

وعريضة وملابسهما كاملة وتقليدية ونظارات ذات طراز قديم



امتزجت الأحضان بالدموع، والسلامات بالابتسامات،  
الضحكات بالآهات، التربييت علي الكتف، الطبطبة علي الظهر،  
الحنان يبرز من العيون، الدفء والأبوة ينفخان في الجو رائحة  
الربيع.

- خير.

- مالك.

- فيه حاجة وحشة حصلت.

- أو ح تحصل.

- قول إحنا مثل أجدادك.

- قول إحنا نحميك بعيوننا.. لا يغرك أننا كبرنا وعجزنا  
ولا إيه يا عبدالنواب.

- عجزنا.. إلا عجزنا.. طبعاً شباب يا ماضي.

أخذنا يحدثانه معا وهو صامت.. حتي قرع طبله الحقيقة  
وبدا يحكي لهما.

لم يكن سهلاً علي رجلين - هذا سنهما وذلك كفاحهما- أن  
يتعاملوا مع تفاصيل الوقائع.. ضربات كالصدمات.. مفاجأة تلخ  
الجذور.. ريح تكسر أعواد الشجر.

قال يوسف:

- أنا أعرف أنني أتحدث عن الرجل الذي أعدم زملاء  
العمر، إخوة وأصدقاء، اعتقلكما وعذبكما زبانيته، ديكتاتور  
قضيتما في سجنونه أجمل أيام العمر، أجهض أحلامكما وأحلام  
وطن.. سبق سابقه في كل أصناف مطارديكما وملاحقتكما..

رفضتما تحديدا المشاركة في مبايعته ثلاث مرات، وكاد  
يعدمكما، وقد بلغت ما بعد الستين والسبعين.. قاطعتما  
زملاءكما الذين وضعوا أيديهم في يده، وطبقوا معه الشريعة  
علي هواه من الإعدام والتقتيل، وطبقوا معه العدالة علي هواه  
من مناصرة الغني ضد الفقير..

أن آتي اليوم وأطلب منكما المساعدة في كشف قاتله فهذا  
أمر صعب قطعاً؟

قال عبدالنواب.

- وماذا ستستفيد من معرفة القتلة الحقيقيين.. لقد عرفت  
أحد القتلة فماذا فعلت؟! ثم هل تظن أنه يمكنك معرفة الحقيقة  
وبفرض أنك عرفتها هل يمكن أن تعلنها.. وبفرض أنك  
أعلنتها.. ماذا ستستفيد؟

قال ماضي:

- قبل ما ترد علي عبدالنواب، أؤكد لك وأنا الشيوعي  
القديم أنني فعلاً مع قتل الديكتاتور واغتياله.. الكلام عن استبعاد  
التصفية الجسدية مع ولاد الكلب دول كلام حضاري لا  
يفهمونه.. لكن هذا ليس معناه أنني مع الإرهابيين ولا مع شوية  
المجانين بتوع التكايا اليوميين دول.

رد عبدالنواب.

- ما هو الرجل ده يا ماضي اللي رمي الناس في أول  
عهده علي الإرهاب و في آخر عهده علي التكايا.

قال ماضي:

- لعلمك كان مبسوطا في الحالتين.. لأن الإرهابيين والتكاي ليسوا حلولا للبلد.. كانوا يبعدون الأنظار عن أن الحل هو التخلص منه ومن نظامه.. سكنا فجأة ونظرا إلي يوسف الذي همس.

- أنا لا يهمني أنه مات.. أنا يهمني أن قاتله الحقيقي غامض ومجهول وموجود وراء قفا هذا الشعب.. هم لم يتخلصوا من الرئيس لأنه حاكم ظالم.. هم تخلصوا منه حتي حلوا محله.. حتي يستمر نظامه بكفاءة أعلي في القتل والظلم والديكتاتورية.. أنا كنت أبحث عن الحقيقة.. الآن أبحث عن الحق، كنت أبحث وراء المقتول.. الآن أبحث عن القتلة لأنهم يمكن أن يقتلوا الشعب كله كما قتلوا رئيسه.. يقتلون من يقف ضدهم وضد سياستهم ومصلحتهم.

قال عبدالنواب:

- وهل تعتقد أن مجرد تحليل جثة ولأ اثنتين وإثبات - مثلا- أنهما كانا قد تعاطيا سما تعاطاه الرئيس.. هل يعني ذلك معرفة القتلة الحقيقيين.

قال ماضي بسرعة ومقاطعا يوسف قبل أن يبدأ:

- لأ يا عبدالنواب.. بس معناه كشف الفضيحة، رفع الملاءة عنهم جميعا وهم عرايا.. خلخلت النظام.. تفكيكه أو المساهمة في تفكيكه قلب المائدة عليهم.. يخبطون في بعض.. عارف ماذا سنفعل؟ سوف نقطع الخيوط التي تربط العرائس بأيدي لاعبي العرائس الجالسين فوق، فوق خشبة المسرح.

التفت عبدالنواب ليوسف.

- الكلام الذي يقوله الراجل الأهل ده صحيح.. يعني هذا قصدك.

صرخ فيه ماضي قبل أن يرد يوسف:

- ولو مش قصده يا أخي.. إيش فهمه هوه في السياسة دا راجل بتاع عدل وحق وسيادة المستشار وسيدي القاضي ورفعت الجلسة.. إحنا بتوع سياسة والذي أقوله هو الصح. استبعدا يوسف من الحوار تماما وكان يوسف رغما عنه يبتسم من صراع الديكة بين العجوزين الرائعين.. أخذا يتبادلان الرأي والمشورة والمشغبة والملاعنة الخفيفة والمداعبة. قال عبدالنواب:

- أنت مازلت تفهم في الطب.. يعني ممكن تشرح الجثث؟

رد ماضي - يعني أنا كنت ماجستير في التشريح.. لكن عموما ح ارجع لكتابين ثلاثة.

قاطعه عبدالنواب حاسما.

- ح تفهم ولا مش ح تفهم.

قال ماضي وهو لا يقل حسما:

- يا راجل عيب.. التقرير ح يبقي عندكم ولا أحسن كبير أطباء الطب الشرعي في بلدكم.

باترا قال عبدالنواب:

- وأنا علي تحضير المستشفى الذي سنستخدم مشرحته وأدواته ولو عايز أيضا كم ممرض وممرضة.

والتفت ليوسف أخيرا.  
- و أنت عليك تحديد الموعد.. و أيضا خبرتك بعد مانتبت الحقيقة.

لمعت عينا يوسف ثم بكى.. بكى بكاء حارا يفضح في عز هذا النهار، حاول ماضي أن يخفف عنه قال:  
- لا تبك.. أنت لك حق تضحك لما تقطس علي نفسك من الضحك.. الذي لم يفلح فيه أحد أنت أفلحت فيه.. أنا وعبدالغواب سنشتغل سياسة معا.. دي ح تبقي مسخرة.. يا راجل اضحك.

كانت ريتا في تلك الحجرة الأثيرة لديها في التكية البحرية، فيها رطوبة من رائحة النهر ونسائم وادعة كأنما تتسرب من الأسقف وسرير صغير أقرب إلي الكنبه الواسعة مغطي بفرش من الألوان الزاهية لون الفطرة والوسائد القطنية الدائرية ونقوش مرسومة علي الحوائط من عبث أطفال صغار في ألوان تذهب سراعا للبهتان، كانت تنام فيها، وتستقبل فيها - تحت ستار الخلسات رزق - وتكتب فيها شيئا مما رآته وتوقفت عنده بقية نهارها وطيلة ليلها تحت دفوف الدروشة في صفوف الدائخين حبا في الله وفي الحلم بالعدل القادم في التفقير والرقص الدموي حينما في طبول وأبخرة ونيران مبعثرة علي مساحات جسدها يحرقه حنين لغموض أسر أو يأسره غموض حنون.

لعلها كانت تنتظره فجاء.

دخل رزق عليها وقد بدت شقراء مفعمة بالحيوية صبوحة مشرقة علي نحو ما، كان يرتدي جلبابا قصيرا فوقه صديري أسود بنقش أبيض.. قال لها:

عن الوعي.. بعدها بساعات قرأت الصحف علي التفاصيل  
وكان مما قرأته:

«القبض على عصابة للعبث في القبور يتزعمها أستاذ  
قانون مشهور».

والعنوان في صحيفة أخرى جاء هكذا:

- اضبط.. لص القبور يعمل أستاذا جامعا في كلية  
الحقوق.

وفي ثالثة علي هذا النحو.

«سر الاعتداء علي جثث النساء في المقابر.. ضبط أستاذ  
جامعي عاريا في مقبرة نسائية».

وجاء في التفاصيل.

نجحت قوات الأمن في كشف غموض حوادث الاعتداء  
علي المقابر في أكثر من منطقة في ضواحي العاصمة وأسفرت  
هذه الحوادث عن نبش القبور وسرقة محتوياتها والتجارة في  
الجثث لطلاب كلية الطب وثبت كذلك حدوث بعض الاعتداءات  
الجنسية الشاذة علي جثث حديثة لنساء.

وقد ضبطت مباحث العاصمة مساء أمس الأول أستاذ  
جامعا «ي.ر» يعمل أستاذا بكلية الحقوق يقود عصابة لنهب  
القبور وأكدت التحقيقات الأولية أن هذه الهواية الشاذة بدأت  
بقيادة الأستاذ الجامعي منذ فترة ونجح في ضم بعض المحترفين  
من حفاري القبور وشحاذي المنطقة في عصابة قامت بأكثر من  
عملية خلال الشهور الماضية، وقد قامت النيابة بتحويل المتهم

- مبسوطه.

ردت في رقة وبلا مجاملة.

- جدا.

سألها:

- هل أنت هنا.

قاطعته.

- نزوة.

نفي برأسه وقال:

- غزوة.

قالت.. لا أفهم.

رد عليها وهو تقريبا يحضنها بقامته الطويلة فوجدت  
رأسها عند صدره.

- أقصد مجرد استكشاف للعالم، كشفا لغموض، فكاً  
لطلاسم حياتنا ثم تملين أو ترحلين.

شعرت قلقل في رنة صوته وحروف لغته.

- هل تعتقد أنني هنا للتجسس؟!

نفي عن نفسه تهمة هذا التفكير.

- إطلاقا.. أنا أقصد.

قاطعته.. فيه إيه يا رزق.. حصل حاجة؟

أخرج من تحت الصديري صحفا، قدمها لها علي الصفحة  
الأولي، كانت تنصدر الأجزاء السفلية من الصفحة صورة  
يوسف رضوان.. شيء ما غريب وفوري وكاسر جعلها تغيب

الأول دكتور «ي.ر» إلي الكشف الطبي للتأكد من سلامة صحته العقلية والنفسية، وعلمت مصادرنا أن هناك تأكيدات علي أن الأستاذ الجامعي يعاني من مرض «النيكروفيليون» وهو اسم يطلق علي الذين يهوون نبش القبور والعبث بالموتي قد ينتهي به إلي الإيداع في مستشفى الأمراض العقلية للعلاج وتنفيذ الحكم الذي ينص القانون علي أن عقوبته قد تصل إلي عشر سنوات سجنًا.

في اليوم التالي كانت عناوين الصحف كالتالي:  
«النائب العام يحظر النشر في قضية نبش القبور وإحالة الأستاذ الجامعي إلي مستشفى الأمراض العقلية».

ليلتها كانت ريتا ترقص محمومة في حلبة الدفوف والطبول، وكانت تبكي بصوت عال كنحيب له دوي ووقع الجنازات البعيدة، وتصرخ ملتاعة مولولة كالأرامل.

- يالهوري.. يا خرابي.. يا عيني عليك يا خويا يا يوسف.  
وانسدل شعرها مفكوكا منكوشا بصفاره الغريب وكان كحل عينيها قد ساح وساب وانسكب علي خديها مبللا بالدموع وصراخها صار مبجوحا.

- أنا اللي عملت فيك كده يا خويا.. معلش يا حبيبي حقك علي يا يوسف.

وقد اقترحوا علي رزق لما كادت ريتا تجن حزنا أن يعطيها مسحة أفيون كي تهدأ وتروق وتنام.. ولكنه رفض ثم لان لما زاد نحيبها وصار خرابا نفسيا مهولا وقدموا لها فنجان

القهوة الصغير الممزوج بشعيرات من الأفيون.. بعدها نامت كثيرا وطويلا ولما استيقظت بين الإغفاءة والإفاقة قال لها رزق:

- أنا سأتزوجك يا ريتا.

ابتسمت وطبطبت علي خذه برقة وقالت:

- هل لك دخل فيما حدث ليوسف.

هتف وهو يضمها في سبيله للبكاء.

- أقسم بالله العظيم مالي دعوة ولا دخل.. بل أنا متعاطف

معه جدا.. لكن لا أحد يفر من قدره.

دخل عليه سكرتير الرئاسة كان الرئيس فرحا دهشا وحده في الصالون الواسع داخل البرلمان، كان رئيسا البرلمان ومجلس الشيوخ قد انصرفا مع حشود الوزراء والضيوف الأجانب ليجلسوا في مقاعدهم بقاعة البرلمان الكبرى، وكان في انتظار سكرتير الرئاسة الذي جاء في موعده تماما ليعرف منه الإجراءات اللازمة والخطوات القادمة، بادر الرئيس سكرتيهه بسؤال مباغت.

- إيه رأيك.

ارتج السكرتير الذي قال:

- في إيه يا افندم.

ز عق فيه الرئيس.

- في البدلة يا جدع.

تنفس السكرتير راحة، راحة جعلته يحلق، يسبح، يطير في سماء المكان، إنه نفس السؤال الذي سأله الرئيس السابق بعد استفتائه الأخير إيه رأيك، في إيه يا افندم، في البدلة يا جدع، حتي يا جدع هي نفسها ليست مثلا يا راجل، يا حمار، يا بني

آدم، لأ.. نفس الكلمة، نفس الوصف، يا جدع.. هذه المرة رد أكثر حفاوة وبلاغة من المرة السابقة مع السابق.. قال:

- رائعة يا سيادة الرئيس.. جميلة ومذهلة ولائقة جدا علي المناسبة وعلي القوام والشخصية.

رد بفرحة والله.. هذا رأيك بجد.

أسرع، بجد جدا يا أفندم.. هل هذه إيطالية.

رد الرئيس.. آه.. عرفت إزاي.

قال سكرتيره:

- الخامة والشياعة.

- مال علي سكرتيره وهمس في أذنه.

- أقول لك علي حاجة سر.

- في ببر يا افندم.

نظر حوله وقال بفرحة طفولية غامرة.

- جاءتني هدية.

رسم السكرتير التعجب علي وجهه.

- والله.

أوما الرئيس بفرحة أكثر طفولية مما قبل.

- من ريس مجلس إدارة شركة إيطالية.

- راجل عنده ذوق.

ضحك وهو يضرب كتف سكرتيره.

- لأ وإيه.. بعثها ومعها ترزي مخصوص لضبطها علي

جسمي.

- يا عيني.

خرج من فرحته بالبدة إلي الجدية المضطربة.

- قل لي ماذا سنفعل الآن؟

- سنخرج إلي الممر، نقف سيادتكم دقيقة واحدة حتي أدخل

إلي منصة البرلمان، وأعلن عن حضورك، فتدخل سيادتكم في

الأول سيرغي رئيس المجلس بالشويتين بتوعه.. وبعدين يقدم

سيادتكم كي تخطب في البرلمان خطبتك التاريخية، هز الرئيس

رأسه مستعداً خرجا معاً، سبقه السكرتير بينما كان اضطراب

الرئيس باديا في عيونه التي تتحرك بسرعة وبتوتر في المكان

الذي بدا خاليا إلا من بعض الحرس العابرين والمبتسمين له

والمنحنين لطلعته، سمع السكرتير ينادي في الداخل.

- السيد رئيس الجمهورية.

دخل فاشتعل المكان بالتصفيق المنذلق حمية، تقدم وواجه

المصفقين، رفع يده اليمنى تحية لهم ثم رفع يديه الاثنتين وهم

يواصلون تصفيقا غزيرا مدمدا كان ينظر للوجوه فلا يراها،

للأكف الملتهبة تصفيقا فلا يلمحها، لشرفات المجلس حيث

الصحفيين والضيوف فلا يدركهم، كان أمامه بحر هادر من

الألوان والأضواء، وكان قلبه مندفعا في ضرباته ونبضاته

لاراد لهديره، يتخيل دمه أمواجا من دم تائر مرتفع تضرب في

صخور قلبه فتفتتها.. أدرك أنه لابد أن يجلس فجر قدميه جرا

حتى المقعد الذي يتوسط رئيس البرلمان ورئيس مجلس

الشيوخ.

كان اضطراب قلبه طاغيا حين تحدث رئيس المجلس وقال فيما قال:

- إن هذا اليوم من أجل الأيام في تاريخنا الحديث ومن أجمل الأيام في سنواتنا القادمة، اليوم نسلم واحدا من أعظم الرجال ومن أشجع الرجال ومن أنبل الرجال نسله مسيرنا ومصيرنا ليكون رمزا للأمة، وزعيما للوطن ورائدا وقائدا نهضتها التي ستكون علي يديه سيرفعنا من العثرة إلي القمة، من السفح إلي السطح، يتسلم مهمته التي لم يعرف غيرها في حياته الغنية الخصبة، أن يكون قائدا لنا أن يكون نورا وكشمسنا، أن يكون فجرا بعد ظلامنا.

أقدم لكم الآن البطل القائد والرمز الرائد والهادي المنير و الفارس الشجاع، المسموع المطاع، الحاكم الحكيم، السيد رئيس الجمهورية.

كان الرئيس.. وهو لا يصدق أن هذا التقديم لم يكن لأحد الأنبياء الذي حضر هذا الاجتماع علي سبيل الصدفة.. قام مع تصفيق - لو كان صادقا حقا لأعطاهم قلبه أمانة - ومشى من المنصة إلي سلمتين تقودانه إلي المنصة الأخرى التي سيقف عليها وحيدا يلقي خطابه حين وقف أمامها توقف التصفيق، وران صمت، ورأي الملف مكتوبا عليه «خطاب السيد الرئيس» ذلك الذي تركه السكرتير منذ لحظات، عندما حركه تحرك معه ملف آخر تحته كان بنفس اللون والشكل والحجم، جذب دهشته من يدها ففتح الملف الغامض (من الذي وضع هذا

هنا.. كيف جاء به إلي هذا المكان) أول ورقة كانت بالإنجليزية، وخلفها ورقة بالعربية مكتوب عليها نص ترجمة التقرير الأول، عاد للصفحة الأولى إنها صادرة من المستشفى الذي كان يعالج فيه، آه، إنه ملفه الطبي عند الصفحة الأولى رأي سطر مكتوبا بخط اليد يقول: اقرأ صفحة ١١ السطر رقم ٩، ١٠ بسرعة فرّ الورق بينما البرلمان كله صم بكم ينتظر الرئيس ليتتحنح ويبدأ خطابه وصل الرئيس إلي صفحة ١١ جري بعيونه فإذا بالسطر التاسع والعاشر محطوط تحتها خط أصغر وقرأ بنظرات أوشك أن يشعر أنها آخر ما سوف ينظر إليه في الحياة.. قرأ:

- وحالة القلب بعد إجراء العمليات تمنح المريض فرصة للحياة شبه الطبيعية بين ستة إلي ثمانية شهور وهي المدة التي يمكن أن يتحملها القلب، بعدها سيكون الموت وشيكا في أي لحظة.



كان الممر طويلا، معتما رغم ضوء النهار القادم من فتحات السقف الزجاجية، كان يوسف يمشي ببيجامته البيضاء ويجر حذاءه الكاوتش الأبيض علي البلاط البارد العاري وتظهر لحيته التي بدأت في الكثافة، ونظارته التي كسرت عدستها اليمنى وبان شرخها واضحا، ورغم ذلك لا يخلعها أبدا، ازداد نحولا وانفصح قصر قامته بجوار ممرضين عملاقين في جسدهما الضخم يقودانه من ذراعه إلي غرفة جانبية، لما دخلها بلعه اتساعها الشديد وخلأوها الكامل، أجلساه علي مقعد حديدي مطلّي بالبياض وقيدا ذراعيه في مسندي المقعد بسلسلتين من الحديد فيه ملامس الصدا، تركاه وخرجا، تجول بنظراته في المكان، سقفه المرتفع حتي كأنه سقف السماء هو الذي انخفض، الحيطان عالية كجدران القلاع، الغرفة باردة كأنها ثلاجة للموتي، فجأة انفتح الباب ودخل عليه العجوزان الرائعان عبدالتواب وماضي، نهشت المفاجأة قلبه، أهو حلم أم حقيقة؟ خيال ومرض أم حدث وحق؟ كان علي وجهيهما حزن بلا حل، والتجاعيد و ضعف النظر خلف النظارات التقليدية، النبت

الأبيض للشعر في الذقن غير الحليقة والبياض الثلجي لشعر الرأس، وقطرات الدموع المصبوبة في العيون ورجفة الشفة ورعدة اللسان ورعدة الكف وهي تحضنه وتقبله وتمطره حنانا حتي الامتلاء، أخذ نحبيهما يشدد وارتدا طفلين لا يملكان لصراخهما رادعا، جفت دموعه منذ فترة، لم يعد يعرف كم طالبت، لكنه يحس قدوم دمعة من مكان سحيق في جوف ذكرياته تندفع في جري محموم ولاهث في قنواته الدمعية تبلل جفافها الجذب، كالفيضان كالطوفان هاهي وصلت أخيرا، هاهي انفجرت موجا عاتيا عاليا رهيبا، هاهي تنزلق ساخنة لهيبة من تحت جفنه إلي خده فصرخ طويلا موجوعا وناظقا في عودته من رحلة الخرس الطويلة.

- آه.. آه.. آه.

حين أمرهم الممرضان بالخروج وانتهاء مدة الزيارة المتاحة والمسموحة قام العجوزان وتيددين ضعيفي الجسد واهني العظم، اقتربا برأسيهما يقبلانه كل في خد.. همسا في أذنيه (كل في أذن).

- لا أحد عرف أنهم قبضوا عليك وأنت تعيد الجثث وليس وأنت تخرجها.. لقد شرحناها فعلا وحللناها.. المادة لم تكن سما، لقد عملنا البدع.. لا يغرك أننا «مهكعين».. اكتشفنا أنهما مادتان تؤديان نفس الغرض.. اضطراب في الدرة الدموية يؤدي إلي هبوط حاد ثم موت صادم، المادة لم تعط علي جرعات في الطعام إنما انحطت كلها في حوض السباحة مرة

واحدة وهي يمكن دخولها من الجوف أو الجلد.. هذه المادة لا تملكها إلا معامل المخابرات وفيه مافيا ورجال أعمال اشتروها.. والمخابرات ورجال الأعمال وغيرهم استخدموا ناسا مسئولة داخل القصر والبركة فيك لما تخرج تفضحهم.

ثم استدارا ومضيا إلي الباب تاركين يوسف مقيدا في مقعده، قلبه يرتجف، وعقله يزوم، وأذنه تسمع دوي رياح الخماسين القادمة.

همس عبدالنواب وهو ينظر له نظرة نهائية.

- ربنا يخرجك بالسلامة يا يوسف يا بني.

أما ماضي فقد ضحك عاليا وصرخ علي يوسف:

- أسكت.. مش أنا ضبطت الشيخ عبدالنواب الإخواني

بيغني مع نفسه بصوت عالي (وبدا يغني هو بصوت مبجوح وخلفه عبدالنواب مرحا بأصوات سن الثمانين معا): يا أهلا بالمعارك.. يا بخت مين يشارك.. ملايين الشعب تدق الكعب تقول كلنا جاهزين.

النهاية

٢ - ٢٩ أبريل ١٩٩٩

مقاهي واشنطن وسان فرانسيسكو وبيركلي  
الساعة الثالثة ظهراً بتوقيت واشنطن  
مقهي ستار بلكس

